كتاب الهلال

١٠ قروش

سلسلة ثقافية شهرية

كتابات لم تنشر

الدكتور محمد مندور



كتاب الهلال

KITAB AL-HILAL

سلسلة شهرية تصدر عن « دار الهلال »

رئيس مجلس الإدارة : أحمد بهاء الدين

مدير التحرير : رجاء النقاش

العـــدد ١٧٥ جمادى الاخرة ١٣٨٥ — اكتوبر ١٩٦٥

No: 175 - Octobre 1965

مركز الادارة

دار الهلال ١٦ شارع محمد عز العرب

التليفون : ٢٠٦١٠ (عشرة خطوط)

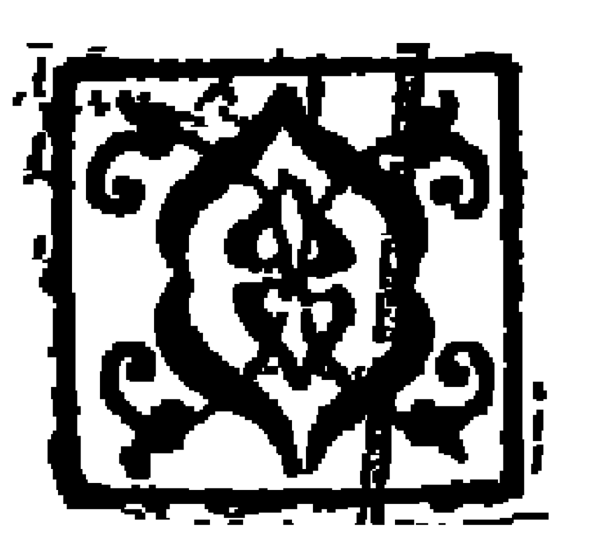
الاشتراكات

قيمة الاشتراك السنوى : (١٢ عددا) فى الجمهورية العربية المتحدة جنيه مصرى — فى السودان جنيه سودانى فى سوريا ولبنان ١٢٥٠ قرشا سوريا لبنانيا — فى بلاد اتحاد البريد العربى جنيه و ٣٠٠ مليم — فى الامريكتين ٥ دولارات ونصف — فى سائر انحاء العالم ٣٥ شلنا

سعر البيع للجمهور : قطر والبحرين ٤٠ آنة ليبيا (بنغازى وطرابلس) ١٥٠ مليما ، الجزائر ٧٥ فرنكا ، المغرب ١٥٠ فرنكا







سلسلة شهرية لنشر الثقافة بين الجميع

الغلاف بريشـــة
الفنان : حلمى التونى

كتابات لم تنشر

بقلم
الدكتور محمد مندور

دار الهلال

تقديم

عندما توفي الدكتور محمد مندور في١٩ مايو سنة١٩٦٥ شعر الكثيرون أنهم خسروا رائدا عظيما من رواد النضال المخلص في بلادنا ، فلقد كان مندور رائدا في الميدان الادبي، وكان منذ أن بدأ يكتب في ١٩٣٩ داعية من دعاة التجديد الادبي ، وكان التجديد الذي يدعو اليه هو تجديد الاصالة والعمق ، وليس تجديد « الموضة » ولا تجـــديد الذين يحاولون لفت الانظار اليهم بأي وسيلة ممكنة ، على عكس هذا كله كان مندور ، فكانت دعوته الى الشعر المهموس ــ على سبيل المثال ــ هي دعوة الى الصدق ٠٠ دعوة الى العودة بالادب العربي الى المنبع الوحيد الاصيل لكل أدب عظيم وهو : النفس الانسانية ، وكانت دعوة مندور الى الهمس هي رد على الادب اللفظي الخطابي ، أدب الزخارف الخارجية اللامعة ، الخاوية في نفس الوقت من الصدق والاصالة والاقتراب من النفس ، وقد لقيت دعوة مندور الى الهمس تأييدا كبيرا بين الاجيال الادبية الجديدة ، وما تزال هــذه الدعوة أساسا قويا من أسس التجديد الاصيل عند الادباء الشبان ٠٠

ولم يكن مندور ناقدا أدبيا فقط ، بل كان مفكرا تتميز نظرته الى الامور بالعمق والشمول والحرارة ، ولم يستطع أبدا أن يقضي على طبيعته الحية النشيطة الملهمة ٠٠ لـم

يستطع أن يفرض على نفسه العزلة والبعد عن مشـــاكل الناس ، والتفرغ للبحث والرهبنة فى ميـدان الدراسات الادبية ، فلقد كان مندور يحب أن يشارك فى الحياة ،وأن يساهم فى تغيير ما فيها من أخطاء وعيوب ، ومن هنااندفع مندور بكل حيويته وحماسه للنزول الى الحياة العـامة ، واستقال من الجامعة حيث كان أستاذا لعشرات من الطلاب، فأصبح خارج الجامعة أستاذا للالاف بل والملايين ٠٠ لقد دخل ميدان السياسة ، وأخذ يكتب فى الصحف، ويخاطب الرأى العام باستمرار ، وبذل جهدا لا حد له فى تنوير الجماهير ، وفى تطوير الحياة الســـياسية ، وكان أعظم أدواره ولا شك هو ربطه الواضح بين القضية الوطنيـــة والقضـــية الاجتماعية ، لقـــد وقف منذ البـــداية ليشير وينبه الى أن الاستقلال السياسى ليس هو وحده هدف المصريين ، بل انهم يهـــدفون الى الاســـتقلال الاقتصادى أيضا ويهـــدفون الى تحقيق العــــدالة الاجتماعية فى نفس الوقت ، ولا معنى للاستقلال السياسى اذا لم يرتبط بالعدالة الاجتماعية ارتباطا وثيقا أصيلا !

وعندما نقرأ كتابات مندور قبل الثورة ندرك تماما أنه كان أحد الذين يبشرون فى اخلاص وأصالة بقيام الثورة، بل وكان يتنبأ بكثير من الافاق التى سوف تسير فيهـــا الثورة لتحقق احلام الجماهير

فلقد كان مندور من الرواد فى الدعوة الى تدخل الدولة فى الاقتصاد حتى يمكن تحقيق العدل وتطوير الانتاج ، وكان منـــدور من الرواد فى الكشف عن عيـــوب الديموقراطية الغربية التى كنا نقلدها هنا فى مصر ، ولا نظن أن هناك كاتبا قبل الثورة استطاع ان يفضح هذه الديموقراطية ويمزق ما تتخفى وراءه من أستار كما فعل

مندور ، ولقد نادى مندور فى مقابل اعتــــــراضه على الديموقراطية الغربية بالديموقراطية الاجتماعية ، التى تحفظ للفرد كرامته وحريته وتحقق العدل والمساواة بين الجميع وانطلق مندور من خلال هذه الافكار الرائدة ليحارب استغلال الباشوات ويكشف أسرار هذا الاستغلال بصورة جريئة واضحة مدعمة بالحقائق والوثائق

وعندما قامت الثورة ، ورأى مندور أحلامه فى العدل والحرية تتحقق حلما بعد حلم ، وجه نشاطه الى الميدان الادبى من جديد ، وان كان فى رحلته الادبية الاخيرة بعد الثورة يتحدث باستمرار عن الدور الاجتمـــاعى للادب ويؤكد أن الادب انما هو وسيلة راقية وجميلة من وسائل تغيير المجتمع ومساعدته على التقدم والتطور

وهكذا عاش مندور حياته كلها محاربا لا يهدأ من أجل العدل والحرية والفكر الاصيل الصادق • والحقيقة انـ لو درسنا الرأى العام فى مصر خلال الفترة الطويلــــة الممتدة من سنة ١٩٣٩ حيث بدأ مندور نشاطه الفكرى الى سنة ١٩٦٥ حيث توفى مندور وهو فى الثـــامنة والخمسين من عمره •• اذا درسنا الرأى العام فى هذه الفترة ، فاننا سوف نجد أن مندور خلال هذه المرحلة كان واحدا من الرواد القلائل الذين ساهموا بنصيب كبير فى تكوين هذا الرأى العام تكوينا أساسيا

ومثل هذا التأثير الحاسم على الرأى العام ، يكفى لكى يجعل مندور جزءا عزيزا أصيلا من تاريخنا المعاصر •• ومن الجانب المناضل المكافح فى هذا التاريخ وهو يندفع الى الامام ••

وهذا الكتاب الذى تقدمه سلسلة « كتاب الهلال » فى هذا الشهر الى قرائها هو مجموعة من المقالات الهامة التى كتبها مندور قبل الثورة ولم تنشر فى كتابه بل كانت مبعثرة

فى مجلات وصحف مختلفة ، فى فترات متباينة .

وقد حرصنا على جمع هذه المقالات المبعثرة ؛ لنقدمها اليوم الى القراء ، حتى يروا فيها صورة من نضال مندور الفكرى والوطنى والاجتماعى ؛ وحتى يروا فيها أيضا صورة من حياتنا قبل الثورة ، سجلها لهم قلم امين صادق عاش فى قلب هذه الحياة ، وعانى ما فيها من فساد وانهيار ، وكافح بأقصى مايستطيع من جهد وثقافة وفهم واحساس ضد المجتمع القديم بكل ما كان يعانيه من أمراض ..

ومن حسن الحظ كان مندور يتمتع بمواهب وفضائل فكرية متعددة جعلت من كتابته وثيقة لامعة متألقة ، فمندور صاحب أسلوب صاف نقى يتميز بالوضوح والبعد الكامل عن أى حذلقة أو تعقيد أو زخرف مفتعل ، ومندور مثقف من الطراز الاول ، جمع بين أعمق ما فى الثقافة الاوربية وأعمق ما فى الثقافة العربية فى وقت واحد ولذلك جاء كتابه بالاضافة الى قيمته التاريخية الكبرى عملا أدبيا لامعا ممتعا

بقيت كلمة قبل أن نترك القارىء مع قلم مندور ،يحكى ويكشف عن صفحات هامة من تاريخنا قبل الثورة ، هذه الكلمة، هى كلمة شكر يوجهها «كتاب الهلال» الى الشاعرة الرقيقة السيدة ملك عبد العزيز زوجة الدكتور مندور فلولا مساعدتها ومعرفتها الكاملة بآثار زوجها الفقيد وقيمة هذه الآثارلما أتيح لهذا الكتاب أن يظهر ..

ونتمنى فى النهاية ان يتبع هذا الكتاب كتب أخرى تجمع كل أثار مندور التى لم تنشر من قبل فى كتب ، والتى ما تزال مبعثرة فى عشرات الصحف المختلفة

وسوف نجد فى هذه الاثار ثروة من الفكر والنضال لا يمكن ان يستغنى عنها أى دارس لتاريخ مصر الحديث

وأى باحث فى الظروف التى عاشتها مصر قبل الثورة ٠٠ ولعل هذا الكتاب الذى نقدمه اليوم يكون بدايه لعمــــل شامل فى سبيل نشر كل آثار مندور التائهة فى بطون الصحف والمجلات ٠٠ فمن كان يكتب مثلمــــا كان يكتب مندور ، ومن كان يعيش مثلما كان يعيش مندور بحماس وحرارة وانتماء كامل الى شعبه ٠٠ من كان كذلك فـــلا ينبغى ان تفوتنا قراءة ورقة من أوراقه

« كتاب الهلال »

الفصل الأول

فى الثقافة والمجتمع

بعث القديم

ليس من شك في أن ثقافتنا الحديثة تقوم على أساسين : بعث التراث العربى القديم والاخذ عن أوربا ، ولقد كان للحملة الفرنسية فى ذلك أبلغ الاثر وذلك لأمرين : نقل الطباعة الى مصر وفتح منافذ بلادنا على العالم الغربى • ولا ريب فى أن عودة الفرنسيين الى بلادهم حاملين آلات الطباعة التى كانوا قد أتوا بها الى مصر قد أخر نهضتنا الثقافية ما يقرب من جيل ، وذلك لاننا لم نستطع أن نستخدم الطباعة بعد ذلك الا فى سنة ١٨٢٢ أى بعد الحملة الفرنسية بعشرين عاماً ، واذا ذكرنا أن حركة البعث العلمى فى أوربا لم تصب ما أصابت من نجاح فى القرن السادس عشر بعد الميلاد الا بفضل تلك الطباعة ، أدركنا أن نهضتنا الثقافية الواسعة لم تبدأ فى حقيقة الامر الا منذ استخدامنا لآلات الطباعة على نحو مطرد أى منذ سنة ١٨٢٢ كما قلنا ، وانه وان تكن الجمعيات العلمية التى ألفت لنشر الكتب لم تتكون فى حقيقة الامر الا بعد ذلك بكثير ؛ فجمعية المعارف التى أسسها محمد عارف باشا لا ترجع الى أبعد من سنة

(*) نشرت فى ١٩٤٤/٦/١٩

١٨٦٠ وهى تشبه فى تكوينها الى حد بعيد لجنة التأليف القائمة الآن وشركة طبع الكتب العـــربية التى كان من أعضائها حسن باشا عاصم وأحمد بك تيمور لم تتأسس الا سنة ١٨٩٨ ، الا أن حركة البعث أقدم من ذلك بكثير فهى لم تنتظر تكوين الجمعيات لتبدأ ، ولعل انتشـــار الافكار الاوربية بفضل أعضـــاء البعثـــات كان من أهم الدوافع لذلك البعث ، فرجل كرفاعة الطهطاوى قد فطـن بلا ريب أثناء اقامته بفرنسا الى أن النهضة الاوربية التى رآها قد ابتدأت بحركة بعث قوية للآداب القديمة لاتينية ويونانية ، ولهذا كان يؤمن بأن نهضة بلادنا لا يمكن أن تعتمد على النقل عن أوربا فحسب ، بل يجب أن تعنى الى جانب ذلك ببعث القديم العربى ..

ولقد ظهرت آثار هذا البعث فى الشعر قبل ظهــورها فى النثر ، وأكبر شخصية تمثل بعث الشعر هى بلاشك شخصية محمود سامى البارودى ، وتلك ظاهرة من اليسير فهمها ، فالنثر الذى كان شائعا عندئذ لم يعد أن يكون : اما نثرا تعبيريا يستخدم فى التأليف العـــــلمى أو فى الصحافة ، واما نثرا شخصيا كالذى نجده فى الرسائل ، والنوع الاول لم يكن يخلو من عجمة فى الصحف ومن نزعة للجدل والتعقيد فى التأليف • والنثر الشخصى ظل نثرا مسجوعا لفظيا متكلفا حتى عند أولئك الكتاب الذين نمت ثقافتهم حتى امتلكوا أفكارا يغنيهم جمالها أو عمقهـا عن تزويق اللفظ كالاســـــتاذ الامام الذى ظـــل يكتب بالاسلوبين معا ، أسلوب التأليف وأسلوب الرسائل

وفى الحق اننا لا نعرف أسلوبا يتميز به الادب الحديث بأضيق معانيه غير أسلوب القصة ، فهى أكبر مظهر من مظاهر الادب الحديث ، وليس بخاف أن القصة حديثـة العهد ببلادنا وهى بمجرد ظهورها أخذت تغذى السـجع

بمادة الفكر وتنقله من التفاهة الى الجد ، وهذا واضح فى حديث عيسى بن هشام ، فأسلوب المويلحى رغم حرصه على أوجه العبارة البلاغية لا يخلو من فكر واحساس صادقين ، وذلك لان القصة بطبيعتها تقدم للكاتب مادة ، وكل مادة تحتاج الى التعبير عنها ، فيأتى الاسلوب محملا بتلك المادة

ومنذ أن خطا أسلوب النثر تلك الخطوة أخذ يشيع فى غير القصص حتى امتد الى المقالة أو الموضوع القصير على نحو ما نجد عند السيد توفيق البكرى الذى جمع فى أسلوبه بين الصنعة اللفظية وجمال الصور الخيالية وصدق الاحساس أو أصالة الرأى • ولكننا رغم كل ذلك لانستطيع أن نقول ان النثر قد وصل عندئذ الى ما لم يكن بد من أن يصل اليه ليجارى النثر الاوروبى فيصبح تعبيرا مباشرا عن فكر غنى أو احساس صادق ثم يتسم رغم مباشرته بصفات الادب كعمل فنى ، وتلك مرحلة لم نصل اليها الا فى القرن العشرين • وليس من شك فى أن السيد مصطفى لطفى المنفلوطى هو الذى خطا بنثرنا الى تلك المرحلة الاخيرة • ومنذ ظهور هذا الكاتب العظيم لم يلبث النثر أن استحصد حتى سبق الشعر

واليوم ننظر فى نثرنا فنرى تيارين كبيرين ينطوى فى أثناء أحدهما المويلحى والبكرى ومصطفى صادق الرافعى وأحمد حسن الزيات على اختلاف فى الامزجة وعمق التفكير أو الاحساس ، ولكنهم يجتمعون معا فى خاصية واحدة ، هى أنهم وان يكونوا أبعد من أن يمثلوا فى شىء اللفظية التى سادت فى عصور مصر الاسلامية المتأخرة ، الا أنهم رغم ذلك يحرصون على تجويد العبارة تجويدا فنيا ، ويخضعون الفكر أو الاحساس لطرق الاداء حتى ليأخذك فى أدبهم جمال الصياغة قبل أصالة

الموضوع ، أو تحس بأن تلك الاصالة قد اضطرتهم اليها أصول الاسلوب التى ينتهجونها

والتيار الثانى يبتدىء كما قلنا بالمنفلوطى ، ذلك الكاتب الذى غذى أجيال الشباب الناهضة أجمل الغذاء ، وبلغ من التأثير فى نفوسهم ما لم يكد يبلغه كاتب آخر • ولقد كان لعدم معرفة هذا الكاتب باللغات الاجنبية معرفة تعمق واحساس ، ما احتفظ لاسلوبه بالسلاسة العربية الصافية • وأما غيره من كتاب هذا التيار فلن تعدم أن تجد فى أسلوبهم آثارا واضحة للتأثر باللغات الاجنبية ، وما نظننا فى حاجة الى أن ندل على ما فى أسلوب كاتب كبير كطه حسين من تأثر واضح بطرق الاداء الفرنسية

وأما الشعر فقد سبق النثر ـ كما قلنا ـ الى التحلل من سخافات الصنعة اللفظية وتفاهة المادة ، وسر هذا التحرر يرجع الى بعث الشعر العربى القديم من جهة ، والى طبيعة هذا النوع من الادب من جهة أخرى ، فنحن نلاحظ أن البارودى قد سلك الى تكوين مذهبه الشعرى نفس المسلك الذى سلكه من قبل أبو تمام • فالشاعر العباسى قد كان دائم القراءة للشعر القديم والاختيار منه ، حتى قالوا انه قد ألف ثمانية أنواع من المختارات ، ولا يزال بين أيدينا ديوان الحماسة شاهدا بأن هذا الشاعر كان أحسن اختيارا وتذوقا للشعر منه خلقا له • وكذلك فعل البارودى ، فمختاراته تضم جانبا كبيرا من خير ما خلف العرب • وشعر البارودى نفسه شديد الشبه بشعر المتنبى ، كما أن شعر صبرى باشا يكاد يحكى شعر البحترى ، وفى هذه الحقائق ما لا يدع مجالا للشك فى أن نهضة الشعر الحديث عندنا انما قامت على بعث القديم ومحاكاته

وموضع التساؤل هو : كيف يستطيع شعر يقوم على محاكاة القديم أن يعبر عن حياة جديدة ؟

هذه المشكلة سبق أن واجهها الادب العربى واقتتل حولها النقاد والشعراء ، ففى العصر العباسى سخر أبو نواس من الدمن والاطلال وبكاء دعد واسعادالرفيق والف الناقة ، وظنه تجديدا أن يخرج على تلك الاوضاع ليغازل الخمر ويداعب الغلمان ويصف القصور والحدائق . وهذه النظرية وان تكن لها وجاهة الظاهر ، الا أنها فى الحقيقة لا تعدو أن تكون وجاهة سطحية ، فالفن ليس بهيا كله ، وانما هو بروحه وصياغته ، ولا أدل على ذلك من أننا لا نزال الى اليوم نؤمن بأن خير ما خلف العرب من شعر هو لا ريب الحنين الى الديار ، وذلك لان هذا الحنين وان لم يمت الى تجاربنا الحاضرة بسبب من واقع الحياة ، الا انه يرمز فى حقيقة الامر الى مشاعر انسانية عامة، لاتزال ولن تزال من أجمل ما نحمل من مشاعر ، فهو يثير فى النفس شعور الالف والحنين الى الماضى ، والتعلق بالامكنة وما تحوى من ذكريات ومسرات وآلام من أخصب منابع الادب . ونحن بعد لا نحتاج الى أن نمارس بالفعل كل التجارب التى نتحدث عنها فى أدبنا ، والا كنا فقراء الخيال . ومن يستطيع أن يزعم أن كاتبا أو شاعرا ما قد بلا بنفسه كل ما يتحدث عنه ؟ وهل ننسى أن جانبا كبيرا من آداب العالم أجمع لا يمثل ما عاشه كتابه بالفعل ، بل ما ودوا أن لو عاشوه ؟ والواقع والخيال يرجعان بعد فى الادب الصادق الى منبع واحد ، هو القلب البشرى . وأساس النجاح هو أن يستثير الكاتب فينا احساسا حقيقيا ، سواء أكان ذلك الاحساس التفاتة الى ماض عرفناه أو تلهفا الى مستقبل نود أن نعرفه أو مزيجا منهما

واذن فعندما نسمع الشاعر الذى يقول :

ألا أيها الوادى الذى ضم سيله
إلينا نوى ظمياء ، حييت واديا !

لا نملك الا أن نهتز ، ولو لم نر فى حياتنا سـيلا ولا واديا ولا عرفنا ظمياء

والشعر القـديم أمس قربا بالروح الشـعرية بحكم موضوعه وصياغته ، فالطلل والناقة أحب الى النفس من القصر والسيارة . الطلل يستثير معنى الفناء ، ونحن البشر لا يحركنا معنى أكثر مما يحركنا هذا المعنى • وان كان من نعم الله أننا ننساه أغلب الوقت ، وربما كان فى هذه الحقيقة ما يزيده قوة حينما يثار • والناقة حيوان أليف صبور ودود ، ولا كذلك الآلة الصماء ، وصياغة الشـعر القديم كموضوعاته ألصق ما تكون بحقيقة الفن • الشعر الجاهلى يجمع على نحو رائع شاعرية الروح وواقعيـة العبارة ، حتى ترى صورة مادية قريبة مأخوذة من واقع الحياة وقد خلت من كل تكلف فاسد

لقد ابتدأ البعث الشعرى فى بلادنا اذن باحياء القديم، ولكن هذا الاحياء لسوء الحظ قد جنح الى العصر العباسى حتى اننا لانزال الى اليوم اكثر معرفة ودراسـة لادب ذلك العصر منا للادب الجـاهلى والاموى ، وذلك فيمـا يبدو لسهولة الادب العباسى ومشقة الادب القديم ، ثـم لاننا فيما أعتقد لم نصل بعد من النضوج الفنى الى حيث نؤمن بتلك الحقيقة الكبيرة التى قال بها من قبل السيد المرصفى من أن خير الادب العربى الجاهلى والاموى

ونحن نعتقد ان الامعان فى دراسة ذلك الادب الجاهلى وتذوقه هو الوسيلة الوحيدة للخطو بشعرنا التقليـدى خطوة جديدة او على الاقل لصيانته من ان ينقرض امام تيار الشعر الحديث المستمد من الادب الغربى

الأخذ عن أوربا

يردد بعض الناس هنا وهناك أن الشرق غير الغرب ، وأنه لا سبيل الى التقائهما .. ونحن فى الحق لا نعرف قولا أكذب من هذا وبخاصة فى مجال الثقافة حيث يشهد التاريخ أن التيارات الفكرية لم ينقطع لها مدد بين شطرى العالم ، وان كان من الصحيح أن لكل من هذين الشطرين خصائص مميزة الى جانب ما يجتمعان فيه من حقـــائق انسانية عامة

والناظر فى تاريخ الحضارات يلاحظ أنها لم تتـوقف قط عن التأثر ببعضها البعض ولئن كان من الثـــابت أن الشرق قد كان مهد الحضارات ، فان الغرب لم يلبث أن أخذها عنه واتجه بها وجهات جـــديدة فنشر فى الروح مبادىء العقل واتجه بالنظر الى العمل ، وبذلك وسع من أسس الحياة الروحية كما مكن للانسان من اســـتخدام المادة والسيطرة عليها

ولقد سبق العرب أن اتصلوا بالحضارة الاغريقيـــة القديمة ، وأخذوا عن تلك الحضارة ما أمكن أخذه ممـــا يصح عند العقول كافة كأصول التفكير الرياضى والفلسفى، وأما ما يتصل من تلك الحضـــارة بمقومات الحيـــاة

(*) نشرت فى ١٩٤٤/٧/٣

الاجتماعية والعاطفية ، وهو ما تتميز به الحضارات ، فلم يستطيعوا بداهة فهمه ولا قبوله أو نقله ، ومن هنـــا لم يترجموا الى لغتهم شيئا من شعر الاغـريق وان كانوا على العكس من ذلك قد ترجموا جانبا من أشـــعار الفـــرس كالشاهنامة وغيرها • وربما كان ذلك لان حياة الفـرس التى يصورها ذلك الشعر كانت أقرب الى حيـاة العرب من حياة الاغريق ، ثم أن الدين قد لعب فى هذه المفـارقة دورا حاسما ، فالفردوسى شاعر مسلم وهوميروس وثنى

ولقد تجددت نفس الظاهرة ببلادنا منذ أن أخذنا ننقل عن أوروبا فى أوائل القرن التاسع عشر الى يومنا هـذا ، فالشعر بل والنثر الادبى بمعناه الضيق كان آخرما أخذنا فى نقله بينما اتجهت جهود بعثات محمد على وخـــريجو مدرسة الالسن الى نقل العلوم أولا ، ولهذا الاتجاه سبب مزدوج •• فوالى مصر كان رجلا ذا طمـــوح عمـــــلى ، وقد رأى الاوروبيين يسـيطرون بعـــلومهم التى تمكنهم من القوة المادية ، ولهذا أرسل معظمأعضاء بعثاتهللتخصص فى تلك العلوم كالهندسة والكيمياء والطب وصناعةالسفن والفنون الحربية المختلفة ، والسبب الثانى هو ما سبقأن أشرنا اليه من بعد الكتابات الادبية شعرا ونثرا عن محيط حياتنا فى الشرق واتصالهاالوثيق بنوع الحياة والاحساس الغربيين

هذا ، الى ما فى نقل الادب من مشقة ، بل من استحالة فى بعض الاحيان وبخاصة الشعر ••

وبعد : لقد سبق فرأينا أن نهضتنا الحالية تقـــوم على أساسين : بعث التراث العربى القديم ثم الاخذ عنأوروبا• ولامراء فى أن البعث لايثير بيننا جدلا ، وكلنا مجمعـــون على وجوبه بدافع قومى وثقافى معا • وليس كذلك أمـــر

الاخذ عن أوروبا فهنا يجب أن نميز بين نوعين مما نأخذ : أخذ مبادىء العلوم المادية والعقلية وهذه لا نظن أن صوتا جديا يرتفع لمقاومتها • وهى فى الحق ليست ملكا للعرب ولا للشرق ، بل ولا من السهل أن نقول أين نبتت وأين نمت ، ومثلها مثل السيل يجتمع من جداول لاحد لهاتأتيه من كافة الآفاق ، وعلى العكس من ذلك أخذ الادب ، فهنـا ترتفع الخصومة ويشتد الصخب ، ولتلك الخصـــومة ما يبررها وهى حقيقة بأن ننظر فيها عن قرب ، وذلك لما للادب من خطورة لا يدانيها شيء ، فالادب وعاء لتقاليــد الامة الاجتماعية والاخلاقية ، بل والدينية ، وفيه تتركز روحها بحيث يعتبر بحق مرآة حياة الامم ، ثم انه من أخص المجالات التى تظهر فيها أصالة الشعوب فى الخــلق والحساسية وادراك مواضع الجمال والقبح ،ومن الطبيعى أن تحرص كل أمة على مقومات حياتها كما تحــرص على أصالتها ••

ولكننا نلاحظ برغم ذلك أننا قد أخذنا فى الربع قرن الاخير ننقل عن أوروبا أدبها شعرا ونثرا ، فهل فى هــذا حقيقة ما يهدد كياننا القومى أو يمس أصـــالتنا كشعب شرقى له مميزاته التى رسبت عن السنين الخالية ، حتى استقرت بروحه ؟

ذلك ما لانراه • فحياتنا الراهنة قد تأثرت بما نقلنـا عن أوروبا من علوم وتطبيقات لتلك العلوم أكبر التــأثر حتى أصبحت اليوم بلا جدال أقرب الى الحياة الاوروبية منها الى حيـــاة البداوة الاولى • ونحن اليوم نجـــاهد لنشر هذا النوع الجديد من الحيـــاة بأقصى وســـعنا • وهذا شيء من الســـهل أن يفسره العقـــل ، فبمواصلة الطرق لابد أن تصبح حدادا • بل انك لتستطيع أن تصل الى الايمان ذاته بالمواظبة على شعائره وحركاته الخارجية

فما بالك بالاثر الخطير الذى تحدثه مظاهر الحياة المادية فى نوع الحياة اليومية التى نحياها ؟ ومن هنا لا يستطيع أحد أن يزعم أن مقومات حياتنا لا تزال بعيدة عن أن تجد فى الادب الاوروبى ما يعبر عنها بل ويغذيها . وليس من شك فى أن هناك الكثير من مبادىء الاخلاق والاجتماع ، بل ومن مبادىء الدين التى نتفق عليها مع الغربيين بحيث لا نكاد نتبين مواضع الخطر على حياتنا القومية فى النقل عن أوروبا . ونحن بعد لا نجهل أن هناك جوانب من الحياة الاجتماعية نخشى محاكاتها بغير حذر واستنارة . وأهم تلك الجوانب مشكلة العلاقة بين المرأة والرجل ، وتلك مشكلة تمد الادب فى الشرق والغرب أكبر المدد . ولكننا وان كنا محمولين بطبعنا على وجوب التبصر الا أننا نلاحظ أن الادب العربى ذاته قد وصل فى تصوير تلك العلاقة الى حد من الحرية بل والاباحة لا نحتمله نحن اليوم ، بل ولا يجرؤ عليه شعراؤنا ، وفى قصائد امرىء القيس وعمر بن أبى ربيعة وبشار وأبى نواس من ذلك الشىء الكثير . وبالرغم من هذه الحرية وتلك الاباحة لم تثر ثائرة العرب ولاقوضت أركان حياتهم ولربما كان فى الادب متنفس أهون ضررا من الكبت والتزمت . ثم ان الهيئة الاجتماعية بوجه عام وبخاصة الشعراء منهم فى جميع بلاد العالم بشىء كثير من التسامح حتى لنلاحظ أننا فى مصر نفسها كثيرا ما نقرأ للشعراء ما لايجرؤ ناثر أن يقوله . ولقد سبق لروسو عند مناقشته للدور الذى يلعبه المسرح فى الحياة أن أنكر قدرته على تقويم معوج أو اصلاح فاسد ، لان الناس لا يذهبون اليه لتلقى درس فى الاخلاق والاجتماع بل لمجرد التسلية أو المتعة العقلية وفى هذه التسلية وتلك المتعة ما يكفى لانها تهون علينا حمل الحياة . والامر فى الادب عامة كالامر فى المسرح

وأما عن الاصالة فى خلق الادب والمحافظـة عـلى خصائصه المميزة ، فهنا أيضا لا نرى خطرا من المحاكاة ، بل نراها على العكس المدرسة الاولى للاصالة ، ومن ناشئة الادب من يظنون مخطئين أن الاديب يخلق من العدم، وأن الموهبة فى غنى عن القراءة والتحصيل والاستيحاء ، بل والمحاكاة أحيانا ، مع أن تاريخ كبار بعض المؤلفين وكتبهم تشهد بنقيض ذلك . فلافونتين قد آخـذ « حـكاياته » عن أيزوب اليونانى ، لا بروبير ابتـدأ « صـوره الاخلاقية » بالنقل عن تيوفراست ، بل وشكسبير نفسه قد استقى موضوعات رواياته من « بلوتارخ »و «ناسيت» و «جيرالد دى سنتيو» وغيرهم . ومع ذلك لم يقـل أحد أن هؤلاء الكتاب الكبار فقدوا أصالتهم . ولقـد يقول قائل فليكن . ولكن لم نحاكى الاوروبيين ونستلهمهم ولدينا تراثنا القديم الخليق بأن يمدنا بما نريد

وجوابنا على ذلك هو أننا لا نريد أن نقتصر على الاخـذ من أوروبا . ولقد قلنـا فى أكثر من مناسـبة أن فى الادب العربى ، بل وفيما نظن أنه قـد مات منه مالا يزال ولن يزال حيا أبد السنين كالحنين الى الديار ، وذلك لضربه فى الشعور الانسانى بأعراق عميقة ، ولكننا مع ذلك نلاحظ أنه ما دامت حياتنا قد تغـيرت ، وما دام الاوروبيون قد استحدثوا من الادب أنواعا لم يعهدها أدبنا العربى ، فانه من الحمق أن نزج بالاعتبارات القومية فى هذا المجال ونحرم أنفسنامن أنواع الثقافة والغذاء الروحى . لو أن الاوربيين كانوا مكاننا لما أحجموا عن الافادة منها ، ولقد سبق لهم ان نهبوا تراث الشرق قبـل أن يغزوه بأسلحتهم ، فما بالنا نتقاعد تقاعد الكسالى الذين يحتجبون خلف نعرة باطلة ليخفوا ما هم فيه من عجز عن اللحاق بقافلة العالم التى تسير حثيثة الخطى

١ ــ الادب الاغريقى فى عصر الاسكندرية

يذكر القراء ان الاسكندرية كانت فى زمن ماعاصمةعقلية للعالم أجمع ، حتى ليصطلح علماء التاريخ على تسميـــة القرون الثلاثة السابقة لميلاد المسيح بعصر الاسكندرية وهو عصر اغريقى بلغته وثقافته ، ومع ذلك فمن واجبنــــا نحن المصريين أن نعنى بدراسته لاتصاله الوثيق بتاريخ بلادنا ، وما نظن فهمه يستقيم مالم نلم بملابساته التاريخية لنرى كيف احتلت الاسكندرية هذه المكانة ، ونحدد أهميتها بالنسبة للعواصم الاخرى التى عاصرتها وبخاصة أثينا ، وعندئذ سوف نرى خصائص الادب الاغــــريقى فى ذلك العصر تتحدد بذاتها متميزة عما عداها ..

ونقطة التحول كانت بلا ريب ظهور ملوك مقدونيـــا وبخاصة فيليب المقدونى وابنه الاسكندر الاكبر فى القرن الرابع ق . م . فالى ذلك الحين كانت بلاد الاغريق عباره عن مدن مستقلة تكون كل مدينة وضواحيها دولة قائمة بذاتها ، ومع ذلك فقداستطاعت تلك المدن أن تأتى بالمعجزات فى المجال الثقافى والمجال العملى على السواء .. ونخص بالذكر أثينا التى وان لم يبلغ قط سكانها هى وضواحيها نصف المليون ، فقد خلفت من التراث العقلى مالايزال يبهرنا حتى اليوم ، كما استطاعت أن تتزعم المدن الاغريقيـــة

(*) نشرت فى ١٩٤٤/٣/١٧

الاخرى لترد جحافل الفرس وتحمى الحرية فى بـــلاد اليونان كافة ، ولكنها لم تكد تستوى فى الزعامة بفضـــل انتصاراتها الباهرة حتى اخذها الصلف فنفرت أسبرطة الابية ، وكان بين المدينتين حروب طاحنة دامت ماينيف على ربع القرن ، وقد اشتركت فيها جميع المدن، وخرجت منها ضعيفة متهافتة ، وعندئذ ظهر المقدونيون الذين امتد طموحهم الى السيطرة على بلاد اليونان ، بل على العـــالم أجمع فى وحدة شاملة

ولكن العرين كان لا يزال به أسود وبخاصة آثينا حيث صمد الزعيم الوطنى الشهير « ديموستين » لفيليب وابنه، وقد رفض ان يستسلم على الرغم من ضعف مدينته ، وذلك لانه لم يكن يعرف غير الجهاد مهما تكن احتمالات الفوز أو الهزيمة ، وعنده أنه ليس أشرف للرجل من أن يموت وسلاحه بيده

ولاشك ان موقعة كيرونيد التى حدثت سنة ٣٣٨ ق.م. بين فيليب المقدونى وجنده من جهة ، وجيوش آثينـــا وطيبة من جهة أخرى ، قد كانت من المواقع الفاصـــلة فى تاريخ الانسانية ، فانتصار فيليب على ديموستين هـــو انتصار عالم على عالم آخر . مضى عالم المدن .. عالم الحرية ، وحل محله عالم الحكم المطلق والروح العالمية . وقتل فيليب سنة ٣٣٦ ق.م. وخلفه الاسكندر، وكان مانعرفه من سيطرة هذا القائد العظيم على الشرق والغرب ومات الاسكندر سنة ٣٢٤ ق . م . وهو يعد العدة لغزو شمال أفريقيا وأسبانيا وبلاد الغال ، ليعود الى وطنه من الغرب بعد أن تركه من الشرق . وكان فى اتخاذه من بابل عاصمة لملكه ما يرمز لفكرته فى توحيد العالم والجمع بين الشرق والغرب

بعد موت الاسكندر تطاحن قواده على إقتســـــــام

امبراطوريته العظيمة ، وكانت عدة معارك وعدة تقسيمات الى أن حدثت معركة ايسوس سنة ٣٠١ ق . م . فكان التقسيم النهائى . وليس يعنينا من تلك المدة المضطربة غير نتائجها النهائية وقد تمخضت عن ثلاث ممالك كبيرة: مملكة أنتيجونوس بمقدونيا وبلاد اليونان ومملكة سليكوس بسوريا ، ومملكة بطليموس بمصر

أما مملكة انتيجونوس فما زال اليونان يناهضونها العداء وتناهضهم ، حتى انتهى الامر بوقوع بلاد اليونان بيد روما الناشئة ، فأصبحت مقاطعة رومانية منذ سنة ١٤٦ ق.م. وانه وان تكن الثقافة الآثينية لم تخب دفعة واحدة الا أن مراكز الثقافة الاخرى أخذت تحتل مكانها، ونحن لا نجد بآثينا خلال القرن الرابع غير الفلسفة والكوميديا ، واما دون ذلك من مظاهر النشاط الروحى فقد ذوى . فالشعر الغنائى قد جفت ينابيعه حتى لم يعد يقصد لذاته ، بل لمصاحبة الموسيقى على نحو ماترى فى الاوبرا كوميك الحديثة . والشعر الهجائى وشعر الوجدان «Elegie» لم يعودا غير عبث باطل أو سخرية مصطنعة «Porodie» . واما الملاحم فكان عهدها قد انقضى بحيث أنه عندما كتب أنتيماخوس ملحمته عن أساطير طيبة ومغامرات هرقل لم يهز شعره نفسا ، لانه شعر مصنوع علم الشاعر فيه أوضح من روحه ، وكذلك الامر فى التراجيديا التى لم يعد لها وجود يذكر

لم يبق اذن بآثينا من فنون الادب غير الكوميديا ، فهى التى ترعرعت فى ذلك الزمن ، وقد انتهى بها الامر الى ما يسمى بالكوميديا الجديدة على يد فيليمون وميناندروس، وهى الكوميديا الاخلاقية : شىء مغاير للكوميديا القديمة كوميديا أرستوفانس . فهى لم تعد نقدا لنظم الحكم وتيارات التفكير ، بل تصويرا لشخصيات عادية يأخذها

الشاعر من الحياة اليومية ، ولكنها لا تصل الى كوميديا النماذج البشرية أمثال : السث وهرياجون وترنيف لموليير، تلك التى يخلقها كبار المفكرين ، فيهتدى بها الناس الى انفسهم ..

ومع الكوميديا نجد كما قلنا الفلسفة فقد نهضت الى جوار الاكاديميا والليسيه مدارس أخرى : مدرسة الرواق ، وحديقة أبيقور ، ثم مذهب بيرون والمذهب الكلبى ، ونحن وان كنا ننظر عندئذ ، فلا نجدمقر اللفلسفة غير آثينا الا فى القليل من نحو ميجارا وبرقة ، الا أننا نلاحظ أن الكثيرين من فلاسفة ذلك العهد قد كانوا غرباء عن أثينا ، فزينون من مستعمرة فينيقية بجزيرة قبرص وكليانتوس من مدينة أسوس بآسياالصغرى،وكريزيبوس ولد بمدينة سوليس بآسيا الصغرى أيضا . وفلسفتهم وان تكن اغريقية بما فيها من تحكيم العقل والربط بينه وبين نظام العالم الا أنها شرقية بروحها الذى يكاد يكون دينيا وقد نادت الرواقيةبالجبر وقال الابيقوريونبالمصادفة وأنكر هؤلاء وجود الروح وأثبتها أولئك وتبلبلت الافكار فانتهى الامر بالشك البيدونى وامتدت كل تلك الآراء الى تعاليم أفلاطون نفسه ، فاذا بالاكاديمية تقول بالاحتمالية ، وقد انهارت المثل فانهار بانهيار عنصر الثبات فى المذهب ومن هنا يتضح كيف أن كل هذه الفلسفات برغم مافى بعضها من نبل كالرواقية لم تكن بلا ريب الا السبيل الذى قاد الى الانحلال ، وفيها انكار للارادة البشرية او استسلام لاحداث الحياة او توقف فى الحكم فيها عنصر سلبى خليق بأن يقوض حياةالشعب

ذلك ما كان من أمر آثينا التى لم يعد بها كما رأينا غير الكوميديا والفلسفة ولكن المملكتين الاخريين قد نشأت

بهما مراكز فتية للثقافة ، ففى آسيا الصغرى وسوريا نشأت بمملكة السيليكيين مدن كبيرة كبرجاما وانطاكية، وفى مصر نشأت بمملكة البطالســـة الاسكنـــدرية ونيوقراطيس وبتوليمابيس . وانه وان تكن كل تلك المدن قد ازدهرت فيها الحياة المـادية والروحية الا أن واحدة منها لم تبلغ ما بلغته الاسكندرية ومن هنا يصطلح علماء التاريخ كما قلنا ، على تسميـــة العصر الذى يقع بين الاسكندر الاكبر وأوغسطس امبراطور روما باسمها

وهو عصر لم يكد يتأثر بالثقافات الشرقية التى عاش بينها بحيث يخيل الينا ان نيتيوس ليفيوس المؤرخ الرومانى الشهير قد أصاب الحقيقة عندما قرر أن المدن اليونانيـــة التى نشأت بالشرق اذ ذاك كانت « كجزر يونانية يضربها من جميع النواحى بحر من البرابرة » ولقد كان الاغـريق ينظرون الى شعوب الشرق نظرة الغالب للمغلوب ، نظرة السيد للمسود ، وكانت شـــعوب الشرق بدورها تمقت أولئك الغزاة وتصدف عنهم ، ولقد وجدنا فى دستـــور نيوقراطيس ما يحرم على الاغريق الزواج من المصريات ، وكانت مدن الاغريق فى الشرق تعيش على النظام اليونانى، فللكثير منها مجالس تشريعية « اكليزيه وبوليه » ،وحكام كحكام المدن الاغريقية الاوروبية وان تكن اختصاصات تلك المجالس وهؤلاء الحكام قد كانت شكلية استشارية أكثر منها فعلية نافذة ، وكانت السلطة الحقيقية بيد الملك

لم يصبغ الاغريق اذن بلاد الشرق بصبغتهم ولا لقنوه ثقافتهم فى ذلك العصر ، بل ظلوا غرباء عنـــه لا يكادون يؤثرون فيه أو يتأثرون به وانما تداخلت الثقافات فى العصر الرومانى وبعد ظهور المسيحيـــة حيث امتزج التفكير اليونانى بالايمان الشرقى فى الافلاطونية الحديثة

التى هزت الروح الانسانية كلها فى القرنين الثانى والثالث بعد الميلاد ..

عصر الاسكندرية اذن عصر اغريقى بحت ، وهو مجرد اصطلاح تاريخى ، فالحديث عن أدب الاسكندرية يتناول كل ما قيل من شعر ونثر فى البلاد اليونانية كلها خلال ثلاثة قرون . والملاحظ على ثقافة ذلك العهد انهاأصبحت ثقافة علمية محصلة أكثر منها ادبية خالقة ، كما أصبحت عالمية لا قومية وصناعة لا حياة . ولا غرابة فى ذلك ، فقد انتقلت الحياة الفكرية من الساحات العمومية (الاجوار) الى المكاتب والصالونات ، انتقلت من حـــرارة الحيـــاة الى برودة الكتب ، انتقلت من الحاضر الى المـــاضى ومن الواقع الى الفكر المجرد ، نمت الدراسات التاريخيـــة : تاريخ عام وتاريخ الفن والفنانين والكتب والكتاب ، تاريخ الفلاسفة والعلماء .. لقد ابتدأ العالم يعيش على ماضيه ، ويجد فى ذلك الماضى خيرا من حاضره . ونمت الدراسات العلمية : رياضة وطبيعة وطب وتاريخ طبيعى وجغرافيا ونحو وفقه ولغة وموسيقى وكل هذه الدراسات مـــع ذلك لم تكن أصيلة ، كانت جمعا لا فلسفة فيه ولا نقد الا بمقدار . امتاز هذا العصر بثقافة موحـــدة سمحت حتى لذوى النفوس التافهة بأن يصبحوا ادباء وشعراء وبذلك أمحت الفروق الشخصية ولم يعـد للأســـلوب الفردى غير وجود محدود

فى هذا الوسط العلمى نشأ أدب الاسكندرية ، فكان نصف قائليه من العلماء . ولفهم البون الشاسع بين هذا الادب والادب الاغريقى القديم لابد من أن ننظر فى نشأة الفنون الادبية المختلفة نظرة عاجلة

نشأت فنون الادب القديمة نشأة شعبية فالقصص والغناء وان كانا قد ظهرا معا ملازمين فيمـــا يبدو لنشأة

الانسانية ، الا أن القصص الادبى قد سبق الغناء، فأعمال البطولة الماضية أفعل فى خيال الرجل الفطرى من الحاضر والقصص خليق بأن تستجيب له نفوس رجال يعيشون فى نظام ملكى حيث للملك هيبة وجلال يحملان أفراد الشعب على الاعجاب بالابطال السابقين . وكانت الشعوب فى جملتها زراعا وتجارا وعمالا لا يجدون فى عملهم اليومى غير حرارته التى تشغلهم حينا ، ثم ينقضى العمل غير مخلف ما يشغل النفس ، أو يهز الخيال . ولهذا صادفت ملاحم هوميروس ظمأ فى النفوس حتى كان القرن الثامن ق.م. وقد انهارت الملكيات وحلت محلها نظم أرسطوقراطية أو ديمقراطية لا يتخللها الاستبداد الفردى الا من حين الى حين ، وتقهقرت الحياة الجماعية القبلية وأخذت الشخصية البشرية تظهر وسط المجموع ، وأصبح الحاضر يشغل الناس ويتعلقون به ناظرين فيما يحمل من مسرات وآلام ، فظهر الشعر الغنائى بما يحمل من عنصر شخصى ومن أصداء الحاضر • وسارت الحياة وقد اصبح الاغريقى لا يقنع بالقصص او الغناء بل يود لو تصور حياته وحياة آلهته ليراها بعينى رأسه ويشهد احداثها بما فيها من معان فنشأ الشعر التمثيلى فى القرن الخامس ..

وكانت نشأة تلك الفنون موزعة بين الشعوب الاغريقية فالقصص نشأ فى ايوليا بآسيا الصغرى حتى ليكاد ينحصر الخلاف الجدى عن مولد هوميروس بين جزيرة كيوس ومدينة أزمير ، ومن ايوليا انتشر فى ايونيا لينتهى اخيرا الى اتيكا بأوروبا حيث دون بأمر بيزيستراتس ، مستبد آثينا فى القرن السادس قبل الميلاد • وأما الشعر الغنائى فقد ظهر موزعا حسب أنواعه • فالاغانى

الشخصية: أغانى الشراب والغرام ولدت وازدهرت فى لزبوس الايولية • جزيرة « الية » و « سافو » تلك التى قالوا ان رأس أورفيوس قد ارست بها فأوت الى احد خلجانها • وشعر الجوقات ، شعر الجماعات ، شعر النصر والمواكب قد نشأ بين الشعوب الدورية الخشنة المحمولة على الجهاد النازعة الى الحياة القبلية والنظم الارسـطوقراطية : ففى طيبة ولد بنداروس وباللهجة الدورية كتب أناشيد النصر التى لدينا • والشعر الهجائى وشعر الوجدان ذهبت بهما القبائل الايونية ، وأما الشعـر التمثيلى ففن آثينى فى جوهره ••

ولقد كان لنشأة تلك الفنون بين هذه الشعـوب ما يبررها ، فالجنس الايولى جنس مرهف الاحساس فنان المزاج مقبل على الحياة متأثر بأحداثها ، والجنس الدورى كما قلنا جنس خشن مولع بالمعـارك والانتصـارات • والايونيون قوم أغنياء بمالهم وبحياتهم العقلية ، والسخرية والوجدان خصائص تلازم حساسية العقل ولين الحياة • وأما الاثينيون فأهل نشاط عملى واقدام على المغامرات ولا شك أن فى المسرح ما يرضى تلك النزعات

هكذا نشأت فنون الادب ، شعبية اقليمية • ومع ذلك لم تلبث أن أصبحت اغريقية عامة ، فتكونت لغة قصصية مزيج من الايولى والايونى والاتيكى ولغة ايولية للاغانى الشخصية ولغة دورية لشعر الجوقات ثم اللغة الاتيكية للمسرح • وبلغ من ثبات تلك اللغات الادبية وتخصصها أن رأينا شعراء اثينا مثلا يكتبون باللغة الدورية الاجزاء الغنائية من مسرحياتهم • تكونت اذن لغات ادبيـة مصطنعة ، ولكن ذلك لم ينل من قوة الادب الذى ظـل متصلا بالحياة حتى جاء عصر الاسكندرية ، وقد اختلطت

فى المدن الجديدة الاجناس وانهار استقلال المدن القديمة وجفت الحياة العامة فنضبت ينابيع الادب الذى لم يعد يتجه الى الشعوب بل الى نخبة من المثقفين • لم يعد خلقا تلقائيا بل صناعة او تزجية فراغ • لقد حلت فيه المهارة محل العبقرية ، حل العلم محل نبض الحياة ، حل الظرف والكياسة محل وثبات القلب وتأجج القرائح

لقد نشأ أدب الاسكندرية بعيدا عن الشعب ، بعيدا عن الحياة ، فجاء الكثير منه أدبا متكلفا قليل الحظ من الصدق ••

أدب الاسكندرية كنبات فى بيوت من زجاج • ومع ذلك لم يذو النبات كله ••

٢ ـ الادب الاغريقى فى عصر الاسكندرية

خلصنا من المقال السابق الى أن الادب الاغريقى فى عصر الاسكندرية كان كنبات فى بيوت من زجاج ، فهو بمعزل عن الفضاء الطلق حيث تهب نسمات الحياة منبعثة عن الشعب • ومع ذلك فالنبات ـ كما قلنا ـ لم يذو كله وان شحبت نضرته وقل ماؤه ••

ولما كانت ملابسات الحياة لم تدفع الى فن أدبى بذاته ولا غلبت فنا على فن • فقد كتب ادباء ذلك العصر فى كافة الفنون • ولكننى لا أستطيع أن أقف مع القارىء عند كل منها ، ولقد سئمت القبح حتى أعود أستخرجه من بطون الكتب • وأى خير فى أن أطلعك على شعر أو نثر ترى فيه مدح الملوك قد حل محل الوطنية ، والتملق محل حرارة القلب ، والخرافة محل الايمان ، والتعلق بالخوارق محل تبجيل الآلهة ، ثم التفقيه والتبجح بالمعرفة المحصلة المكتسبة محل استطلاع المجهول والحرص على الفهم الصحيح • وانما أقف بك حيث يعود هذا الادب فيتصل بالحياة واذا بالجمال يشرق فى نواحيه • أقف عند نفس تفتحت للحب فتذوقت حياة الريف وأنشدت مع الرعاة أناشيدهم • أقف عند نفس تحن الى الماضى فتستنشق شذاه او تمعن فى الحاضر فترصد أحداثه وقد نطقت بأسرارها

(*) نشرت فى ١٩٤٤/٧/٣١

شعر المقطوعات

ولنبدأ بشعر المقطوعات Epigramme وهى قطع شعرية صغيرة لا تكاد تعدو العشرين بيتا ، ولكنها كثيرة العدد حتى لتملأ أكثر من مجلة فى المجموعة المعروفة « بالمختارات الاغريقية Greek Anthology » • وهى لاكثر من أربعين شاعرا من شعراء ذلك العصر ، وان يكن معظمهم من ضعاف الشعراء • ومع ذلك فمن بينهم من تطرب النفس لشعره طربا حقيقيا • خذ مثلا الشاعر ألكبيادس الساموسى تجد له ما يقرب من ثمان عشرة مقطوعة شديدة الشبه بشعر ألسيه وسافو :

« اشرب يا ألكبيادس • لم هذه الدموع ؟ أية محنة قد أصابتك ؟!

لست الوحيد الذى اتخذت منه كبريس Cpuis اله الحب » فريسة • لست الوحيد الذى اردته سهام ايروس القاسى • لم تدفن نفسك فى التراب ؟ لنشرب نبيذ باكوس صافيا • ها هو الفجر ينبثق • اذا كان المصباح قد انطفأ أتريد أن تنتظر حتى يستيقظ ؟ لنشرب فى مرح أيام أخرى قلائل – أيها المسكين – ثم يطويك الظلام الرحب تستريح بين أحضانه »

أو ما تحس فى شعره بجمال الاسرار •• جمال الاعترافات •• نجوى نفس أليفة • شاعر مرهف

وخير من ألكبيادس فيما أظن ليونيداس الترنتى من شعراء القرن الثالث ق • م • ولد فقيرا وعاش مشردا ، فتوثقت معرفته بالحياة • كتب لوحات للمقابر والنذور ومحفورات للتماثيل وصورا للشعراء والفنانين وقطعا فلسفية وأخلاقية ، كتب الكثير منها لصغار الناس : صيادين وغزالات يحملون القربان الى الالهة أو يموتون

لشدة الكد فى الحياة ، ومن ثم واقعية شعره وألفاظه الملونة بالمهن المختلفة ، ألفاظ دقيقة تشف عن عاطفة حية. لقد عبر فى سحر عن جمال الحياة الفقيرة الجاهدة كما عبر عن روعة الربيع وصفاء الينابيع . استوصى مثلا الشاعر القديم سيمونيدس فوصف حقارة الحياة . وصف تلك النقطة ، الهروب بين أبديتين : أبدية الماضى وأبدية المستقبل

« لقد انقضى ايها الرجل زمن سحيق قبل أن تأتى الى الحياة وسينقضى زمن سحيق بعد نزولك الى هاديس « العالم الاخر » . ما هى برهة حياتك ؟ نقطة أو آقل من ذلك ، وهذه الحياة شاقة ، فاللحظة الراهنة ذاتها لا سرور فيها ، بل انها لاشد ايلاما من الموت البغيض . اهرب اذن من الحياة ، اهرب الى المرفأ »

ولربما كان أقوى الجميع ملياجر الذى جمع مختاراته المسماة « بالتاج » فكانت نواة للمختارات الاغريقية التى بين أيدينا ولنستمع اليه يرثى هليودورا حبيبته :

« لتذهب اليك دموعى هليودورا ، هدية ! لتذهب الى هاديس كأثر مقدس لحبى ! دموع قاسية الاراقة . هأنا أسكب فوق قبرك الذى طالما بكيته ، أسكب الاسى ذكرى لغرامى . أنا ملياجر ، أئن من أجلك أيتها العزيزة الراحلة أئن فى ألم ، ألم مبرح . قربانا للاكيرون ولا خير فيه . وا أسفاه ! أين غصنى الاخضر الذى طالما أحببته ! لقد سلبنى اياه هاديس ، وهذه الزهرة المتفتحة قد غبرها التراب ، آه اننى اضرع اليك جاثيا ، اضرع اليك ايتها الارض الكريمة الثمار أن تتقبلى فى رفق هذه الطفلة المبكية ، تقبليها فى رفق أيتها الأم وضميها الى صدرك ، بين أحضانك »

أغاني الرعاة

وهنا ايضا دعنا نكتفي بتيوقريطس ، فهو أكبر شعراء الرعاة ، بل أكبر شعراء عصر الاسكندرية ، ولعله من كبار شعراء الانسانية ، ولنوجز ما نريد معرفته، لنستطيع بعد ذلك ان ننصت الى شيء من شعره وفيه ما يبعث النضرة في القلوب

ولد تيوقريطس في سيراكوسة بصقلية في السنوات الاخيرة من القرن الرابع ق . م . وأمضى جزءا من حياته بجزيرة كوس حيث تعرف الى الشاعر فيليتياس ومدرسته كما تعرف بأنكبيادس الساموسى السابق الذكر وبأراتوس وعاش جزءا آخر في اغريقية الكبيرة .. « جنوب ايطاليا» أرسل قبيل ٢٧٠ ق . م . الى هيرون مستبد سيراقوسة قصيدة مدح ليمنحه رعايته ولكنه لم ينجح فانصرف بمديحه الى بطليموس فيلادف وعاش في الاسكندرية بعض الزمن . وأما تاريخ موته فلا نعرفه على وجه التحقيق

لدينا من شعره عدد من المقطوعات الصغيرة ثم ثلاثون قصيدة تسمى « ايدليا «Idyllia» وهذه اللفظة تصغير للفظة ايدوس «Eidos» الاغريقية ، وايدوس معناها قصيدة غنائية اطلاقا واذن فالايديليا هي القصائد أو اللوحات الصغيرة .. لكنه لما كانت قصائد الرعاة تغلب في المجموعة ، فقد غلب هذا المعنى على اللفظ في العصور الحديثة

ولكن شعر تيوقريطس في الحقيقة ليس كله من أغاني الرعاة ، فمن بين الثلاثين قصيدة نسقط خمسا منتحلة واثنتين مشكوكا فيهما ، وننظر في الباقي فنجد من بينها أغاني الغرام وفصول المحاكاة «Mime» التي تشبه

أشعار هيرونداس • ومنها الريفيات التى تجمع بين الغناء والمحاكاة ، ومنها القطع القصصية ، ومنها الاناشيد ، وأخيرا منها المدائح

كل ذلك الى جوار اغانى الرعاة

لقد تملك تيوقريطس القدرة على الاحساس ، ثم القدرة على خلق شخصيات حية فى اسلوب شخصى • لقد استمر الرجل الطبيعى حيا فيه • استمر فلم يقتله الاديب • فهو يرى العالم •• يرى صيفه وألوانه وعبيره • الكأس لا يزال يفوح فخاره ، وفروة الراعى ليكيداس تشتم منهـا الخميرة ، وروائح الخريف تطفو فى أعياد التاليسـيا • وعذوبة الماء والظلال ، ولين المخدع من أوراق الكرم ، كل هذا يدركه تيوقريطس مختلطا بخرير الينابيع وتغريد العندليب

الفكرة المسيطرة عند تيوقريطس هى الحلم بالحيـاة الريفية • وهذا شعور كثيرا ما يظهر فى عصور الحضارة وموضع المشقة فيه هو أن يأتى طبيعيا • وبهـذا تميز تيوقريطس عن غيره من اللاحقين

الطبيعة عنده ليست الطبيعة القاسية التى عرفهـا هزيودوس ، ولا الطبيعة الحزينة الحالمة ، التى تغنى بها فرجيليوس ، ولكنها طبيعة مشرقة يراها الشاعر دائما فى فصل الضوء بأعلى الجبال حيث ترعى القطعان ــ وما نظن شاعرا قد حملنا على الاحساس بأواخر الصيف وأوائل الخريف مثلما فعل تيوقريطس فى وصف التاليسيا ، العيد الذى اشرنا اليه فيما سبق :

« اعطانى ليكيداس فى ابتسامة عذبة عصاه ، أعطاها رمزا لصداقتنا باسم ربات الوحى ، ثم اتجه الى اليسار

متابعا طريق البسكاء، واما اقريطس وأنا وأمينتوس الجميل، فقد يممنـــا بيت فرازيداموس ، حيث رقدنا فوق أسرة كثيفة من ورق الكرم النضر • وكان كثير من السرو والعبل يترنح فوق رؤوسنا غير بعيد عن الموجـــة المقدســـة التى تخر من كهف النامف «Nynph» وفى الاعشـــاب المحترقة كانت الصراصير التى أحرقتهـا حرارة الشمس تغنى حتى بح صوتها ، والضفدعة الخضراء تصيـــح قصية تحت الاشواك المتداخلة • والقبرة وعصافير الجنـة تغرد واليمام يئن والنحل الاصفر يطن حول الينابيع . من كل فج كانت تنبعث رائحة الصيف ، وقد مازجها عبير الخريف ، والكمثرى والتفاح تتساقط وفيرة على أرجلنا والى جانبنا ، وقد ثقلت الاغصان بالبرقوق ، فنزلت حتى مست الارض . وازيل عن الدنان طين عتيق . يانامف «Nynph» كاستاليا : ياساكنة البرناس ، هل قدم كيرون العجوز كأسا كهذه الى هرقل فى كهف الفولوس الخصيب؟ ليتنى أستطيع أن أعود فأضع المذراة فى القمح ، بينمـــا تضحك وقد امتلأت يداها بالسنبل والحبوب »

هذه لوحة ناطقة موحية •• سر جمالها فى بســـاطتها وصدقها ، فالشاعر يسمى الاشياء بأسمائها ، وهو أرهف حسا من أن يصطنع لغة شعرية متجمدة • فالضـــفدعة والصرصار لم يتحولا تحت قلمه الى كـــروان وعندليب ، وكل من يعرف الريف يذكر صدق ماوصف . وبفضل طبيعة أسلوبه نحس بأعقاب الصيف وأوائل الخريف وقد غمرها الشعر ، فاذا هى أفعل فى النفس من الواقع

وما يحبه تيوقريطس من الرعاة هو بساطتهم : شـعر أشعث وحزام من جلد الشجر ، وفتـــاة طبيعية يتغنى بجمالها . وما يعنيه ما يظن الناس بذلك الجمال

« يا ميز Muse ، ببريه ! غن معى أيتها الطفلة الرقيقة : فكل ما تحسنين أيتها الالهة يصبح جميلا . بومبيــــكا أيتها الفتاة الباسمة الخفيفة الدم ! يدعوك الجميع سورية عجفاء قد أحرقتها الشمس ، ولكنى أنا ، أنا وحــــدى ، أقول أنك شقراء كالعسل .. البنفسج أيضا أسود، والزنبق مجعد . ومع ذلك يجمعان للتيجان قبل غـــــيرهما من الزهور . الجدى يجرى وراء شجرة النحل ، والذئب وراء النعجة ، والبجع خلف المحراث ، وأنا مجنون بك . بودى لو كنت غنيا كقارون . اذن لاقمت لنــا تمثــالا من الذهب هدية لافروديت : أنت بالناى ووردة وتفاحـــة ، وأنا بثوب جديد واحذية فخمة . بومبيكا أيتها الباسمة الخفيفة الدم ! اقدامك كعقل الاصبع ، وصوتك كالحلم ، واما جمالك فلا أستطيع ان أصفه »

ولقد يحمل السيكلوب بوليفيم فى احدى قصائده على التغنى بجمال معشوقته جالاتيه بقوله :

« جالاتيه أيتها البيضاء ، لمــاذا تردين من يحبك ؟ أنت أنصع بياضا من اللبن المخيض ، أنت أرق وداعـــة من الحمل ، وأشد حيوية من البقر ، وأمعن لذعا من عنقــود العنب الاخضر »

هذه قصائد فيها اهتزاز من انفعال الحب ، فيها نغمة صادقة كأنها من حرارة الحياة

تيوقريطس شاعر الريف . شاعر الغرام . واما مادون ذلك من شعره فى المديح فتافه ..

وهو الى جانب ذلك شاعر المحــاكات Mimes حتى ليعتبر حواره بين نساء سيراقوسة أنموذجا لذلك النــوع من الادب الذى سنتحدث عنه فى المقال التالى ..

٣ ـ الادب الاغريقى فى عصر الاسكندرية

رأينا أن شعر الاسكندرية لا يهز النفوس الا عندما يعود فيتصل بالحياة ، ولقد شهدنا ذلك الاتصال فى المقطوعات الصغيرة وفى أغانى الريف والدعاة . وبانعام النظر فيما سقنا من أمثلة ، يلاحظ القارىء بلا ريب أن ذلك الشعر وان كان نقيا خالصا فانه لم يخل من واقعية ، وذلك لافى الاسلوب فحسب، بل وفى نوع الاحساس والتفكير .ولقد استمعنا الى تيوقريطس ينصت الى الضفدعة الخضراء ، ويتغنى ببمبيكا الباسمة الخفيفة الدم ، وقد جن بها عاديا خلفها كما يعدو الذئب وراء النعجة والبجع خلف المحراث ، وعنده أن جالاتيه ، البيضاء كاللبن المخيض لاذعة كعنقود العنب الاخضر

وهذه الواقعية لا علاقة لها بالمذهب الادبى الذى ظهر خلال القرن التاسع عشر بذلك الاسم ، فأدباء ذلك القرن وعلى رأسهم بلزاك وفلوبير وموباسان انما كانوا يقصدون بالواقعية الكشف عن الجوانب الوضيعة فى النفس البشرية ، حتى لقد تطور مذهبهم فانتهى الى الطبيعة التى نجدها عند زولا حيث لا ترى الا الغرائز الشاذة والقوى العضوية ومخلفات الوراثة المثقلة تقود أبطال الروايات . واقعية شعراء الاسكندرية لا غوص فيها ولا تحليل ولا التماس للجوانب المظلمة فى النفس ، وانما

(*) نشرت فى ١٩٤٤/٨/١٤

هى تصوير لواقع الحياة الساذجة ، ولشعور النفس المفطور بأسلوب مباشر

واذا كانت هذه الواقعية قد طالعتنا من ثنايا الاغانى، فانه لم يكن بد من أن تنفرد بنوع بذاته من أنواع الادب وهذا النوع هو ما سميناه فصول المحاكاة Mime

فصول المحاكاة

نشأ هذا الفن بصقلية كما نشأت أشعار الرعاة ، وان يكن أقدم منها تاريخا ، اذ يعتبره النقاد عنصرا من العناصر التى مهدت للكوميديا ، وأكبر الظن أنه نشأ فى القرن الخامس ق.م. على يد سفرون وزيناركوس ، وان يكن ما كتباه قد ضاع . ولهذا لا نستطيع أن نجزم بطريقة بنائهما لتلك الفصول ، وان كان من الراجح أنها كانت على غرار ما وصلنا من اللاحقين لهما ، وبخاصة هيروندااس (يسميه البعض هيروداس) الذى نشر له العالم الانجليزى كينون Kenyon سنة ١٨٩١ سبعة فصول عن ورقة من أوراق البردى الموجودة بالمتحف البريطانى . وكل فصل منها عبارة عن حوار بين شخصيتين أو ثلاثة أشخاص أحيانا من النساء وأحيانا من الرجال ، وهو شديد الشبه بفصل من مسرحية ، وان كانت تلك الفصول لم تعد للتمثيل ، بل كتبت للقراءة او الالقاء ، « لقد كان هيرونداس هذا فيما يبدو معاصرا لتيوقريطس . وأشخاص الحوار من عامة الشعب أو من الطبقة الوسطى . فتجد معلم المدرسة وبائع الدقيق والقوادة والجزمجى الشهير .. الخ . والشاعر يصورهم فى حياتهم اليومية وهو يلتمس لحواره أى سبب كان : لقاء فى

طريق : او احتكاكا فى زحام ، أو مساومة على سلعة .
واذا بنا نشهد ساعة من حياتهم بهمومها الدارجة ، ومسراتها المألوفة ، وشهواتها الصغيرة وثرثرتها الابدية التى نعرفها جميعا فى أفراد الشعب ، وما يتخلل حديثهم من أمثال وتحيات محفوظة ، وشتائم موروثة ومصطلحات لا نفهم لها وضعا ولا معنى . من أمثال : « بلا آفيه » و « يا سيدى لما انت » وما الى ذلك مما يستطيع أن يسمعه القارىء بكل ركن من أركان الحسينية أو البغالة ، فنستمع طورا بعد طور الى القوادة ذات الناب الازرق تنقل الى فتاة مغريات عربيد كبير ، أو بائع الدقيق يقص على المحكمة محنة ويطلب اليها العدل ، أو أب يتحدث الى معلم المدرسة عن ولده « الشيطان الرجيم » ويقص عليه « عفرتته » التى لا تنتهى ، أو نرى بائع الاحذية الشهير يعرض على «مترو» أحذيته الجيدة ويطرى البضاعة

فصول المحاكاة لوحات أخلاقية صغيرة ، لوحات لاعمق فيها ولكنها تصوير صادق للحياة ، وهى ان خلت من عنصر الدراما الا أنها مع ذلك تكون غالبا وحدة لها بعدها ونهايتها . وموضوع الجمال فيها هو سذاجتها وما بها من دقة الملاحظة ، ثم بقاؤها فى مستوى الشعب ، فلن تجد فيها اى تدخل من كاتبها باحساسه الخاص أو آرائه ومثله ، فكأن الشاعر سلبى بحت يستمع الى من حوله ويرصد ما يستمع ، ومع ذلك كم فيها من دقة وصدق وحسن اختيار للتفاصيل الدالة ، وقد تتابعت بها دعارة القول وعفة الحياء ، وقاحة بائع الدقيق وسذاجة نساء الحارات ، مكر بائع الاحذية وتصنع المستهترات

فى هذه الفصول مجموعة كاملة من المشاعر المتوسطة التى نجدها عند عامة الناس ، والشاعر لا يحيد بها الى

التزمت ولا الى التسامح المسرف ، بل يلازم الصدق .. فهو لا يمتدحها ولا يهجوها بل يصورها كما هي غير متجنب ما فيها من قبح ولا مبالغ فيه . وهو لا يخشى العبارة المسفة ولكنه لا يبحث عنها ، كما أنه لا يغدق العطف على ما يحب ولا يصب اللوم على ما يكره . وشخصياته وان لم تخل من رذائل وقسوة الا أن تصرفاتهم لا تصل قط الى حد المآسى الدراماتيكية . وهم بهذا أيضا يظلون في واقع الحياة .. الحياة الحقيقية التي يندر بها الابطال الخارقون كما يندر كبار المجرمين

ثم ان هذه الفصول وان كانت تصور نواحي انسانية عامة الا انها تضيف الى ذلك حقائق تاريخية خاصة بشعب صقلية في ذلك الحين ، ذلك الشعب الذي اشتهر منذ القدم بكثرة الحركة وخفة اللسان ومرونة الخلق والنزوع الى الاستطلاع

ولقد كتب تيوقريطس نفسه كما ذكرنا في نهاية المقال السابق بعضا من تلك الفصول ولعل « نساء سيراقوزه » خير مثل يضرب لها . والحوار يجرى بمدينة الاسكندرية في يوم من أيام عيد ادونيس وبطلاه امرأتان أتت بهما من سيراقوزة الى الاسكندرية بعض المهام التجارية فذهبتا الى العيد حيث لا تنقضي تعليقاتهما على ما يريان ، فالحصان العادي الضخم يخيفهما وكل منهما تشكو من زوجها وان كانتا في حقيقة الامر أميل الى الطيبة ، وهما لا يغنيان ولكنهما يحبان الاستماع الى الغناء ، وبالفعل ينشد أحد المغنيين نشيدا جميلا لادونيس وبه ينتهي الفصل . وهانحن بعيدون عن رعاة الجبال وقد انتقلنا الى المدن حيث تجرى الحياة المتواضعة التي لا شعر فيها ، ولكننا نجد في صدق التصوير وسذاجته ما يعوض

عن الشعر ، وأن كان تيوقريطس لم يتمـــالك من أن يختم فصله بنشيد فيه شذا الشعر الجميل

الشعر العلمي « الاكاديمي »

قلنا من قبل أن الكثير من شعر الاسكندرية كان شعرا مصنوعا وضعه العلماء بعيدا عن الحياة ، ولدينـا من هذا النوع الشيء الكثير ، فأراتوس يتحدث عن ظواهر الطبيعة فى كتاب ضخم . وكاليماكوس يقص نسب الآلهة بمغامراتهم وحوادثهم المعروفة فى أســلوب تعليمى فى « أناشيده » أو يوضح الاسباب والمسببات فى « أصوله » ، بل ومنهم من اخذ فى محاكاة هوميروس فحاول أن يضع الملاحم . وأكبر هؤلاء المقلدين هو أبولونيوس الدودسى الذى ألف ملحمة كبيرة يقص فيها رحلة جازون ورفاقه بحثا عن الجزة الذهبية ، ذلك أن جازون هذا كان عمــه قد اغتصب من أبيه العرش ، وعندما حاول استــرداده طلب اليه العم أن يأتيه أولا بالجزة الذهبية ، وكانت تلك الجزة ببلاد تراقيا النائية حيث يحرسها تنــين ضخـم فضلا عما فى تلك الرحـــلة البعيدة من مخاطر . ولقــد استطاع جازون أن يأتى بالجزة ،وذلك بفضل ميديه بنت ملك تراقيا التى أحبت البطل وجنبته بنصائحها وذكائها مواضع التهلكة بل وهربت معه . وهذه هى القصــــة المعروفة بقصة « الارجونوت » أى بحارة « أرجو » وهو اسم السفينة التى ابحر عليها جازون ورفاقه

وابولونيوس وان يكن بلا ريب من الشعــراء العلماء ، شعراء الصنعة . فانه يعد برغم ذلك شاعرا كبيرا وبخاصة فى بعض أجزاء ملحمته التى استرسل فيها مع احساسه الى حدما . ولعل من خير ما كتبه وصفه لغرام ميديه :

« مد الليل ظلاله على الارض وفى البحر نام البحـــارة بسفنهم وهم يتأملون هيليكيه Heleké ونجوم الاريون . وقد هفا المسافرون فى الطريق الى ساعة النوم ، كما هفا الحراس على الابواب . بل والام الحديثـة العهد بمـوت أبنائها قد لفها حذر نوم عميق . وعواء الكلاب لم يعـد يسمع بالمدينة ، لم يعد ثمة همس لصـوت . لقد تملك الصمت ظلام الليل

ولكن ميديه لم يغزها عذب النوم ، لقد أيقظتها آلاف من الهموم ، هموم غرامها .. وكان قلبها يثب فى صـدرها بلا انقطاع ، وكأنه شعاع يثب فى غرفة وقد عكسته مياه تصب فى قدر . فهو يهتز دائرا فى سرعة فيقفز هنـــا وهناك . على هذا النحو كان يدور قلب الفتاة بصدرها

حدثت نفسها حينا بأنها ستعطى المادة الســــحرية الثيران « التى كانت ستفترس جازون » لتهدئها ، وحينا بأنها لن تعطيها . فكرت فى أن تموت ، ثم فى ان لا تموت ، وأن لا تعطى المادة السحرية محتملة المها دون أن تفعـــل شيئا . واخيرا جلست وفكرت ، ثم قالت : ما أشقانى ! لقد تحوطتنى المحن . اين المفر ؟ بكل سبيل شـــكوك لنفسى ! لا دواء لألمى الذى لا يمسك عن احراقى . آه ! ليت أرتميس « الهة الصيد » استطاعت أن تقتلنى بسهامها قبل ان أراه . كيف أستطيع ان اعد المواد السحـــرية خفية عن اهلى ؟ ماذا أقول ؟ اى حيـلة اختـرع لادارى معونتى ؟ هل احادثه سرا بعيدا عن رفاقه ؟ يا للبؤس ! ان موته ذاته لن يدع لى أملا فى الشفاء من آلامى . بعد موته سيحتضننى الالم . وداعا عفافى ! وداعا ضـــياء حياتى ! فلينج على يدى ولينأ من هنا دون جراح . لينأ الى حيث يهوى فؤاده »

ولست أدرى ماذا يظن القارىء بهذه الفقرة التى هى

بلا ريب من خير ما كتبه وان كنته عن نفسى أحس فيها الصنعة بادية والتكلف واضحا ، ولا أدل على ذلك من أن نمعن النظر فى تشبيهه المعقد لقلب الفتاة بالشعاع الذى يثب فى غرفة وفى الغرفة قدر وبالقدر يصب الماء ، والماء يعكس الشعاع ، والشعاع يتطاير شرره فى كل ناحية وما الى ذلك من تفيهق العلماء وصنعتهم المرذولة

ذلك عن فن الملاحم . ولقد سبق أيضا ان قلنا ان شعراء ذلك العصر قد حاولوا كافة الفنون الادبية ، فهم لم يقفوا عند الملاحم يحاولون بعثها بعد أن كان زمن الفطرة والطبع السليم قد انقضى ، بل كتبوا أيضا التراجيديات ومن غريب الامر أن أكبر شعراء التراجيديات فى ذلك العصر وهو ليكوفون Lycophon لم يرقه ما أحدثه أوريبدس فى أسلوب التراجيديا من تطور نحو النثرية . فأراد « كأديب مرهف » أن يعود بها الى اللغة الشعرية القديمة .. فأخذ يحاكى أيسكيلوس وبنداروس ، ولكن التكلف أفسد محاولته كما نتوقع ، وكان فى هذا فشل للتراجيديا لايقل عن فشل الملاحم

ونخلص من كل ما سبق عن أدب عصر الاسكندرية الى أنه لم يجد الا عندما عاد الى الحياة ، لقد جاد فى شعر ليونيداس لانه لامس بؤس الحياة وخبر أسرارها ، وجاد فى شعر تيوقريطس لانه هاجر الى الريف حيث السذاجة الساحرة ، وجاد فى فصول المحاكاة ، لانه صور واقع الحياة ، ولقد صدقت نغماته فى شعر الغرام ، لان الحب شعور غلاب ، وأما فيما عدا ذلك فقد جاء شعر علم وتكلف وكتب وصالونات

العمالية الفكرية

نقصد بالعمالية نشوء طبقة اجتماعية جديدة ينزل فيها المشتغلون بالمسائل العقلية منزلة العمال بمالهم من حقوق ومطالب ومشكلات على نحو ما شاهد النصف الأخير من القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين بالنسبة للعمال اليدويين ، وبخاصة عمال الصناعة ، وتلك مشكلة ستتمخض عنها الحرب الحاضرة بعد أن مهدت لها الحرب السابقة .. ولفهمها لابد من القاء نظرة عابرة على قيمة العمل الانسانى خلال التاريخ ، وتطور تلك القيمة الى يومنا هذا

فى العصور القديمة كان العمل من اختصاص العبيد ، وأما المواطنون فكانوا يرون عارا أن يزاول أحدهم بنفسه زراعة أو صناعة ، وقد أثقلت هذه النظرة تاريخ الانسانية، وجاهد المفكرون وطلائع البشر فى رفع هذا الثقل قرونا طوالا وبالرغم من أن الانسانية قد اجتمعت كلماتها على الغاء الرق ، فان العمل لا يزال ينظر اليه الى اليوم نظرة لا تتفق مع قيمته الحقيقية من حيث أنه منبع الثروة الوحيد . ومن غريب الامر ان قدماء الاغريق أنفسهم قد فطنوا الى قيمة العمل ، فحسمها أرسطوفانيس

(*) نشرت فى ١٩٤٤/٨/٢٨

المؤلف الكوميدى الشهير فى رواية رائعة هى بلوتس ت ـ اله الذهب وهـذا اله أعمى قالوا أن الاثينيين ضرعوا الى الاله الطبيب ايسكيلاب أن يشفيه من عماه فيقيم بمدينتهم اعترافا بالجميل ـ وهذا ما كان . واستوطن الاله بأثينا ، واذا بالسماء تمطر الذهب حتى غصت به الطرق والحارات ، وأمسك جميع السكان عن العمل اكتفاء بهذا الذهب الوفير يغرفون منه لقضاء حاجاتهم ـ ولكنهم لم يلبثوا بعد أيام أن رأوا المنتجات تنفذ ، واذا بهم يتضورون جوعا والذهب تحت أرجلهم . وهال عقلاءهم الامر ، فخفوا الى الاله الطبيب يرجونه أن يسكب فى عين اله الذهب ما يذهب ببصره ثانية ، حتى يستطيعوا آسفين معتذرين أن يقودوه خارج مدينتهم ، لترتفع عنهم تلك المحنة القاسية ، محنة الذهب ، ويعودوا الى نشاطهم المثمر ، يعودوا الى الكد وعرق الجبين الذى ينتج من الخيرات ما يشبع حاجاتهم الحيوية . هذا ما رآه الاغريق القدماء ، أو ما رآه أحد كبار مفكريهم ، ومع ذلك ظل العمل من اختصاص الرقيق، ولم يستطع أن يتمتع بماله من واجب الاحترام ، بل التقديس ، وهذا أمر بديهى ، فأنت تستطيع أن تملأ خزائنك بالمال ، وتترك هذا المال بالخزائن طوال السنين، ثم ترى أنه لم ينتج شيئا ، وانما المنتج كد الرجال

وفى خلال القرون الوسطى لم يتغير الموقف ، فكان الرجال ملحقين بالارض ، تنتقل ملكيتهم بانتقالها من يد الى يد . ولم يتحرر البشر الى حد ما الا عندما أخذت المدن تتكون وتنشأ بها طبقات اجتماعية جديدة من الصناع والتجار . ومن المعلوم أن نشأة المدن هى التى مهدت السبيل لمناهضة أمراء الاقطاع ، والقضاء على نفوذهم القاسى ، وقد اعتمد عليها الملوك فى انتزاع السلطة من يد

الأمراء وتوحيد الممالك . وفى مقـــابل ذلــك كان الملوك يمنحون تلك المدن وثائق بها كثير من مبادىء التحـــرر السياسي والاقتصادى ــ ومع هــذا فان الحريات التى أعطيت للمدن لم يصب العامل منها الا خيرا يســـيرا ، وذلك لان رق الاقطاع قد قابله فى المدن تكوين اتحادات عمالية كانت لرؤسائها على أفراد العمال حقوق ثقيلة . وفى الحق انه لم يكن بد لكى يسترد العمل كرامته من أن تظهر الشخصية البشرية أولا فى الهيئة الاجتماعيـــة ، ويسلم لها باستقلالها الذاتى لتستطيع بعد ذلك أن تنضم الى اتحاد أو نقابة راضية مستنيرة . وتحرير الشخصية البشرية من رق المجموع هو الكسب العظيم الذى كسبته الانسانية فى عصر النهضة الذى وضــــع حدا للقرون الوسطى . فمنذ ذلك العصر نستطيع أن نقول ان فجــر الانسانية قد تنفس ثم أخــذ المفكرون يبحثون فى منابع الثروة ووسائل الانتاج ، وعلاقة الانسان بكل ذلك . ولما كانت الصناعات لم تنشأ بعد ، فقد رأى البـــاحثون فى الاقتصاد عندئذ أن الزراعة هى المصدر الوحيد للثروة ؛ وأما الصناعة فما هى الا تحويل للمواد الاولية التى تنتجها الزراعة ، فهى لا تخلق جديدا ، والتجارة ليست الا نقلا للمنتجات

وجاء القرن التاسع عشر باختراعاته العظيمة وأخذت الصناعات تنشأ ، ففطن المفكرون الى أن الانتـــــاج الاقتصادى ليس تكوين شىء من العدم والعدم لا ينتــج شيئا ، وانما هو خلق لقيم اقتصادية جديدة ، ومقدرة على اشباع الحاجات الانسانية المختلفة ، فالمادة الاولية بتحويلها تصبح قيما جديدة ، وتشبع حاجات جديدة ، وانت كذلك اذا نقلتها من مكان لا يحتاجها فيه أحد الى مكان تطلب فيه تعطيها قيمة جديدة أيضا ، وهكذا دخلت

الصناعة والتجارة في ميدان الانتاج ، وكان في المناقشات التي دارت حول منابع الثروة وانتاجها ما انتهى بالمفكرين الى تقدير العمل الانساني . ولكن التقدير شيء ، والتسليم بحقوق هذا العمل شيء آخر ، ثم انه كان تقدير المفكرين، وهؤلاء في كل العصور نفر من الخاصة ، والامر لم يكن يوما لسوء الحظ بيدهم ليستطيعوا تحقيق نظرهم عملا ؛ فهم طلائع البشر ، ولكنهم ليسوا قادته الفعليين . ومع ذلك فقد كان في سبقهم الى تقدير قيمة العمل البشرى قيمته الحقة ما أيقظ ضمائر العمال ، ولهذا عندما ظل أصحاب رؤوس الاموال متخلفين عن مسايرة العقلية الجديدة لم يلبث التصادم أن نشأ بينهم وبين عمالهم . ورأى العامل أنه لا يستطيع أن يقاوم بمفرده فتكونت النقابات ، واجتمعت النقابات في اتحادات ، واستعرت روح الطبقات واحتدم الكفاح بينها ، حتى انتهى الامر الى الحركات الاشتراكية والشيوعية المعروفة ، وحتى في البلاد التي حافظت على الملكية الفردية كحافز قوى للانتاج لم تفلت نظمها الاقتصادية ، من أن تتأثر بالكثير من المبادىء الاشتراكية بحيث يمكن القول بأن الديموقراطية ذاتها قد أصبحت في جميع بقاع الارض ديموقراطية اشتراكية ،أو اجتماعية اذا أردت أن تتجنب اللفظ ..

هذا الجهاد الانساني الطويل قد انتهى بالاقرار بقيمة العمل اليدوى والتسليم لطبقة العمال ، وبخاصة في الصناعة ، بالكثير من حقوقها ، وهي لم تمنح تلك الحقوق بل أخذتها أخذا ، بحيث نستطيع أن نقول ان العمال في معظم بلاد أوروبا كانوا قد وصلوا قبل الحرب الحاضرة الى درجة محمودة من الرخاء لم يصل اليها المشتغلون بالاعمال العقلية . ولقد رأيت في فرنسا قبيل هذه

الحرب العامل المتخصص يكسب مالا يقل عن ثلاثين جنيها شهريا ، بينما يعطى القاضى الفرنسى ثمانية عشر جنيها. ولقد رأيت فى جميع أنحاء أوروبا أن الطبقة المهضومة لم تعد طبقة العمال ، بل طبقة أولئك العقليين ، فبينهم تفشت البطالة ، وعن حقوقهم سكتت الهيئة الاجتماعية، وذلك لان انتاجهم غير ملموس النتائج وافرادهم لم ينظموا بعد فى نقابات أو اتحادات . هنالك تجد الموظف تحت رحمة الحكومة ، والصحفى مستذلا لصاحب الجريدة ، والكاتب يتحكم فيه الناشر ، والمتعلم يبحث عن عمل فلا يجده . وليس من شك فى أن الانسانية التى لا يمكن أن تفنى ، لابد ملتمسة علاجا لهذه الحالة الصارخة ، ولقد عدت الى مصر فوجدت البلوى أعم : نقابة للصحفيين لم أر لتكوينها مثيلا فى العالم ، فهى تضم العمال وأصحاب العمل ، ومن الطبيعى أن يتحكم هؤلاء فى أولئك . والوضع الطبيعى أن ينفصل كل فى نقابته ، وأن تتفاوض نقابة مع نقابة ، لا أن يجتمعوا سويا كقطط وفيران فى مصيدة واحدة . ورأيت أثرياء يخشون أن تطالبهم الحكومة بما يجب أن يدفعوه من ضرائب فيصيحون بها أن أمسكى عن انصاف المظلومين من الموظفين ، وقد عضتهم الحياة بأنيابها ، مع أن الضرائب فى بلادنا قلما تصل الى أكثر من ١٢٪ بينما هى لا تنحط فى أى بلد أوروبى أثناء السلم عن ٣٦٪ على نسب تصاعدية . ورأيت ناشرين من التجار الجشعين ، يتحكمون فى عقول الكتاب وأقلامهم ، وينزلون بهم الى حد الدعارة العقلية لترويج البضاعة التى يقبلونها منهم . وأخيرا كم بين المتعلمين من عاطلين ؟ ولقد جاءت تلك الحرب فقلبت أوضاع الحياة الاجتماعية ، فاذا بالعزيز ذليل والصعلوك ثرى كبير ، ونمت روح الدجل والنصب والاحتيال

والنفاق حتى لاعتقد مؤمنا أنه لابد لتستقيم الحيـــاة الاجتماعية من أن يعاد اليها اتزانها بأية وسيلة كانت

ليست هناك هيئة اجتماعية تستحق الاحترام اذا لم يقدس فيها الفكر ، وهذا الفكر هو القــوة التى نسيطـر بها لا على النفوس فحسب ، بل على المادة أيضـــا . وهاهى الحرب قد أوشكت أن تنتهى ، وأنا على ثقة من أن العمالية الفكرية ستحزم أمرها ، وهى التى تقــود الرأى العام ، فتطالب بحماية حقوقها وتوفير كرامتهـــا وضمان استقلالها المادى حتى لا يستذلها أحد .. وانه لمن غريب الامر ألا ترى ببلادنا الى اليــوم قانونا يحمى الملكية الادبية والفنية ، ولا نقابات للعقليين الذين يزاولون النشاط الحر والثقافة غــــير المهنية ، واذا أريد لتلك النقابات النجاح ، فمن الواجب أن تنحى عنها السياسة، وأن يكون تكوينها سليما

التوازن الاجتماعي

هذه ايضا مشكلة كبيرة لابد لرجال السياسة والاجتماع من مواجهتها فى حزم ، وليس من شك فى ان عدم العناية بها بعد الحروب الكبيرة والثورات القومية الماضية ، قد كان دائما من الاسباب القوية التى مهدت لحروب وثورات لاحقة ، ونحن لا نعرف سياسة أحمق من تلك التى تتناول الامم طبقات وطوائف دون نظر دقيق الى ما يجب أن يقوم بين تلك الطبقات والطوائف من توازن يكفل سلامة الامة وضمان وحدتها

والطبقات الاجتماعية لم تتكون فى التاريخ عفوا ، بل قامت دائما على المقاييس العميقة المتغلغلة فى عقلية الشعوب . ففى العصور القديمة عندما نرى افلاطون يقسم جمهوريته الى ثلاث طبقات : حكماء يرأسون المدينة ، وجند يذودون عنها ، وعمال يوفرون لها وسائل الحياة المادية ، لا نستطيع أن نسلم فى يسر بأنه انما أخذ هذا التقسيم عن قياسه للهيئة الاجتماعية وطبقاتها بالفرد وملكاته . ولابد لنا من أن نذهب الى أبعد مما زعم لنستطيع فهم الاساس الذى اقام عليه هذا التقسيم . نعم ان الحكماء ينزلون من الامة منزلة الرأس بملكاته

(*) نشرت فى ١٩٤٤/٩/١١

العقلية ، والجند منزلة القلب بقوته الغضبية ، والعمال منزلة المعدة بنشاطها المادى ، ولكن أليس من البين أن هذا التقسيم تنعكس فيه المقاييس العامة للاغريق فى ذلك الحين ؟ فالعمال فى هيئة اجتماعية كانت تجمع على ان العمل من اختصاص العبيد ، لم يكن مفر من أن ينزلوا المنزلة الثالثة ، والجند فى بلاد استهدفت لجحافل الفرس وردت بشجاعتها عدوانهم بعد أن هددها فناء محقق ، كان من الطبيعى أن ينزلوا منزلة تسمو على منزلة العمال وتتمتع باحترام المجموع . وأما رياسة الحكماء للمدينة فذلك حلم رآه افلاطون ، وكان هو أول من تنكر له ، اذ لم يلبث أن ترك السياسة بالرغم من وجاهة محتده وقرب اتصاله بالقادة فى ذلك الحين ، وهو بعد حلم لا تزال الانسانية ترتجيه

وهكذا نستطيع أن نستشف عقلية الشعوب من أسس تقسيمها للهيئة الاجتماعية وهى عقلية دامغة تسيطر حتى على كبار المفكرين أمثال افلاطون ، ممن نظن دائما أنهم فوق بيئتهم أو نابين عنها

وفى القرون الوسطى نعثر على نفس الحقيقة . فعندما يحدثنا التاريخ أن الطبقات الاجتماعية قد انتهت خلال تلك القرون الطويلة الى التبلور فى ثلاثة : نبلاء ورجال كنيسة وطبقة ثالثة ، لن نجد مشقة فى العثور على أساس هذا التقسيم ، فقد كانت تلك الازمان ، أزمان العهد الاقطاعى حيث يسيطر كل أمير على مقاطعة تتبعه أراضيها ، وما تحمل من بشر يعملون بها ، وهكذا تكونت طائفة النبلاء ، نبلاء الدم والوراثة . والى جانب هذه الطبقة كان من الطبيعى أن تنهض طبقة رجال الدين فى عصور سيطرت فيها المسيحية على عقلية الشعب ،

واما العمال والزراع فقد أجمع حمق البشر على انزالهم دائما مؤخر السلم

وأخيرا جاءت الثورة الفرنسية الكبرى ، وانتفضت الانسانية متطلعة الى فجر جديد . ولقد حطمت تلك الثورة نظام الطبقات الذى تمخضت عنه ، كما رأينا ، القرون الوسطى ، ولكن الانسانية لسوء حظها لم تهتد ، برغم ما أراقت تلك الثورة المجيدة من دماء ، الى أساس سليم تقيم عليه تقسيمها الاجتماعى . وفى استطاعتنا أن نفهم سر المأساة اذا ذكرنا أن تلك الثورة قد قامت بالمدن ، وأن عصبها كان طائفة الحضريين الذين يعرفون بالبرجوازية ، أى « سكان المدن » ، بل سكان باريس بنوع خاص ، فهم منبت تلك الثورة وبؤرتها المقدسة . وقيام الحضريين بها لم يكن حدثا طارئا فى التاريخ . فمنذ قرون كانت المدن العامل الفعال فى مناهضة النظم الاقطاعية ، وتحطيم سلطة الامراء ، وتمكين الملوك من توحيد الممالك ، ولهذا كان من الطبيعى أن تنشأ فى مدينة مثل باريس تلك الثورة العاتية التى أتت على ذلك النظام البائد ...

وبنظرنا فى المبادىء التى قامت عليها التقسيمات الاجتماعية فى العصور القديمة والقرون الوسطى ، نستطيع أن نحصى الاسس التى كانت تمكن من الوجاهة الاجتماعية ، فهى الحكمة والشجاعة ووراثة الدم والزعامة الروحية . جاءت الثورة فحطمت كل تلك الاسس وان لم تمحها محوا تاما من عقلية الشعوب ، حيث لا تزال تعمل الى اليوم على تفاوت فى النسب ، وننظر فيما أقام هؤلاء الحضريون على انقاضها من أسس جديدة ، فلا نكاد نتبين غير اساس واحد هو المال ، وهذا هو سر المأساة التى أشرنا اليها فيما سبق

حاول المال محل غيره من المقاييس ظاهرة واضحة التفسير ، فالثورة الفرنسية هى وأشباهها من ثورات القرن التاسع عشر قد قامت كما قلنا فى المدن على يد الحضريين ، وهؤلاء جمهرتهم العظمى من الصناع والتجار، وهم بتقويضهم لطبقتى النبلاء ورجال الكنيسة قد استطاعوا أن يحلوا محلها فى الصدارة الاجتماعية . وهكذا انتهت الانسانية الى التقسيم المعروف : حضريون «برجوازية» وعمال ، وأصبح المال الاساس العام لتوزيع الهيئة الاجتماعية

قد يقول قائل ان هذا الاساس الجديد خير من بعض الاسس القديمة ، فهو يمكن الهيئة الاجتماعية من مرونة لم تكن تملكها عندما كان النبل مثلا ظاهرة وراثية لا حيلة للبشر فيها . وهذا قول كان من الممكن قبوله لو لم يسد فى تاريخ الانسانية خلال القرن التاسع عشر ذلك الاختلال العجيب الذى لم يكن مفر من أن ينجم عن ظهور ظاهرتين كبيرتين فى ذلك القرن ، ونعنى بهما الحركة الصناعية الكبيرة من جهة ، والاخذ بمبادىء الاقتصاد الحر من جهة أخرى . والثورة الفرنسية السابقة على هاتين الظاهرتين لم تعالج طبعا هذا الاختلال ، بل ولا مهدت لعلاجه ، ولهذا لحقتها بفرنسا نفسها ثورتان أخريان هما ثورتا سنة ١٨٣٠ ، ١٨٤٨

نمو الصناعة وما تبعه من نمو التجارة أيضا ساعد على تكوين طبقات عاتية من الرأسماليين ، وروج علماء الاقتصاد لنظرية : « دع الفرد يعمل ، دع التجارة تمر » وقالوا بترك النشاط الاقتصادى حرا ، فمكنوا بذلك أصحاب العمل من دماء العمال وهكذا بعدت الشقة بين طبقتى الامة مما أثار ما نعرف من حركات ثورية واضطرابات اجتماعية ..

واتخاذ المال أساسا للتقسيم الاجتماعى مصدر لخطر كبير يتهدد الهيئة الاجتماعية فى كيانها • ويزداد هـذا الخطر وضوحا فى أثنـاء الحروب الكبيرة • ومظهر هذا الخطر هو الانحلال الخلقى • لمن شـاء أن يصدع آذنى بقوله أن من الناس العصاميين ، القادرين على جمـع الثروات الطائلة بمهـارتهم وحسن فهمهم لحـاجات النـاس ، ومـلاقاة تلك الحـاجات ، فذلك ما لن أقبله . وعندما انظر حولى فلا أرى الا صعاليك ليس فى عقولهم فكر ولا فى قلوبهم ضمير ينشرون المال كل صوب فى قحة تنفر منها النفس ، لا استطيع الا ان احـكم بأنهم لا يملكون من مواهب غير الدجل والنصب والاحتيال

ويزيد فى تلك الظاهرة خطورة قيام الحروب الكبيرة ، كما قلت ، فعندئذ ترى النصابين يستغلون مواطنيهم أقبح استغلال ، وترى الاوضاع الاجتماعية وقد انقلبت رأسا على عقب حتى يختل توازن الامة الاجتماعى أعمق اختلال ، ويكثر محدثو النعمة ، وتلك طائفة تجمـع الانسانية الرشيدة على احتقارها ورد عدوانها

والآن ، وقد استعرضنا المبادىء ، التى وزعت الانسانية على أساسها طبقاتها الاجتماعية ، وانتهينا الى أن الاساس العام القائم اليوم هو المال ، ووضحنا ما فى هذا الاساس من أخطار يجب أن نبحث عن الوسيلة التى نتعهد بهـا ذلك التوازن ونرد اليه ما يجب ان يلازمه من سـلامة ، وباستطاعتك ان تقلب أوجه النظر كما تريد ، فلن تجـد غير وسيلة واحدة هى تدخل الدولة والاخذ بمبـادىء الاقتصاد الموجه Economie dirigée

مبدأ الاقتصاد الموجه يقوم على تدخل الدولة فى الانتاج، وذلك عن طريق التشريع وهو الزم مايكون فى أعقاب الحروب الكبيرة ، وانت عندما تثقل بالضرائب من أثرى بغير وجه

مشروع لا تظلمه ، بل تنتصف للامة منه ، لانك عند النظر الاخلاقى الصحيح لا تستطيع ان تسميه الا مختلسا، وانت عندما تنتصف للعامل من صاحب رأس المال ، وللمستهلك من المنتج وللمريض من الصحيح وللجاهل من المتعلم ، لا تعتدى على أحد ، وانما ترغم المقصر على أداء واجبه عندما تنعدم قيادة الضمير ٠٠ لقد حان الحين ، لـــكى تحزم الهيئة الاجتماعية امرها ، وتشد من عزم حكامها ليقيموا توازنها الاجتماعى على أساس ترضاه انسانيتها الجريحة

مكافحة الشكلية

لا عجب أن نرى مشكلة التعليم من بين المشاكل الكبرى التى تشغل الرأى العام ، لا فى بلادنا فحسب ، بل فى جميع بلاد العالم ، والحرب القائمة عمادها الاول مبادىء العلم ومكتشفات العقول ، وهى حرب ميكانيكية قبل كل شيء

ولقد انتهى الامر ببلادنا الى الفطنة لوجوب مكافحة الامية الابجدية ، وهذا خير نحمد الله من أجله ، ولكننا نطمع الى ما هو ابعد من ذلك . فنود لو كافحنا الامية العقلية ، وما نظن مفكرا يزعم أنك قد أصلحت نفسا أو هذبت خلقا او سددت ادراكا اذا لقنت الفرد مبادىء القراءة والكتابة ، فتلك وسائل لا خير فيها اذا عريت عن غايتها ، وغايتها بلا ريب هى محو الامية العقلية ، ومن هنا كانت راحة النفس عندما رأينا الحكومة تقيم مكافحتها للامية على أساسين : تعليم الابجدية وما يلحق بها ، ثم نشر الثقافة الشعبية بالقاء الدروس المبسطة فى مبادىء العمران والحياة المدنية

وليس من شك فى أن مكافحة الامية العقلية التى هى هدفنا القومى لن نستطيعها الا اذا أعددنا لمكافحتها طوائف من المثقفين ثقافة جامعية صحيحة ولقد اتفق

(*) نشرت فى ١٩٤٤/٩/٢٥

لكاتب هذه السطور ان لاحظ على تلك الثقافةالجامعية اتجاها نحو الشكلية قد لا يكون منه مفر فى بلاد أخذت تفتح أعينها على العلوم الغربية ، فتود لو تلتهمها متعجلة، ثم تنثرها عن يمين وشمال فجة قبل ان تتمثلها تمثل الهضم ، وتلك آفة من الافـــات الكبيرة التى لابد من محاربتها أعنف الحرب ، لانها خليقة بأن تنشر فى نفوس الشباب غرورا كثيفا يحجبها عن الحقائق العميقـــة . وأخطر ما تكون تلك الآفة فى العلوم المعنوية ، ونعنى بهـــا العلوم التى تتناول الانسان وظواهره البشرية كفـــــرد وكعضو فى هيئة اجتماعية . وسر الخطورة فى هــــذا المجال يأتينا ايضا عن الغرب وان يكن الغرب نفسه قد اخذ يتخلص من تلك الافة التى مكنت لها اتجاهـــات العلوم المادية فى اواخر القرن التاسع عشر وأوائـــــل القرن العشرين

ذلك ان العلوم المادية فى تلك الفترة كانت قــد خطت خطوات كبيرة نحو اكتشاف كثير من القوانين العامة التى شاع فى كل العقول ان العلم ان لم يكن اكتشاف قوانين فهو ليس بشىء ، ونظر الباحثون فى الانسان فاذا بهم لا يكادون يتبينون لظواهره قوانين ، فتطلع طموحهـــم الساذج الى أن يصلوا فى معارفهم الى ما وصل اليـــه علماء المادة ، فقالوا أن الانسان ما هو الا ظاهـــرة من الظواهر العامة ، وهو لابد خاضع فى حياته الفردية وفى حياته الاجتماعية الى قوانين لا مفر من سلطانها ، ومن هنا اتجهت الابحاث النفسية والاجتماعية تلك الوجهـــة الشكلية التى نكتب اليوم عن وجوب مكافحتها اذا اردنا ان نقيم مجد هذا الوطن على ارادة ابنائه ، ارادة يجب ان ينتهى كل تعليم صحيح الى تأييد حريتها التــــامة وقدرتها على كل شىء

ومكافحة الشكلية ليست بالامر الهين ، فقد اتفق لى ان لاحظت التجربة فى نفسى حيث لم أستطع أن أفطن الى ما أدعو اليه اليوم الا بعد سـنين من اقامتى بأوربا ، ولعلى أفدت تلك التجربة من كلمات قاسية سمعتها من شيخ فرنسى أضعاف ما أفدت من أساتذتى ومطالعاتى . وليسمح لى القارىء بأن أقص تلك الذكرى الشخصية ، فقد يفيد منها مثلما أفدت

فى أول عهدى بباريس كنت أتناول الغذاء على مائـدة سيدة عجوز مع نفر من الشبان والشيوخ الفرنسـيين وبعض الاجانب . وكان من بين الفرنسيين رجل جـاوز الخمسين يعمل وكيلا للمحافظة ، وأكبر ظنى انه ينحدر من اسرة كبيرة من الاسر المحافظة ، وكان رجلا جافا فى جسمه وروحه ، أنيقا فى لفظه وملبسه ، ولقد علمت أنه قد ابتلى الحياة وابتلته بهمومها الثقال فتحملها فى بطولة ولقد خرج من نشأته وملابسات حياته بفلسفة قـوية تقوم على مبادى الخلق الصارمة كما تقوم على الاعتـداد بكرامة الانسان وقدرته على توجيه الحياة واخضاعهـا لارادته . ومع هذا الرجل تعلق حديثى احد الايام ،ورأيته يبسط مبادىء فلسـفته التى ذكرتها فى حرارة المؤمن فدهشت ، واخبرته بأن مبادىء الاخلاق التى يتحدث عنها ان هى الا ظواهر اجتماعية تملى على الافراد دون ان يكون لهم دخل فى بنائها ، او فضل فى الايمان بها ، كما أخبرته ان ارادة الانسان الحرة التى يعتز بها ، ليست الا وهمـا لان الفرد لا يملك لنفسه شيئا ، وانما هو مسـير بغرائز وقوى دفينة وما ان سمع منى الرجل هذا الهراء ، حـتى انتفض كالاسد، واستند بمرفقه الايسر على المائدة،ليلتفت الى محدقا فى غضب ، غضب الاستعلاء ، وسألنى من أى بلد اتيت يا ابنى ؟ قلت من مصر . قال وماذا يصنع أبوك

فى مصر ؟ قلت يزرع الارض . قال انى أوصيك مخلصا ان تعود الى بلدك لتحرث الارض مع أبيك هذا أجدى عليك وعلى وطنك مما تتعلمه او تظن انك تتعلمه هنا من هراء ، فتماسكت موهوما وقلت ، ولكن هذه يا سيدى هى الاراء التى سمعتها من اساتذة السربون فى علم الاجتماع وعلم النفس ، فأجابنى : ومن انبأك أن هؤلاء الاساتذة يفهمون شيئا عن حقائق الانسان ؟ أتظن أن حقائقنا البشرية من اليسر بحيث تصاغ نظريات او يكشف عنها التفكير المجرد؟ ثم من قال ان التفكير الفرنسى يمثله ذلك النفر من اليهود الذين يزعمون انهم قد اكتشفوا قوانين الانسان ، عندما زعم كبيرهم دركايم ومن خلفه ليفى بريل وموسى وفوكونيه ومن تبعهم ان الانسان حكمه حكم المادة ، وان هناك ما يسميه هؤلاء الحمقى وعيا اجتماعيا تتمخض عنه الحياة العامة كما يتمخض الناتج الكيماوى عن مزيج من العناصر .. احذر يا بنى ان تؤمن بما يقولون . فليس صحيحا ان الرجل المهذب لا يستطيع ان يصل الى قيادة شخصية يهتدى بها الى مواضع الخير والشر والبطولة والخسة بنفسه ، كما تهتدى الطيور الى اوكارها . وليس صحيحا أن قواعد الاخلاق ليست الا ظواهر اجتماعية لا نستطيع فى علاجها شيئا ، وكل ما يجب علينا عمله هو ان نرصدها ، كما يفعلون لنستخرج منها قوانين عامة . هذا يا بنى وهم ، بل خداع مبطلين ، ثم اذكر اننا فى مجال المعرفة بالانسان ، ليس لنا الا هدف واحد هو ان نصبح خيرا مما نحن . فبالله ، هب ان هذا الهراء حق ، فأى فائدة ستجنى منه الانسانية ؟ انا أفهم أن نكشف عن قوانين المادة ، لنسيطر عليها ونسخرها فى مرافق حياتنا ، ولكن الانسان ما شأنه بالقوانين ؟ ومن قال ان الانسان مادة فحسب ، وهب أنه كان مادة ، وان الروح لم يكن لها

وجود وانها تفنى بفناء المادة كما تنعدم النغمات بتحطيم الناى ، أليس من الخير ، بل من الواجب على الانسانية أن ترفض علما كهذا لن ينتهى الا بتحطيم حياتنا وشل ارادتنا وتقويض دعائم الهيئة الاجتماعية التى نحيا بينها ؟

هذا هو الدرس القاسى ، الدرس الصارم النافع الذى تلقيته عن الشيخ فى مستهل حياتى ، رويته اليوم راجيا أن تتدبره شبيبتنا الناهضة . ولقد تذكرته اذ قرأت فى احدى صحف المساء مقالا لشاب أكبر الظن أنه حديث التخرج من قسم الفلسفة بالجامعة ، ولقد رأيت شابنا المسكين يتحدث عن « مكافحة الاميين فى ضوء علم الاجتماع » فيزعم أن هذه المكافحة ستجرى ضد قوانين علم الاجتماع المزعومة ، وانها لذلك لن تنجح لان عقلية الفلاح ليست عقلية حضارة وعلم ، وانما تصبح كذلك بعد أن تنتشر الصناعة فى مصر ، وذلك لما رواه عن دركايم وتلاميذه من ان لكل شعب عقلية تتكيف بتاريخه ونوع نشاطه الاقتصادى وما الى ذلك مما ينتهى بخلق ما سماه طالبنا نقلا عن هؤلاء العلماء « بالعقل الجماعى » وهذا هو موضع الداء ، فطلابنا يرددون اصطلاحات علمية لا يحسنون فهم مدلولاتها فهم الناقد المستنير ، وتبلغ بهم القحة ان يكتبوا للصحف فيما لا يفهمون غير واعين بما قد يكون فى هرائهم من تثبيط لهمم أفراد الشعب الذين لم يصيبوا من العلم الزائف مثلما أصابوا ، وها أنا ألقى عليه درسا مثل الذى سمعت فى أول حياتى :

لا يا بنى ليس هناك عقل جماعى كما زعمت أو زعم لك دركايم ، وانما هناك عقل فردى ، هناك ارادة حرة ، ارادة يجب أن تستيقظ فى قلوب أمثالك فتهدم الصخر . لا يا بنى ليس هناك جبر تمليه قوانين مزعومة ، وانما هناك

نشاط حر ، نشاط لا يعرف اليأس . وكم أحزننى من شاب مثلك أن يقول بقيام قوانين تقف دون ارادة هـذه الامة ، التى أنت أحد أفرادها ، فتردها عن أهدافهـا القومية . اقلع عن اليأس وبشر بالامل ، واذا سـمعت من حولك من يرمى هذه الامة بالسوء فرد قوله ، وآمن بأنه مهما بلغ بنا الفساد فنحن لابد مقوموه ، وان حافزنا الاول الى هذا التقويم سيكون العلم الصحيح الذى يؤمن بأن النشاط الانسانى حر ، وان ارادتنا لابد آتية على كافة الصعاب كما أتى مصطفى كمال على صعاب تركيا وستالين على صعاب روسيا ، دون أن يقف أمامهما عقل جماعى او قوانين اجتماعية ..

أمية المتعلمين

نحن فى حاجة الى أن نكافح فى بلادنا ثلاثة أنواع من الامية : الامية الابجدية والامية العقلية وامية المتعلمين. ولابد اذا اريد لهذا البلد الصلاح من أن نكــافح الانواع الثلاثة معاً ، وساقا بساق فى شبه ثورة اجتماعية تجند لها جميع القوى قسرا

فأما الامية الابجدية فتلك فى الحقيقة أهونها ، لان تعليم فك الخط ليس بالامر العسير ، وان تكن هناك ظاهرة تستحق النظر . فلقد اتفق لكاتب هذه السطور أن رأى صبية التعليم الالزامى يطالعون دون أن يخطر ببالهم أن المطالعة انما تكون لفهم ما نطالع أو محاوله ذلك الفهم ، وانا بعد لا أدرى سر هذه الغفلة ، وان كنت اميـــل الى التفاؤل ، اذ يخيل الى أن محو الامية الابجدية عنـــد الاطفال كسب حقيقى ، فهم اذا كانوا عاجـــزين عن أن يستفيدوا بما تعلموه من مبادىء القراءة والكتابة فــلا أظن ذلك مانعا لهم عند الكبر وتفتح النفس من أن يهتدوا الى أن القراءة انما جعلت للفهم والالمام بما نقـــرأ . واكبر الظن أن هــــذه الظـــاهرة لن تحدث عنـــد تعليم الكبار الذى تعتزمه اليوم حكومتنا ، فالشـــخص

(*) نشرت فى ١٩٤٤/١٠/٧

الكبير لابد من أن يتحرك تفكيره بما يقرأ ، وبخاصة اذا اختير له من القراءات ما يثير اهتمامه الشخصى ويلابس ظروف حياته فيشعره بفائدة ما يقرأ . وسوف يزداد شغفا الى اجادة القراءة بفضل ما يلقن من مبادىء الثقافة الشعبية التى تشق الحجب عن بصيرته ، فيحس بآفاق جديدة ، تنتشر بها حياته ، حتى لكأنك تفك عنه أغلالا ، سيدرك عندئذ انها توثقه على غير وعى منه ، واذا به يسعى الى أن يتمكن من الوسيلة التى حررته ومن هنا تظهر الصلة المتينة القائمة بين مكافحة الامية الابجدية والامية العقلية وتأثير احداهما فى انجاح الاخرى

والامية العقلية محوها لاريب أشق وابعد مدى من محو الامية الابجدية ، وان خيل الينا عكس ذلك فقد يقول قائل : ان باستطاعتك ان تجمع الاميين وتخاطبهم بلغتهم العامية عما تريد أن يعلموا واذا بك تبدد الجهل من عقولهم وهذا قول لا يصح الا فى ظاهره . فقديما قال مفكرو الاغريق : « ان تثقيف الاطفال . والاميون فى هذا حكمهم حكم الاطفال .. لا يستطيعه غير الفلاسفة » والسبب فى ذلك بين ، فالمعلم لابد له من خيال قوى ليستطيع أن يخرج عن نفسه ليحاذى عقلية من يخاطب ، ثم انه ليس أشق من تبسيط المعرفة ، وذلك لاستهداف المبسط فى أغلب الاحوال لاحد امرين : الغموض والثرثرة . ومن هنا ترى أن كتب التبسيط العلمية الجيدة لا يكتبها عادة فى أوربا غير كبار العلماء الذين هضموا المادة العلمية حتى أصبح حديثهم عنها أشبه ما يكون بذكريات حياتهم الخاصة ..

وأيا ما يكون الامر فهذان النوعان من الامية باستطاعة حكومة حازمة أن تكافحهما أنجح الكفاح ، ولكن ثمة النوع الثالث وهو أمية المتعلمين فذلك ما يحير اللب ، حتى

لاحسب أن تلك الامية من أدواتنا العميقة التى أجمعت لتأصيلها أسباب عاتيـــة لا ندرى كيف الســــبيل الى علاجها

ولامية المتعلمين ثلاثة مظاهر : الانتهــــاء من التعليم الدراسى بفائدة ضئيلة ، وعدم تنمية كل صـــاحب فن لمعلوماته الفنية بعد التخرج ،واخيرا ضعف الثقافة العامة عند معظم المتعلمين بل واهمالها أحيانا اهمالا تاما

الخروج من التعليم بفائدة ضئيلة له ما يشـــابهه فى حياتنا العضوية ، فنحن جميعا لا نتمثل من الغذاء كل مافيه من عناصر القوة ، حتى لترى من الناس الضعيف برغم مافى شهيته من نهم ، ومنهم القـــوى على مابه من اقتصاد فى الغذاء . والقدرة على تمثل المعرفة للطبـــع فيها دخل كبير ، ولكنه ليس كل شيء فمناهج الدراسة وقدرة الاساتذة تفعـــل فى ذلك الاعاجيب . وليس من شك فى أن الثمرة الحقيقية لكل تعليم صحيح هى مايخلف فى النفس من رواسب تمتزج بملكاتنا ، حتى تصـــبح جزءا منها ، واما المعلومات التى نحملها كودائع نسلمها لاوراق الامتحان تسليما لا رجعة فيه ، فذلك مالا يمكن أن يسدد ادراكا او يهـذب ذوقا أو يرهف احساسا . والمتعلم لن يصل الى ما يجب من تمثل المعـرفة الا اذا أوتى من الخيال ما يستطيع معه أن يتصور فى كل حين مواقف الحياة التى من الممكن أن يستخدم فيها كل نوع من المعرفة التى يتلقاها ، وبفضل هذا الخيال يمدالصلات بين العلم والحياة . ونحن لا نملك هذه القدرة على نسبة سواء فى مراحل حياتنا المختلفة ، ولا أدل على ذلك من ان نعود بعد أن يستوى ادراكنا الى أبسط كتب الدراسة نقرأها من جديد فنجد أننا كنا واهمين عندمااعتقدناونحن

صغار اننا قد انتزعنا كل مابها وفهمناه على وجهه . بل ان الكتب التى نقرأها مرة واحدة ونحن كبار نستطيع ان نعود اليها أو الى الجيد منها فنعثر فيها دائما على جديد لم نفطن اليه أو غامض لم نحسن فهمه ، وكل ذلك فضلا عما نستوحيه من تلك الكتب . ومن الثابت ان الكتاب وسيلة للتفكير الاصيل قدر ماهو مستودع للمعرفة ، وياويل قارىء سلبى لايقف من الكتاب الا موقف المتلقى . ولقد اتفق لكاتب هذا المقال ان لاحظ غير مرة فروقا شاسعا بين المتعلم المصرى والمتعلم الاوروبى فشبابنا المتعلمون أغلبهم لا نحس فى حديثهم بمعارفهم ايمانا بما يقولون ، أو على الاصح يرددون حتى ليتضح ان كل ما يذكرون ليس الا رهائن فى نفوسهم لا يعرفون سرا لاحتفاظهم بها ، ولا يرون لها صلة بالحياة أو فائدة من اثرائها بله اخضاعها وتوجيهها . ولقد يكون أحدهم واسع الذاكرة ولكنك مع ذلك لا تعدم أن تحس بضيق ادراكه ، حتى لكأنه حبيس فيما يردد مستعبد له ، وكل تلك مظاهر لأمية اخطر من أمية العوام . والغربى على العكس من ذلك ايجابى فى تفكيره ، معارفه حية لانها وقود لتفكيره ، ومن هنا تتسع حيلته فى الحياة وتشتد ثقته بنفسه ، فلا يرهبه مجازفة ولا يقعده عجز عن البدء فى كبار الامور . يخطط سبلها ويوفر لها أسباب النجاح . عجيب ان يتخرج متعلمنا عالة على الحياة ويتخرج متعلمهم عنصرا فعالا فى خلق تلك الحياة

وذوو المهن منا قل من يتابع منهم سير المعرفة فى مهنته ، وذلك لانهم لا يلبثون بمزاولة العمل ان ينزلوا الى الالية التى لا تستطيع تجويدا ، حتى فى تفاصيل المهنة . والسر فى ذلك ، هو انهم لا يقدرون ــ لكسل أو عياء ــ قيمة المعرفة النظرية فى مهنتهم قدرها الحق ، ونحن الان فى

عالم تعقدت فيه وسائل العمل والانتاج ، واصبحت تستند الى أسس نظرية ، لن تتقدم مهنة بدونها ونحـــن نلقى التبعة كلها على متعلمينا فمنهم المرهق المهموم بتبعات الحياة المادية كالمدرس ، ولكن الى جانب هؤلاء كم ترى من موظفى الدواوين الذين طغى الكسل على حيـــــاتهم فتسكعوا كالدواب ، وكم ترى من أطباء ومحامين لـــم يترك لهم جشع الحياة فراغا ، يطالعون فيـــه جديدا او يجيدون فهم قديم ، تلقاهم فتدهش لآفاقهم المحصـــورة ومعارفهم الضامرة لا فى ثقافتهم المهنية فحسب ، بل وفى ثقافتهم الانسانية العامة ، تلك التى لابد ان تستند اليها معارفهم الفنية اذا أريد لها أن تنمى قدرتهم على تكييف النفوس والحكم على مواقف الحياة حكما صحيحا ، وهذه ايضا أمية لاتجد لها مثيلا فى الغرب حيث يؤمن كل ذى مهنة ان توقفه عن القراءة مميت لمهنته مجفف لنفسه ، وانه لن يستطيع المنافسة فى ميدان الحياة مالم يتـــابع مكتشفات المهنة وثقافتها النظرية متابعة حارة مستمرة

ونصل الى ضعف الثقافة العامة ، وهذا الضعف كما رأينا شديد الصلة بالتعليم وبالثقافة المهنية على السواء . ونقصد بالثقافة العامة كافة انواع المعرفة الادبية والتاريخية والفلسفية التى لا تتصل بمهنة ولا تؤدى الى اســتغلال مادى مباشر ، وفى هذه الظاهرة ترى ببلادنا ما يفزع حتى لتحسب أننا فى ارض لم تتسرب اليها بعد معانى الحضارة الحقيقية ، ففى اوروبا مثلا من المستحيل ان تلقى موظفا او طبيبا أو مهندسا أو محاميا يجهل مؤلفات كبار المفكرين من الادباء والفلاسفة والمؤرخين . واما فى مصر فمـــن المستحيل ان تلقى من بين من ذكرنا من يعرف تلك المؤلفات فى غير النادر الذى لا حكم له . ومن أشـــنع ما يهـــولك ان ترى سادتنا لا يستحون من جهلهم ، بل يظهرون من

عدم الاكتراث ، ان لم يكن الاحتقار ألكاذب لتلك الثقافة الحرة ، ما يحزن ومن عجيب الامر أنهم لا يحلمون حتى بما سيجدون فى تلك الثقافة من عون على مزاولة مهنهم مزاولة صحيحة ، وهم يكادون يجهلون أنهم يعيشون فى وسط اجتماعى وانهم يعملون فى صلب الحياة . وليس من شك فى أن أحدهم لن يفهم وسطه الاجتماعى أو ينفذ الى نفوس من يحيطون به أو يستطيع علاج مشاكل الحياة ما لم يتسع أفقه وتشحذ ملكاته الانسانية بالثقافة الواسعة الحرة ، ولكم من مرة لقينا بأوروبا طبيبا أو محاميا يحدثك ان نجاح مهنته لا يتوقف على معلوماته الفنية فحسب ، بل لابد له من أن ينهض على فهم صحيح لنفسية المريض أو الخصم أو القاضى ، وسبيلهم الى ذلك الفهم هو مواصلة القراءة فى ميادين البحث الانسانى . ثم هب أن الثقافة العامة لن تجدى فى الحياة العملية ، أليست هى المنبع الاول لمتع الحياة ، أليست هى دليل التحضر وارتفاع الانسان عن مستوى الحيوان الاعجم ؟ الا فلنذكر قول المفكر الفرنسى العميق جورج ديهامل : « المكاتب العامة لا تكفى حاجات الناس ، ولذا يمتلك كل منهم ــ مهما كان فقيرا ومهما ضعف استقراره ــ مكتبة صغيرة هى كنزه الذى يعتز به . فكل انسان يشعر بالحاجة الى أن يجد فى متناوله وتحت بصره وسائل حياته ، وهو يقنيها لا لان الكتاب هو أخص زينات المنزل ولا لانه ينشر فى الاماكن التى يحليها عبيرا أليفا نافذا من الروحية ، بل لانه يجد فيها ما يركن اليه فى ساعة ضلام أو انحلال أو شك أو فراغ نفسى

ولتتصور ماذا تكون حياتك فى بيت مريح ، ولكنه خال من الكتب ، أنك لن تلبث حينئذ أن تحس بالنفرة وضيق الصدر ..

التفكير المذهبى

هناك نوعان من التفكير المذهبى :تفكير تفسيرى ، واخر انشائى ، فالمؤرخ الذى يحاول تفسير التاريخ وتطوره لفكرة موحدة جامعة ، يفكر تفكيرا مذهبيا ، فيقول مثلا : ان تغير وسائل الانتاج وحلول الالة محل الايدى قد غير من توزيع الطبقات الاجتماعية ونقل عقلية الشعوب ، وهذا هوالتفكير التفسيرى • والسياسى الذى يقول بوجوب فصل السلطات الثلاث : تشريعية وتنفيذية وقضائية ، وتحديد علاقاتها بحيث لا تبغى سلطة على الاخرى ، ويرى فى ذلك ضمانا لصلاح الحكم ، يفكر تفكيرا انشائيا ويدعو الى المذهب الذى يؤمن به ، ولقد كنت دائما شديد الحذر من التفكير المذهبى فى مجال التفسير لما لاحظته من أن المذهب عندئذ لا يمكن أن يفلت من الضيق والتحكم • فالمؤرخ فى مثالنا السابق لا بد متعسف فى عرضه • والناظر الحر التفكير لا يمكن أن ينكر أن تغير وسائل الانتاج ، لم يكن بحال العامل الوحيد فى تطور الانسانية ، فثمة النشاط العقلى وتوليد الافكار وارادة البشر ونزوعهم الى المثل وظهور كبارالقادة، وما الى ذلك مما يعمل فى التاريخ قدر ما تعمل وسائل الانتاج ان لم يفقها ••

(*) نشرت فى ١٩٩٤/١٠/٢١

وأنا على العكس من ذلك شديد الحماسة للتفكير المذهبى فى مجال الانشاء والدعوة ، ولقد زادنى ايمانا بهذا النوع من التفكير ما ألاحظ اليوم من تشتت الاخلاق السياسية والاجتماعية بمصر ، وأخشى أن يكون بالشرق كله تشتت يملأ النفس حزنا ، حتى ليصبح بالقلب أمل أننا قد نستطيع علاج هذا المرض النفسى المدمر واذا حاولنا جمع النفوس حول الافكار المذهبية

وأنا بعد لا أجهل ما فى المذاهب الانشائية بالنسـبة لبلادنا من مشقات وأخطار ، فنحن بعد لا زلنا بظاهر الحضارة نقرع أبوابها ، وجانب كبير من حياتنا لا يزال محاكاة لحياة الغرب . وما يستطيع عاقل أن يقول اننا قد وصلنا من النضوج الى حد الاصالة . وموضع الخطر هو أن نحسب أن مذاهب الغرب كما هى صالحة لبلادنا مضمونة النجاح فيها . ثم ان كل تفكير انشائى لا بد مصطدم بالكثير من حقائق الواقع عندما تستجيب له النفوس فتأخذ فى تطبيقه . وهنا تظهر الصعوبات ،اذ ترى النفوس متعصبة لما تؤمن به وشهوة الفكر لا تقل عنفا عن شهوة الحس ، ويأتى الواقع فيستعصى ، واذا بالتنافر فى العمل وتبلبل الحياة العامة

هذه لا ريب صعوبات حقيقية ، ولكننى مع ذلك لا أتردد فى الدعوة الى التفكير المذهبى فى حياتنا العامة ، ومن البين أن بلادنا قد أخذت تتهيأ له فى كافة نواحى نشـاطها سياسية واجتماعية وثقافية . وكل ما تحتاج اليه لتخطو الخطوة الاخيرة هو التوجيه القوى من رجال ، وبالاصح شباب ناضج على خلق وكفاية . وأكبر ظنى أننا عما قريب سنمل سخائم الاشخاص وتخبط الشهوات وتحلل الاخلاق، فترتفع قلوبنا الى مستوى التفكير المذهبى الذى ندعو اليه

وليس من شك في أن خير المذاهب الانسانية ما نستمده من رغبات النفوس ، فالسياسى الحكيم هو من يتحسس اتجاه مواطنيه ، والشعب بغريزة الحياة يلتمس دائما مخرجا من محنه ، فما علينا الا أن نبصره بذلك المخرج جامعين آماله حول فكرة موحدة ، نستمد منها مبادىء العمل . ولا بد لنا من أن نروضه على ما ندعو اليه حتى يستقر بوعيه أن الخير لابد آت مما ارتضاه من نظام ، ولنضرب لذلك مثلا بما في بلادنا من حياة نيابية وضعنا أسسها وفقا لخير الدساتير . تلك فكرة لا شك أن الامة مجمعة عليها اليوم . ولكنك لو أنعمت النظر لوجدت أن هذا الاجماع لم يتغلغل بعد في ايمان الشعب ولا استقرت فوائده بنفوسهم . ولا أدل على ذلك من انعدام ثقة الامة بالانتخابات ونتائجها . ولعل في موقف أغلبية الناخبين — وبخاصة المثقفين منهم — من تلك الانتخابات أكبر دليل على صحة ما نقول . فما لقيت من مستنيرى العقلاء الا أخبرنى أنه لم يشترك في الانتخابات طول حياته مرة واحدة ، بل ولا يعلم أهو مقيد بجداولها أم لا وتلك حالة تستحق النظر لاننا نخشى أن تدل على أن النظم قد سبقت ايمان الشعب وعقليته . ومن هنا اما يكون من الواجب أن نأخذ الافراد بالقسر فنرغمهم على استعمال هذا الحق بل النهوض بهذا الواجب ، فنجعل التصويت اجباريا كما جعلته أسبانيا عندما كانت حديثة العهد بالنظم النيابية ، والا فما فائدة نظام لا يتمتع بثقة ولا يتعلق بايمان ؟

وأنت لابد ملاحظ هذه الظاهرة في الحياة الاجتماعية ، ومشكلتنا الكبرى اليوم هى توازن الطبقات الاجتماعية ، ولا يستطيع أحدنا أن يفكر أن بالامة قاطبة نزوعا الى عدالة أتم ومساواة أحكم مما نحن فيه الان . ولكنك تنظر فترى التبلبل في وسائل ما يحقق هذا النزوع ، وقد أتلفت

الشهوات حقائق الاشياء ، فالخصومات السياسية وبالاصح الخصومات الشخصية قد أوشكت أن تعمي عن الامة الحقائق ونحن في الواقع أمام ثلاث مشاكل لكل منها حلها الواضح : مشكلة الاستغلال السياسي ، ومشكلة أثرياء الحرب ، ثم مشكلة الظلم الاجتماعي المزمنة المتأصلة ، وتلك الاخيرة هي التي يجب أن يجتمع حولها تفكيرنا المذهبي. أما الظاهرتان الاخريان فعارضتان، ومن حق أمة تحترم نفسها أن تحسمها بالعمل العادل لا بالتلطيخ المزري . فاذا كان هناك استغلال سياسي قد حدث فأمامنا قضاة ومستشارون لا زالت الامة تأمل فيهم الخير ومن حقها عليهم أن يقولوا في هذا الاستغلال رأيهم فاما تبرئة واما ادانة ، وفي كلتا الحالتين ستبرأ كرامة هذه الامة البائسة ومن الواجب أن نذكر الجميع بأن الاستغلال السياسي لا يمكن أن يكون السبب الوحيد في اثراء البعض وافتقار الآخرين فنحن الان في حرب عالمية طاحنة قد غيرت من كافة وسائل الانتاج والتجارة في جميع أنحاء العالم وفي جميع أطوار التاريخ فقد صاحبت الحروب دائما أكبر اضطرابات اجتماعية ، وآلاف من الصناع والتجار ، بل والعمال قد أثروا دون أن تكون لهم بهذا العظيم أو ذاك صلة قرابة أو نسب ونحن بعيدون عن أن ندعو الى الرفق بهؤلاء المثرين الذين امتصوا دماء الشعب ، ولكننا ندعو الى اجراءات عامة تتناول الجميع كما في البلاد المتحضرة بدلا من أن نقف عند شخص أو أشخاص بذاتهم متخذين منهم هدفا لصغائر أحقادنا ، ان من حق هذه الامة أن تحاسب جميع أثرياء الحرب عن ثرواتهم وأن يرد ما اكتسب منها بغير وجه مشروع الى خزانة الدولة . ولا يرهبنا في شيء أن ننادي بفرض ضريبة مستغرقة على رؤوس الاموال التي جمعت أثناء هذه الحرب ، وأما ما سمعناه من فرض

ضريبة على الارباح الاستثنائية فتلك فى الحق مهـزلة • الواجب هو أن ترد رؤوس الاموال ذاتها لارباحها الخارقة، ترد من الجميع ، لا من هذا الوجيه أو ذاك فحسب، وذلك أكرم على هذه الامة وأعدل فى النظر الانسانى السليم مما نغرق فيه اليوم من مهاترات • وهاتان المشكلتان بعـد عارضتان كما قلنا وما ينبغى أن تصرفانا عن المشـكلة الكبرى ، مشكلة العدالة الاجتماعية بين الطبقات ، فهذه هى الفكرة المذهبية التى لابد للامة من التعلق بهـا ، وسبيل علاجها أيضا هو التشريع واصلاح نظامنا المـالى والاخذ فيه بنظام التصاعد ، ومما يحزننا ألا تقتصر مهمتنا الحاضرة على اتلاف سياستنا القومية ، فتصرفنا عن الجهاد فى سبيل استقلال الوطن وتحريره تحريرا صحيحا الى محاربة بعضنا بعضا بـكافة السـبل ، وكل من ثارت نخوته سنة ١٩١٩ يعرف اليوم فى حزن أننا جميعـا على ضلال ، نقول أن محنتنا الحاضرة لا تقتصر على هـذا التلف القومى المحزن ، بل تمتد أيضا الى حياتنا الاجتماعية فتصرفنا عن التفكير فى مشكلتنا العميقة ، مشكلة العدالة الاجتماعية الى مشكلتى الاستغلال والاثراء العارضـتين ، وبذلك ننحرف أيضا بتفكيرنا المذهبى عن هدفنا الحقيقى ••

والامر فى حياتنا الثقافية مثله كمثل حياتنا السياسية والاجتماعية سواء بسواء فمن الناس نفر كثـير لا يزال يزج بالنعرات القومية والدينية فى مجال الثقافة ليتلف علينا حياتنا عن جهل فتسمع مقابلات عجيبة بين روحية الشرق ومادية الغرب ، كأن الغرب لا روح فيه والشرق لا مادة به • والمشكلة الحقيقية ليست مشكلة ثقـافة الشرق وثقافة الغرب ، وانما هى مشـكلة الثقافة أو الجهل • وهذه أيضا فكرة مذهبية يجب أن يستقر عندها

ضمير الامة ، حتى تستقيم لنا الحياة . هنالك ثقافة انسانية موحدة نشأت فى الشرق ، ثم انتقلت الى الغرب الذى احتضنها دون أن يستنكف من صدورها عن غيره . ثم نأتى اليوم نحن الحمقى فنحاول جدلا عميقا فى وجوب استردادها منه أو رفضها . ومن عجب أن ترانا جميعا آخذين فى هذا الاسترداد بالفعل ، ومع ذلك نجادل فى هل نحن على حق أو باطل ،ان كنا على باطل فلنتخل اذن عن جميع مظاهر الحياة المادية التى تحيطنا من جميع النواحى، فكلها غربية ، بل لنتخل عن مدارسنا وجامعاتنا ومناهج بحثنا ، ولنرجع الى « الكتاب » والحفظ عن ظهر قلب ولنستمر فى « العنقلة » ومناقشة الالفاظ كما عهدها الازهر قديما . وفى هذا المجال أيضا تعمل أمراض النفوس ومركباتها المختلفة أسوأ العمل ، فالجاهلون بلغات الغرب يرون أنفسهم محرومين من وسائل التحصيل ، واذا بالعجز يرتدى فى نفوسهم أزهى الاثواب ، فيناهضون ثقافة الغرب زاعمين أنها مخالفة لروحنا مدمرة لاصالتنا، وهم مع ذلك لا يتعففون عن أن يأخذوا بما يصل اليهم من فتاتها ..

***

لقد حان الحين لان يستقيم تفكيرنا على أساس مذهبى، يرتفع بقلوبنا عن حزازات الاشخاص ومهاترات الشوارع. لقد حان الحين لان يلقى النفر المثقف منا ثقافة حقيقية بنفسه الى المعركة فبئس مواطن يستحوذ على قلبه اليأس. بئس مواطن يغطى يأسه بتعال حقير . الوطن ملك لنا جميعا كما كان ملكا لابائنا وكما سيكون ملكا لابنائنا ، ومصائره اليوم معلقة فى الخارج وفى الداخل وأهول ما نخشاه أن ننصرف عن أهدافنا الحقيقية الى صغائر الامور ..

العقلية المصرية

لست ممن يركنون الى اليأس ، أو يدعون الى التثبيط وبودى لو نفثت فى كل قلب ايمانا بالنفس وامـــلا فى الحياة حتى أرى جميع مواطنينا كالكرات من المطاط ، كلما زدتها صدما ازدادت قفزا ، ولكنى مع ذلك عودت قرائى الصراحة فى علاج مشاكلنا ، ولقيت دائما ممـــن حظيت برأيهم تأييدا حارا صادقا • ثم انى أؤمن بأنـه لا خير فى التعامى عن الواقع ، بل لا خير فى انكاره ، لان انكاره لن يمحوه • وها أنا اليوم أعالج أخص ما نملك كأمة ، وهو العقلية المصرية ولى فى تلك العقلية رأى ثابت استخلصته من احتكاكى الطويل بعقليات الشعوب المختلفة وبخاصة الشعوب الغربية • وسأبسط هذا الرأى ثم أحاول تفسيره لنستنبط ما نستطيع من علاج • كنت أنا وزملائى من المصريين نتلقى العلم سنينا طويلة بالجامعات الاوروبية مع طلبة من كافة الاجنـــــاس ، ولاحظت أن الكثيرين منا كانوا يتفوقون على اخوانهم فى الدرس تفوقا واضحا • ثم عدت وعاد زملائى • فاذا بالقليل منا من يوفق الى اكتشاف جديد فى ميدان المعرفة ، بل الى تجديد فكرة معروفة أو تعميقها ، وعلى العكس من ذلك نسمع أن

(*) نشرت فى ١٩٤٤/١١/٦

الزميل الفرنسى ، أو ذاك الانجليزى قد اهتدى الى نظرية غير معروفة او كشف الحجاب عن مجهول فى مجال المادة أو مجال الانسان • وأنعمت النظر فى هذا التنــاقض الواضح فاستقر بنفسى أن العقلية المصرية سلبية قابلة ، بينما عقلية الغربيين ايجابية فعالة • فنحن نستطيع أن نحصل ما يلقى الينا ، ولسنا بلا ريب دون أحد فى قوة الذاكرة ولكننا لا نكاد نتخطى دور التقبل والتحصيل حتى يتبلد حمارنا ، ولقد ينجح بعضنا فى الجدل ولكن مجهوده قلما يعدو فك الافكار الاساسية كما تفك النقود الى وحدات من البرونز ، ولا يقف تأثير تلك العقلية القابلة عند ميدان المعرفة ، بل يمتد الى الحياة العملية ذاتهــا ، فتــرى الكثيرين منا حتى المثقفين ضيقى الحيلة سيئى التصرف ، قليلى الاعتماد على النفس والسير على أقدامهم • أو الاهتداء الى السبيل السوى عندما يضطرب حبل الامور وتشتد المواقف ••

هذه الظاهرة لا أظن هناك ما هو أخطر منها فى حياتنا ، ولابد من أن نلقى عليها من الضوء ما يظهر مواضع الخلل فى بنائها

لعل من اكبر الاسباب التى كيفت العقلية المصرية على النحو الذى ذكرنا تلك الحقيقة الواضحة ، وهى أنه قد يكون عندنا تعليم ، ولكن مما لا شك فيه أنه ليست لدينا ثقافة ، حتى لقد استطعنا فى احدى المقالات السابقة أن نتحدث عن أمية المتعلمين ، والتعليم شىء والثقافة شىء آخر ، وان كان من الممكن أن يصبح التعليم اذا أقيم على مناهج سليمة ونهض به أساتذة أكفاء ، وسيلة من وسائل التثقيف • التعليم كما نلاحظ عندنا تلقين للمعارف ، وأما الثقافة فتكوين للملكات ، وهذا مالا وجود له بينناتقريبا ،

وفى الغرب نستطيع أن نقول أن عملية التثقيف تبدأ مع الميلاد ، وهذا هو ما يعبر عنه المفكرون ان خلف الاوروبيين قرونا من الثقافة يتوارثونها ابنا عن أب · وهذا قول لا يخلو من تجاوز ، ومع ذلك فهو صحيح ولفهمه يلجأ بعض المفكرين الى البحث فى تأثير النشاط الثقافى على مراكزنا العصبية ، وتوارث تلك المراكز مشكلة معقدة ولكن هذا بحث نتركه لانه فى نظرنا لا يقل غموضا ومجازفة عن البحث فيما وراء الطبيعة ، وانما نقف على العكس من ذلك عند أمرين : اللغة ، وطريقة الحياة · فالطفل الاوروبى يحصل بتحصيله لغته اليومية طائفة كبيرة من المعـارف التى تملأ سوق الحياة ، وهو يحس بأثر تلك المعلومات الفعالة ، فى كل أموره ويخبر صدقها عن تجربة ، فيتمثلها تمثل الهضم ، واذا بها جزء من تكوينه العقلى وهو يسير فى حياته على طريقة لا تخلو ، مهما بلغت من البوهيمية ، من منهج وغاية · وتنظيم تلك الحياة المادية ذاته فيه ما يرفع عن كاهله الكثير من تفاصيلها حتى ليتكلف أقل الجهد فى اعداد ما يحتاجه من طعام أو كساء وليس من شك فى أنه كلما تخلصنا من تلك التفاصيل وأنزلنـاها منزلة الالية تحرر الكثير من وقتنا لنصرفه فى النشاط العقلى ، وبخاصة القراءة ، فالام فى بيتها والاب فى عمله يجد كل منهما متسعا لتغذية تفكيره ، واذا بجو المنزل تغمره الثقافة التى تنفذ الى عقل الطفل ان لم تنفذ الى خلاياه

ولقد ناقشنا باحدى الصحف مشكلة الاخلاق ، فرأينا أن التربية لن تجدى فى علاجها قدر ما يجدى اصلاح النظم التى تمكن الفرد من أن يصل الى حقه ويدفع عن نفسه العدوان بوسيلة كريمة غير الرجاء الذى تفشى فى بلادنا كالوباء ، وباستطاعتى اليوم أن أجد فى نفس هـــذا

الاصلاح علاجا للعقلية المصرية • وليس بخاف أن العلاقة متينة بين العلم والخلق ، وقديما قال احد المفكرين ان علما بلا خلق خراب للنفس ، وفى الحق ماذا يستطيع فى مجال العلم رجل لا يملك حتى الثقة بنفسه والاعتـــزاز بكرامته • وعندما تضطرب النفس وتتقاذفها الالام كيف تريدها أن تصبر على كشف مجهول او متابعة حقيقة أو استقصاء رأى •• نعم ان العلماء فى كافة بقاع الارض لا تأخذ نفوسهم شهوة المادة ، وتعلقهم الاول انما هو بجوهر الفكر الخالد ، ولكن هذا لم يمنع الهيئات الاجتماعية التى يعيشون بينها من أن توفر لهم أسباب الحياة ، وتمكنهم من وسائل البحث • أما نحن فمتى وضعنا معملا تحت تصرف عالم ، أو رزقا ضروريا فى متناول أديب • وهبنا أبدينا استعدادا لان نفعل ذلك فكيف السبيل لهـــذا العالم ، أو ذاك الاديب أن يظهر مواهبه فى بلاد بلغ فيها التفاوت فى الثراء مبلغا عض معه الفقر ملايينا من البشر الذين لا يمكن أن نعدم — لو واتتهم الفرص — أن نعثر بينهم على نفر ولو قليل ممن حباهم الله مواهب النفس

اذن فعدم تهيؤ الجو الثقافى الصحيح فى منازلنا ودور تعليمنا من جهة وفساد نظمنا الاجتماعية والاقتصادية من جهة أخرى عاملان كبيران فى تكييف العقلية المصرية • ولربما كان هذا هو السبب فى أن الكثيرين ممن يعودون من أوربا من شبابنا لا يلبثون قليلا قليلا أن يخمد ضغط الوسط ما فيهم من حماسة ويثبط ما فى قلوبهم من عزم بحيث لا نستبعد لو أن احدهم باشرحياته العملية فى أوروبا لحقق نجاحا أكبر مما يستطيعه هنا ، وان كنت لا أنكر أن نفرا غير قليل منهم لم ينزحوا الى الغرب الا بعد أن أخذوا طابعا شبه نهائى ، وكانت أمزجتهم من الصلابة

بحيث لم يستطع ملابسة الوسط الجديد والتشبع بثقافته وطرق حياته فلم تجد فيهم رحلة ولا أجدى أغتراب ..

والان كيف السبيل الى علاج تلك الظاهرة . وهنا قد يصيح بى صائح ، ولكن السبيل واضح تستطيع أن تجده في ما أسلفت من قول ، فما عليك أو علينا الا أن نصلح نظامنا ، وأن نهيء ما تريد ونريد من جو ثقافى فى منازلنا ودور علمنا ، ولكن هذا الصائح لن يلبث ان يوقعنا فى دوارة فمن لى ولكم بانجاز ذلك ، ولا يبدو الامر هينا الا فى الكتابة ؟ هذه اصلاحات لابد أن يسوق اليها رأى عام قوى وهذا الرأى لن يتكون الا باستنارة العقول . والسبيل الى تلك الاستنارة هو أن نسكت فى نفوسنا النعرات الباطلة والا نستنكف فى الاخذ عمن سبقونا فى الحضارة وألا نمل تكرار ما نأخذه عنهم ، حتى يستقر فى النفوس وينزل منها منزلة الايمان ، فعندئذ يصبح الفكر عملا ، واذا بعقليتنا السلبية القابلة تستحيل ايجابية فعالة . فاليوم الذى نؤمن فيه أن لكل فرد حقا يجب أن يناله بغير رجاء ، فان لم ينله حكم له به قضاء عادل ، واليوم الذى نؤمن فيه بأن لكل فرد أن يستغل ملكاته ، وأن يمكن من وسائل ذلك الاستغلال ، وأن جهده لابد أن يقوته على نحو جدير بمستوى الانسانية ، واليوم الذى نؤمن فيه بأن للفكر الانسانى كرامة لا تدانيها كرامة المال حتى تقر الهيئة الاجتماعية لرجاله بما يستحقون من وجاهة وتقدير هو اليوم الذى سيعتز فيه المصرى بألا تكون عقليته سلبية قابلة ، بل ايجابية فعالة

قــادة الفــكر

منذ القدم والمستنيرون من الناس يقتتلون حول قادة الفكر ، فمنهم من يدعونهم الى الكفاح مع مواطنيهم عندما يدعو داعى الوطـــن ، ومنهم من يود لو نأى بهم عن كل ضجة فانية ليتوفروا على خلق الافكار الباقية ،وصياغة المشاعر التى تتغذى بها الاجيال فى كل زمان ومكان. وتلك قضية تستحق النظر . فمما لاشك فيه ان الكاتب ـ وبخاصة اذا كان انفعالى الطبع ـ لا يملك فى بعض الاحيان ان يدفع احساسه بالمسئولية ، فكلما رأى فسادا من حوله أو أحس ظلما يقع على الناس أو جراحا تصيب وطنه ثارت نفسه ، وكأن سكوته تأمين على ما يرى ان لم يكن مشاركة فيه . ولقد يتساءل الناس من حوله عن سر حماستـــه لهذه الفكرة أو تلك دون أن يحظوا برد يقنع العاديين منهم لان الرد الوحيد هو طبيعة الكاتب وحرارة قلبه

وموضع التدبر هو ان نتساءل عما يستطيع الكاتب عندئذ أن يكتب دون أن يصيب كتابته الفناء ،وليس أشق على نفس الكاتب من أن يحس بأن جهده سيتبدد أنفاسا أنفاسا ، وان كل ما يخط لن يخلف أثرا لانه وليد ملابسات يومية لن تلبث أن تتغير فتفقد كتابته قيمتها . ولكن هذا

(*) نشرت فى ١٩٤٤/١١/٢٠

قول ليس صحيحا على الاطلاق فالى اليوم لازلت اقـرا خطب ديموستين الزعيم الاغريقى الخالد يوم كان يكافح فيليب المقدونى ويدعو مواطنيه الى مكافحته دون ان يثنيه عن ذلك حتى اليقين بأنه ومواطنيه سـائرون الى الهزيمة مؤمنا بأن الجهاد غاية نبيلة فى ذاتها ، وانه من الخير أن تموت وسلاحك بيـدك عن أن تنفق من فرق الجبان . ولا زلت أقرأ لروبسبير وهو يناهض ما صاحب الثورة الفرنسية الكبيرة من انحلال فى الخلق وتقلب فى العقائد وتيقظ فى الشهوات واستحصاد للضغائن العمياء. ويدعو الى أن يكون الطموح عملا على استحقاق المجد وتقدير الشعب ، أقول اننى لازلت أقرأ الخطيب الاغريقى أو للخطيب الفرنسى فلا استطيع أن اقول مع القائلين ان الكتابات التى تولدها ظروف خاصة سيصيبها الفنـاء . فكل كتابة تستطيع أن تخلد بما تحمله من عناصر انسانية ثابتة ، والانسان هو الانسان فى كافة عصوره . وسيظل أبد السنين يهتز لمعانى الكرم النفسى

هذه اذن قضية الحق فيها واضح ، ولكن ثمة قضية اخرى اشق منها علاجا وهى : أيهما أجـدى على قادة الفكر ، أن يتوفروا على فهم الانسان وشـق الحجب عن أسراره النفسية ام ينصرفوا الى توجيهه وقيادته . وهنا قد يبدو التعارض واضحا ، ولكنه فى الحق تعـارض سطحى . وكبار الكتاب يجمعون دائما بين الامرين دون أن يقصدوا الى أيهما . ففهمك للانسان وتبصيرك اياه بحقائقه الغامضة فيه خير توجيه له . وانه لمن الحمق أن يظن أشباه الاميين أن باستطاعتهم أن يخلقوا أمـة أو يوجهوا رأيا توجيها ثابتا بالالفاظ الخطابية الرنانة او بالجمل المرصعة الجوفاء ، فهذه حماقات موقوته التأثير واما الاثر الباقى ما تستمده من حقائق النفس لترده اليها،

ولكم من مرة يكون من واجبك اذا أردت ان ترفع قلبا أو تحث عزما أن تسلم له بادىء الامر بحقه فى أن يبتئس أو يتوانى عزمه . ولكم من مرة يكون فى هذا التسليم ذاته أكبر ناهض بالنفوس ، واما المكابرة واما التنكر لحقائق النفس البشرية ومحاولة أخذها بالضجيج فذلك تفكير عقيم ..

واذن فمشكلة الفهم أو التوجيه هى الاخرى مخلولة فى أعماقها ولعل فى تحديد العلاقة بين رجال الفكر وبين رجال السياسة ثم بين رجال الفكر وبين بيئاتهم مشكلات أشق من السابقين

بعض رجال السياسة ليسوا من قادة الفكر ومنهم من لا يكاد يقرأ كتابا ، وتلك لاريب آفة شديدة الاثر على الحياة العامة ، وقديما رأى افلاطون ان يقود الفلاسفة المدينة . وقادة الفكر بدورهم ليسوا جميعا ممن يطيقون مجابهة الجماهير وخوض المعارك السياسية ومن هنا تنشأ طائفة من السياسيين لا علاقة لها بالفكر وطائفة من المفكرين لا صلة لها بالسياسة ، ومن عجيب الامر ان ترى فى التاريخ مفكرين سياسيين جاء تفكيرهم تقديريا بحتا بحيث لم يدعوا الى عمل ولا نادوا بتغيير ، ولعل من أوضح الامثلة على ذلك كارل ماركس الذى يتخذه الاشتراكيون اليوم زعيما لهم ، فقد كان الرجل مؤرخا عالما لا سياسيا عاملا ، وهو لم يناد بتحقيق مذهب وانما درس الماضى وتنبأ بأن تصيب العالم فى يوم من الايام أزمة اقتصادية تقضى طبيعتها ألا يكون لها حل غير الاشتراكية ، ومع ذلك كم من السياسيين استطاعوا أن يتخذوا من مبادئه التقديرية دعوة الى الثورة ومبادىء للعمل الايجابى — ولقد يتفق أحيانا أن يقول مفكر بنظرية من النظريات فى بلد ما ، ثم لا تطبق الا فى بلد آخر ، ولعل أوضح مثل لذلك

مونتسكيو الفرنسي ونظريته فى فصل السلطات ، ففرنسا لم تطبق هذه النظرية على نحو دقيق وانما طبقتها أمريكا • والامر فى العلاقة بين رجال الفكر ورجال السياسة عندئذ شديد الشبه بالعلاقة بين رجال العلم ورجال الصناعة • فالعلماء يكشفون عن قوانين المادة التى تمكن من تسخيرها للانسان ويصوغون قوانينهم معادلات جبرية ، ويأتى رجال الصناعة فيستغلون تلك القوانين والمعادلات فى الانتـــاج الاقتصادى والاثراء به ، ولكن الوضع بين العلماء والصناع قد يكون مقبولا على نحو ما هو الان ، بينما هو بين المفكرين والسياسيين محفوف بأشد المخاطر على ســــلامة الامم واستقامة الحكم فيها ، ولقد تعقدت أمور الحياة العامة فى العصر الحديث بحيث لم يعد كافيا لقيادة الامم أن تكون وطنيا مخلصا أو ذا وجاهة اجتماعية ، بل لا بد لك من ثقافة عامة شاملة حتى تعالج الامور على نحو ســـديد

وعندما يصبح السياسيون من قادة الفكر ستتحدد العلاقة بينهم وبين بيئاتهم فالرجل المفكر فى وسطه مهمتان : أولاهما أن يبصر قومه بحالتهم الحقيقية ، حتى يعوا ما هم فيه من شقاء وتخلف ، وذوو النظر مجمعون على أن البؤس ذاته لا يحرك الشعوب ، وانما يحركها أن تفطن الى ما هى فيه من بؤس • ولعل فى حالة الفلاح المصرى أوضح دليل على ما نقول ، ومهمته الثانية هى أن يسبق الامم الى آمالهـــا الغامضة ، ومن هنا ترى أغلبية الكتاب المفكرين من الداعين الى الافكار المتقدمة ، فهم رسل الرجاء • وهذا هو السر فى أنهم يعيشون دائما فى كفـــاح مع بيئاتهم وكثير منهم لا يستجاب لندائه الا بعد موته بسنين ••

شعب مصر

لاقيت هذا الاسبوع ثلاثة من مفكرينا : احدهم وجها لوجه ، وبيدى مقال أستعرض فيه ما نشكوه من مظاهر الانهيار الاخلاقى ، والتمس علاجا لهذا الانهيار فى اصلاح نظمنا السياسية والاجتماعية ، علما منى بأن التربيـة وبث مبادىء الاخلاق فى النفوس لا تكفى وحدها لتقويم النقص . ولقد أخذ محدثى على المقال مافيه من قسوة، وعنده انه من الخطر أن نجسم للشعب مواضع ضعفه ؛ لان ذلك التجسيم قد يزيده ضعفا ، وانه لأجـدى على هذه الامة أن نحاول رد الثقة اليها ، حتى ولو لم تكن تلك الثقة على أساس سليم ، واما فضح العيـوب ، فذلك مالا ينبغى . واضاف ، وهو من ذوى الامر ، انه كثيرا ما يتجاهل مواضع الضعف الاخلاقى فيمن يعملون معه ، ويردهم الى الاخلاق ، كأنه يستمدها من نفوسهم ذاتها، فاذا نقل اليه احدهم قيلة سوء ، فسرها على انها قيلة خير ، محاولا حمله على أن يكون الى الخير قصده،وعنده أن ذلك أجدى فى معالجة النفوس من هتك ضعفهـا وأخذها بالقسوة

ساقنى هذا الحديث الى النظر فى الحكم على الشعب

(*) نشرت فى ١٩٤٤/١٢/٤

المصرى ووجوب مواجهته بالحقائق أو سترها عنه، واتفق أن قرأت فى هذا الاسبوع كتابين لمؤرخين من رجالنا ، فلاقيتهما على صفحات ماكتبا ، ولمست عند كل منهما اتجاها فى الحكم على الشعب المصرى يغاير اتجاه الآخر، فأما أولهما ، قد استلفت نظرى حكمه فى بعض مواقفــه التاريخية ، حكما لا يخلو من صرامة ، حتى لقد وقع فى نفسى موقع السـيف ، وخشيت أن يكون صـحيحا ، ولاضرب لذلك مثلين : الاول تفسيره لاستقرار الحكم وازدهار المدنية أيام الظاهر بيبرس وغيره من المماليك ، برغم ما كان فى حكمهم من شدة وعسف بقوله تفسـيرا لخضوع المصريين وعدم ثورتهم للحرية : « ان ثمـن الحرية ــ كما يقول الانجليز ــ هو الكدح والدأب والمراقبة ولما كانوا (أى المصريون) يكرهون النصب اكثر مما يحبون الحرية ، فقد عاشوا يستبد بامرهم كل ذى همة وعزيمة » ، ومن قوله : « انهم يكرهون النصب اكثر مما يحبون الحرية » ما يملأ النفس رهبة ، فتود لو لم يكن حقيقة . وفى موضع آخر يفسر نفس الكاتب سـخط الشعب المصرى على الفرنسيين وثورتهم ضدهم أيام الحملة الفرنسية ، بمجرد حرصهم على ما ألفوه .. فقــد رأوهم يقلقون عاداتهم ويزعزعون أساليب حياتهم الموروثة، فيكرهونهم على نوع من الحياة لم يألفوه ، فى مقاومـة الامراض وتنظيف الشوارع ، وما الى ذلك ، فثاروا بهم، وهذه أيضا قسوة فى الحكم ، كأن الكاتب لم يشـأ ان ينسب اليهم ما نستشعره نحن اليوم من عاطفة وطنية ، أو تعلق بحرية وذود عن استقلال . وهذا منهج قـد تمليه الروح العلمية التى تلزم المؤرخ بأن يحكم بعقليـة من يكتب عنهم ، لا بعقليته هو ، ولكننى مـع ذلك اخشى أن يكون مؤرخنا قد أسرف فى القسوة وأساء الى نفسه،

هل من الحكمة ، بل هل من العدل ، أن نحكم على الشعب المصرى أحكاما كهذه ؟ ، ونحن فى مجال التاريخ نحرص على الحقيقة أكبر حرص، ولكن ما هى الحقيقة التاريخية ؟ فى كل تاريخ نوعان من الحقائق : وقائع، وتفسير لتلك الوقائع ، فأما الاولى ، فمن الواجب الوصول اليها بجمع الوثائق ونقدها ، على العكس من ذلك تفسير تلك الوقائع، فهذا مالا تحمله الوثائق ، وانما يصل اليه المؤرخ باستنتاجه الخاص ، وهنا يكون تفاوت المؤرخين وتدخل شخصياتهم بحيث ان نناقش احكامهم دون أن يكون فى مناقشتنا خروج على المنهج العلمى السليم

وباستطاعتنا أن نناقش المؤرخ السابق بآراء الكاتب الآخر الذى لاقيناه يتحدث عن زعيم مصرى تركزت فيه يوما نزعات شعبنا ، وهو السيد عمر مكرم . فمؤرخنا شديد الحماسة لتطلع هذا الشعب الى الحرية منذ أوائل القرن الثامن عشر ، وهو يرى ظهور السيد عمر مكرم كان استمرارا وخاتمة لمحاولات عديدة قام بها زعماء الشعب المصرى الصميم للمساهمة فى الحكم ، وحمل الباب العالى على تعيين من يرتضونه واليا على مصر وعنده أن سنة ١٨٠٧ هى التى وضعت حدا لتلك النزعة الشعبية، وذلك لان محمد على ، وان كان قد وصل الى الحكم بموجة شعبية قوية قادها السيد عمر مكرم ، الا أنه لسوء الحظ رفض عرض السيد عمر مكرم فى تلك السنة مساهمته هو والشعب المصرى فى عونه على رد الانجليز عن رشيد . والرأى عند مؤرخنا أن هذا الرفض قد أثر فى تربية الشعب السياسية ، وباعد بينه وبين الاهتمام بأمور الدولة والمشاركة فيها نحوا من خمسة وسبعين عاما ،

أى من سنة ١٨٠٧ الى ثورة عرابى ، وهنا أيضا لا ندرى الى أى حد قد بلغ عطف المؤلف على الشعب المصرى ، والى أى مدى قادته الرغبة فى تمجيده ؟!

ويقف المرء حائرا ... اى وجهة يوليها فى حديثه عن هذا الشعب الذى نبغى كلنا خيره ؟ هل نمس فى رفق عيوبه ، ونواريها عنه الا بمقدار ، ليظل محتفظا بثقتـه بنفسه ؟ أم نشق عنها الحجب ، ونلقى الضوء كاملا لعله يثيب ؟ واذا عالجنا ماضيه ، هل نقسو فى الحكم ، أم نلين؟ وهل نحابيه أم نزجره ؟

واذا لم يكن بد من ان نفصل فى هـذه الاتجاهات العويصة ، وجب - فيما أظن - ان نفرق بين الحاضر والماضى ، فأما الحاضر ، فالحكمة فى أن نحدو فيه البصر حتى لا يأخذنا غرور مميت - وباستطاعتنا ان نتجنب الخطر بالا نقف عند تصوير العيوب ، بل نلتمس لهـا العلاج . وليس من شك فى انك لن تستطيع حمل النفوس على قبول جديد وتغيير قديم ما لم تبصرهم بما فى هـذا القديم من عيب . والامم لا يمكن أن ترقى مالم يشتد بها النقـد ، وفيم الرغبة فى التغيير اذا لم يؤمن الناس بضرورته ؟

وأما عن الماضى فلعلنا نكون اقرب الى الروح العلمية الصحيحة كلما كانت نظرتنا أكثر عمقا وأكبر اتساعا. وآفة الاحكام فى تفسير الظواهر كثيرا ما تأتى من التعميم، فالمصريون مثلا اذا كانوا يكرهون النصب ويؤثرون السلامة أكثر مما يحبون الحرية ، فان ذلك لم يمنعهم عنـدما يشتد بهم الاستبداد من أن يغامروا بسلامتهم مؤثرين الحرية على كراهة النصب . وفى حركاتهم الثورية أيام الحملة الفرنسية وعرابى ودنشواى وسنة ١٩١٩ أدلة

على صدق ذلك . وهم اذا كانوا بفطرتهم محافظين يكرهون الخروج على ما ألفوه‌فيثورون ، الا أنه قد لا يخلو من ظلم أن نرد حركتهم كلها الى هذا الباعث ، فهم اذا كانوا لم يتحركوا لفكرة الاستقلال الوطنى بحكم تبعيتهم المتصلة للدولة العثمانية وعدم نشوءفكرة الانفصال عندهم اذ ذاك ، الا أن الشعور الدينى مثلا كان لاريب من‌الحوافز التى يجب أن تضاف الى نزوعهم الى المحافظة على ما ألفوه . وها هو ذا الجبرتى نفسه يحمد الله‌ان سخر طائفة من النصارى(الانجليز)لطرد طائفة أخرى(الفرنسيين) من أرض الوطن . وهل من شك فى أن الدافع الدينى كان من محركات سليمان الحلبى مثلا فى قتله كليبر .ثم هل من الحق أو من الحكمة ان نجعل من الشعور الوطنى عاطفة تنهض بذاتها منفصلةعن‌مصالح‌الافرادالذين‌يكونون الوطن ؟ ونحن ممن يعتقدون أن الوطنية ليست شعورا بذاته ، وانما هى مجموعة من المشاعر يستند الكثير منها الى مصالح الناس ووسائل حياتهم ، ولهذا لن نمل تكرار القول بأن الوطنية الحقة لن تملأ نفوس المواطنين الا اذا أحس كل منهم انه عزيز فى وطنه ، ميسور الرزق فى كرامة ، متمتع بحياة تليق بالانسان . وانما يظهر انفصال الشعور الوطنى عن غيره من المشاعر والمصالح عندما يحدث التعارض ، وهنا يكون للمؤرخ الحق فى أن يقسو فى أحكامه أو يلين ..

ونجمل الرأى بأن الخير هو دائما فى اتساع النظرة سواء نظرنا فى الحاضر أو فى الماضى ، فاى أمة لايخلو ماضيها أو حاضرها من مواضع ضعف ومواضع قوة ؟ ومن الواجب ابراز الجميع ليكون فى اظهار الضعف حافز للكمال ، وفى اظهار القوة داع للثقة

الثقافة والأخلاق

هذه مشكلة ما زالت تلح على عقلى منذ أخذت أفكر لنفسى ، ولقد كنت ولا أزال احس ان حلها ضرورة من ضرورات الحياة ، لانها تفسر الكثير من مواقفنا ازاء الناس فالحديث فيها ليس مجرد رياضة عقلية نلهو بها ونلهى القارىء ــ وهذا نوع من الحديث تنفر عنه نفسى بطبيعتها وما أرى فيه نفعا لاحد ــ فمهمة الكاتب لا ينبغى أن تكون الافحام بالجدل ، بل الاقتناع بالقلب ، ولن تصل الى اقناع الا اذا اكتفيت بأن تفرض تجاربك النفسيه داعيا الغير الى مثلها

أول ما اثار تلك المشكلة فى نفسى هو ما قرأته فى صدر الشباب « لافلاطون » ، اذ يعرض نظرية سقراط فى اسس الاخلاق ، ومن المعلوم أن هذا الفيلسوف الجليل كان يرى أن المعرفة هى عماد الخلق وقد زعم انك لا تستطيع أن ترتكب الشر اذا ادركت انه شر ، وانك لابد آت الخير اذا تحققته بنظرك . ولقد ابهج خيالى هذا الرأى ، ولكننى كنت أنظر فأرى نفسى وارى غيرى يدرك الخير والشر ، ثم لا نملك انفسنا من الاندفاع فى أعقاب الهوى فيساورنى الشك . ووقع بين يدى يوما قول فيلسوف

(*) نشرت فى ١٨/١٢/١٩٤٤

فرنسى معاصر هو بول جانيبه يقول فيه : « ان الانسان بطبيعته يفضل الخير المحسوس على الخير المدرك » • ولما كانت شهوات النفس أدنى الى الحس منها الى الادراك المجرد فقد كان من الطبيعى ان تستأثر بالنفس ما دام هدفنا الاخير من الحياة هو التماس السعادة بتحقيق اكبر قسط مستطاع من رغباتنا ، وليس من شك فى أننا نحس أن خيرنا فى هذا التحقيق • وذلك رأى يبلبل الفكر ، ولكنك لن تعدم السبيل لرده اذا تعمقت الامور ، فانه وان يكن من الصحيح اننا نفضل الخير المحسوس على الخير المدرك ، الا اننا لن نعجز عن تغليب الخير الاخلاقى اذا انزلناه هو الآخر منزلة الخير المحس • وذلك بألا نكتفى بتحقيقه بالنظر المجرد بل نتعمق به الى مجال الاحساس فندرك بقلوبنا ما فيه من جمال • وجماله تلحظه فى صفات ثلاث يورثها النفس وهى : الحرية والقوة والمرح • فأما الحرية ، فأى نشوة يستشعرها الفرد عندما يحس أنه لم يعد عبدا لشهواته ، وأما القوة ، فهل نحن بحاجة الى أن نبصر القارىء بعظمة النفس البشرية عندما تنطلق بقوتها كاملة لا يحدها نفع حقير تحرص عليه ، أو رغبة وضيعة تبغى تحقيقها ؟ وعندما تحس بنفسك حرة قوية أى مرح سيأخذ بالروح عندئذ ؟ ثم هل هناك ما ينشط ملكات الخلق فى الفرد مثلما ينشطها المرح الروحى ؟ واى سعادة فى الحياة تعدل سعادة الخلق ؟

هكذا نستطيع أن نجد حلا للجزئية التى عرضنا لها ، ولكن المشكلة لا تزال قائمة فى عمومها • ولقد لاحظ الكاتب الفرنسى « ديهامل » أن من الكتاب والفنانين من وهبوا ملكات ساحرة دون أن يمنعهم ذلك من انحلال الاخلاق • ولقد قسا بهم الرجل فشبههم بالعاهرات يلهو

الناس بأجسامهن ثم لا يمنعهم ذلك من احتقـــارهن ٠ ولابد لتفسير هذه الظاهرة من أن تفرق بين ثقافة النفس وملكة الخلق ، وليس من الضرورى للاديب ، أو الفنان الخالق ، أن يكون رجلا مثقفا ، بل من الناس من يرى أن ثقل الثقافة قد يعوق الخلق ، وباستطاعتك ان تعرض اسماء الكثيرين من كبار الكتاب أمثال : شكسبير وموليير وروسو وديكنز وبلزاك وفاليرى ، ممن لم يتلقوا تعليما جامعيا منظما ، وانما هم رجال وهبوا القدرة على الخلق ثم جدوا فحصلوا بقرائتهم مواد أولية يعملون فيها ملكاتهم وليس هذا هو المقصود بالثقافة ، وانما الثقـــافة بأدق معانيها هى تكوين نظام عقلى وغرس روح علميــــة فى النفس ، وهذا النظام وتلك الروح لا ينموان بالتحصيل أو بجمع المواد الاولية بل هما راسبان يتخلفان بالنفس بعد أن ننسى ما حصلنا وما جمعنا ٠ وعلى هذا النحو نستطيع أن نحل هذا الجزء الاخر من المشكلة ، فنميل الى الاعتقاد بأن ثقافة النفس خليقة بأن تسدد الخلق

ولكن كيف تسدد الثقافة الخلق ؟ وللجواب على ذلك يجب ان نميز بين المعرفة والثقافة : فالمعرفة التى تنحصر فى تحصيل المعلومات لا نظن أن لها تأثيرا ما على الاخلاق، والا فأى أثر تريد أن يكون لعلم بقانون الجـــاذبية وبأن نابليون قد انتصر فى موقعة اوسترلتز أو ما شابه ذلك على ســـلوكك الخـــلقى ٠ وعلى العـكس من ذلـك الثقـــافة بالمعنى الذى حـــددناه ، فاذا وصـــلت بفضلها الى نظام عقلى وروح علمية ، نمت بنفسك قدرة على تمييز الحقيقة ، ثم محبتها ، وعندئذ ستحـــس بالحرية الروحية وقوة النفس ، ومرح العقل ، التى ركزنا فيها جمال الخير ٠ ولى على هذا شاهد فى أستاذ تلقيت

عنه العلم هو ، المرحوم الاستاذ أحمد أمين ، وكان زجل دؤوبا على القراءة واطالة التفكير فيما يقرأ حتى لاحسبه لطول ما قرأ وفكر قد وصل الى ما وصفت من نظام عقلى وروح علمية ، وأكبر ظنى ان هذا النظام وتلك الروح قد أصبحا لديه أساس سماحته الاخلاقية ، وكان من قلائل الناس الذين يسلمون لكل فرد بما ينبغى أن يكون له من كبرياء ، دون أن يلقى هذا الكبرياء على نفوسهم أى شبح من ظلال . أى جمال تحس فى النفس عندما تلوح لك خالية من عتمة الحسد ؟ قديما قال المفكرون : « ان قليلا من العلم يبعد بنا عن الله ولكن كثيرة يعود بنا اليه »

ونترك العلاقة بين الثقافة والاخلاق فى حياة الفرد لنواجهها فى حياة الامة ، وهنا تبدو لنا ظاهرة كبيرة لابد من تفسيرها وهى ما نلاحظه فى التاريخ من أن جميع الامم قد انتهى بها الامر عندما اتسعت ثقافتها النظامية الى الانحلال فالفناء ، وهذا ما تجده عند اليونان والرومان والعرب على السواء فما السر فى ذلك ؟ يخيل الى اننا نجد الجواب فى أمرين : أولهما : ان الامم لا تحيا بالثقافة النظرية فحسب ، وانما تحيا أيضا بتقاليدها . وثانيهما : ان للثقافة النظرية نوعين من النشاط : نشاط هدم ونشاط بناء . فعندما يسبق التفكير الفردى التقاليد ، ويأخذ فى تناولها بالبحث ومناقشة الاسس ، لابد من أن يقوضها ، لما هو معروف من أن كثيرا من التقاليد لا تقوم على أسس نظرية قوية بل تستند فى الغالب الى مواضعات اجتماعية خلفتها عصور موغلة فى الظلام ، واذا كان العقل قادرا على الهدم فهو أقل قدرة على البناء ، وبخاصة بناء التقاليد ، وتلك لا يكفى فى تدعيمها النظر المحمود بل لابد

من أن تطرد بها الحيـــاة حتى تنزل من النـــاس منزلة العادات الآلية ، وهذا أمر يحتاج الى زمن طويل ، وهكذا نفسر انحلال الامة : عقل يهدم ثم لا يستطيع لساعته أن يقيم بناء الانقاض

وإذا كان العقل يقوض من دعائم الامم، فان ذلك لاينبغى أن يصرفنا عن تثقيفه ، فهو ليس منبع الشر وانما منبعــه انه لم يثقف عند كافة افراد الامم المنحلة ، بل عند نفر قليل منها هم الذين قوضوا التقاليد . والتقاليد فى الحق ليست من ضرورات الحياة الاجتماعية الا بحكم أنها تحل عند غير المثقفين محل النظام العقلى والروح العلميـــة اللذين أشرنا اليهما ، وعندما تستطيع أمة من الامم ان تدعى أن كل فرد من أفرادها يملك ذلك النظام وتلك الروح فلن يرهبها عندئذ أن تضيع تقاليدها

وهكذا نستطيع ان نخلص الى أن الثقافة الحقيقيـــة دعامة قوية من دعائم الاخلاق فى حياة الافراد وحيـــاة الامم على السواء ، وانما تأتى الكوارث عندما تتخبط فى فهم معنى الثقافة ومدى انتشارها بين الافـــراد الذين يكونون أمة واحدة

الثقافة ضوء ولابد للضوء ان يبدد الظلمات.

دراسة اللغة العربية وآدابها

لا أستطيع أن أصور للقارىء مبلغ دهشتى عنـــدما وصلت الى باريس وسألت فى السربون عن ليســـانس الادب الفرنسى فأخبرت أن هذا شىء لا وجود له . فأنت لا تستطيع أن تحصل من الجامعات الفرنسية على ليسانس فى آدابهم وانما هناك شىء اسمه الليسانس الكلاسيكى ، وهو يتكون من أربع شهادات عليا كل منها منفصـلة عن الاخرى تمام الانفصال . ولك أن تبدأ بالتقدم لأيها شئت وفى أى سنة تريد بعد تمضيتك للسنة الاولى بالجامعة . وهذه الشهادات هى : شهادة اللغة اليونانيـــة القديمة وآدابها ، وشهادة اللغة اللاتينية وآدابها ، وشهادة اللغة الفرنسية وآدابها ، وأخيرا شهادة فقه هذه اللغـــات النحوى . واذن فلا يستطيع أن ينال الليسانس، أى اجازة التدريس فى الادب الا من يعـرف اللغتـــين اليونانيـــة واللاتينية وفقههما اللغوى ، وذلك الى جوار اللغـــــة الفرنسية وأدبهـــا وفقههـــا . وفى الجامعـــة تلقى الدروس والمحاضرات التى تعد لكل من هذه الشـــهادات ولك أن تحضر منها ما تريد ، وتتقـــدم الى الامتحـــان عندما تحس أنك وصلت الى المستوى وهو مســـــتوى

(*) نشرت فى ١٩٤٥/١/١

رفيــع جدا لا تصل اليـــه هونا ، حتى أن قليـــلا جدا من الاجانب من يســـتطيع أن يجازف فينافس الفرنسيين فيهذا الميدان العويص . وذلك لان الفرنسيين لا يتقدمون اليه الا بعد اعداد طويل بمدارسهم الثانوية حيث يدرسون تلك اللغات جميعا دراسة متينة مفصلة . وكاتب هذا المقال يستطيع أن يتحدث عن يقين عن جدية هذه الدراسات وقد تقلمت فيها أظفاره . ولقد يدهش القارىء عندما نخبره أن الامتحان فى شـــهادة الاداب الفرنســية شيء بالغ البســاطة فى صورته بالغ المشقة فى جوهرة . فالامتحان التحريرى عبارة عن سؤال واحد تعالجه فى أربع ساعات ، فاذا نجحت تقدمت الى الامتحان الشفوى أمام ثلاث لجان : اثنتان منهـــا لقراءة وشرح نصين أحدهما قديم والاخر حديث ، وأمام اللجنـــة الثالثة تسأل فى مسألة من نظريات الادب أو مدارســه أو كتابه . وهم لا يتطلبون منك فى التحـــريرى أن تدل على تحصيل فحسب ، بل لابد أن تثبت الى جانب ذلك مقدرة حقيقية على النقد الشخصى والفهم العميق . ثم لابد فوق كل شيء من أن تملك هبة الاسلوب وجمـــاله ، وذلك لايمانهم أنه لابد أن تـــكون الى حـــد ما اديبـــا لتصلح مدرسا للاداب ، وعندهم أن الادب من المجالات التى لا يغنى فيها شيء عن مواهب النفس

غادرت مصر بعد أن درست الادب العربى بجامعتهـــا وعدت الى مصر مدرسا للأدب العربى بجامعتيها ، ولقد كنت منذ عودتى شديد التبرم بمناهجنا وطرق فهمنـــا لآدابنا القومية . ولقـــد جاهدت فى سبيل اصـــلاحها ما استطعت حتى تركت الجامعة ، ولكن تركى لهـــا لن يمنعنى أن أواصـــل الجهاد فى خارجها . وذلك لايمانى بأن دراســـة الادب هى المدرســة التى يتخرج منها

قادة الرأى فى البلاد . فهى مدرسة الثقافة العامة ومدرسة فن الكتابة ..

وما أريد أن تعترض سبيلنا نزعات مغرضة فنحارب بتعصب لمناهج الغرب التى تكونا بين أحضانها . ولى أمل كبير فى أن يولينى القارىء الثقة حيث أننى قد بلوت مناهجنا ومناهجهم فى نفسى وأطلت فيها التفكير بعد أن استطعت أن أستقل بالحكم ، ومن واجبنا أن نأخذ الخير حيث نجده

وفى دراستنا للغة العربية وآدابها عيبان كبيران ، يشق على من لم يدرس اللغات والاداب الاخرى أن يدركهما أو يجد لهما علاجا . ولا بد اذا أريد القضاء عليهما من اعداد جيل جديد من الذين تثقفوا بأوربا للنهوض بتلك المهمة الشاقة ، مهمة تدريس اللغة العربية وآدابها ، وبغير ذلك لن تكون أية محاولة غير ضجة عقيمة ، وهذا رأى يؤمن به من كبار أساتذتنا المصريين من استطاع منهم لرحابة عقله وتخلصه من الهوى الشخصى أن يدرك الحقائق فى شجاعة ونبل

أما العيب الاول فهو فهم معنى الادب : فالادب مقصور عندنا على الشعر والنثر الفنى عند العرب . ومن الملاحظ أن الشعر قد غلبت عليه ابتداء من القرن الثالث الهجرى روح المحاكاة حتى أن التجديد فيه لم يعد الا بمقدار . وأما النثر فانك اذا قصرته على الفنى منه لم تخرج الا بمحصول ضئيل : خطب ورسائل ومقامات وتوقيعات وأمثال . ولقد كان ظهور النثر متأخرا ، وكان عمر الجيد منه وهو النثر المرسل الخالى من الصنعة المتكلفة قصيرا اذ لم يلبث أن طغى البديع ابتداء من القرن الرابع فجرد الكتابة من صدق الاحساس وجوهر الفكر . والاحساس والفكر هما المادة التى اذا خلت منها

كتابة فقدت الكثير من قيمتها . ويا ليت الامر قد وقف عند هذا الحد ، فمعنى الادب حتى على النحو الضيق الذى ذكرنا قد تغير فى عصرنا الحاضر ، وذلك لان العرب لم يعرفوا فى الحقيقة غير الشعر الغنائى والنثر القصير الباع ، وأما الادب المسرحى وأدب القصة فذلك مالا نستطيع أن نقول على نحو جدى انهم قد عرفوه . فالبون شاسع بين أنواع الحوار التى خلفوها من أمثال حوار وفود العرب عند كسرى وغيرها وبين المسرحية بالمعنى الحديث . وكذلك الامر فى البون بين أيام العرب وماشابهها من قصص وبين القصة بالمعنى المعروف اليوم . وها نحن منذ اتصالنا بالغرب أخذنا نكتب القصص والمسرحيات ، وهذا يضعنا فى موضع فريد بين الامم ، فالجامعات فى أوربا لا تتناول عادة بالدراسة الاحياء من الكتاب . وفى فرنسا كلها لا يدرس الادب المعاصر فيما أعلم ، ولا تعطى عن دراسته درجة علمية الا فى جامعة واحدة هى جامعة استراسبورج ، وأما السربون فتقف مناهجها عند أواخر القرن التاسع عشر . ولو أننا فى مصر حذونا حذوهم كما نفعل الآن لكان موقفنا عجيبا • فسيخرج الطالب وهو لا يعرف عن أدب القصة وأدب المسرحية ، وأصولهما ونقدهما شيئا . ومعنى ذلك هو ان الجامعة لن تساعد على خلق بيئة أدبية ورأى عام أدبى ، ينمو فيهما أدبنا الحديث ، ويتجه وجهة جدية تساير تيارات الادب العالمى ، وتدخلنا فى ثناياه . وأمعن من ذلك فى الدلالة ما نلاحظه من أن الشعر الغنائى ، بل وكافة أنواع الشعر حتى المسرحى منه ، آخذ فى التقهقر أمام النثر فى كافة بقاع العالم حتى لاذكر انه لم يعد فى فرنسا كلها غير مجلة واحدة متخصصة بالشعر هى مجلة « أجدرازيل «yggdrasill» وهى مجلة شهرية • وعلى العكس من ذلك النثر ،

فقد احتل موضع الصدارة . ومن بين فنون النثر كلها أصبح للقصة بأنواعها المكان الاول . ومع ذلك فجامعتنا لا تزال عنايتها بالشعر فوق عنايتها بالنثر ، وهذا أمر يفسره ما ذكرنا من قصرها لمعنى النثر على الفنى منه . وباستطاعة القارىء أن يتناول أى كتاب فى تاريخ أى أدب أجنبى كالادب الفرنسى أو الانجليزى أو الالمانى ، وأن يقلب فهرسه ليجد فصولا ممتعة عن التاريخ والمؤرخين والفلسفة والفلاسفة ، وعن كتاب الاخلاق والاجتماع والباحثين فى فلسفة العلوم . ونحن لدينا أمثال هؤلاء : لدينا المؤرخون والفلاسفة والمتصوفة وعلماء الكلام ، وفقهاء التشريع ، ورجال الاخلاق والاجتماع . فلماذا لا نوسع من معنى الادب كما يفعل الغربيون فندخل دراسة هؤلاء الكتاب جميعا فى مناهجنا وندرسهم بروح العلم الحديثة ، وننقد مواضع الضعف عندهم وسبل الكمال على ضوء ماوصل اليه الغرب ، وبذلك يخرج طالبنا بمادة فكرية لها قيمتها بدلا من قصره على الدراسات اللفظية التى نأخذه بها اليوم ؟ ..

ولكننا اذا أردنا أن نفهم الادب بهذا المعنى الواسع ، واذا أردنا أن ندخل فيه أدبنا المعاصر الذى نأخذ ألوانه عن الآداب الغربية ، تبين عندئذ صدق ما قلناه من قبل من أنه لن يستطيع عندئذ الاستقلال بتدريسه الا من ثقف ثقافة غربية وتشبع بمناهج الغرب على نحو واسع متين

والعيب الثانى قائم فى منهج الدراسة فهو لا يزال المنهج التقريرى كما عرفته القرون الوسطى مع أن مناهج الدراسة فى كافة الجامعات اليوم قد أصبحت المناهج التاريخية ، ومن واجبنا أن نسلك مسلكهم فنوفر على أنفسنا قرونا من الزمان ، ولو أننا فعلنا لتغيرت دراساتنا كلها رأسا على عقب ، فالنحو عندئذ لن ندرسه على أساس

انه معايير للصحة والخطأ ، فتلك دراسة مكانها فى المدارس الثانوية وانما نتناوله كتطور تاريخى للغة منذ أصولها السامية الى أن انتهت اليوم باللهجات العامية ، وهذه دراسة لا تعرف الخطأ والصواب وانما التحول الطبيعى الخاضع لاعتبارات عضوية واجتماعية ونفسية . والبلاغة علم سنحذفه أصلا من برامجنا كما حذفته جميع الجامعات ونحل محلها دراسة الاساليب وتاريخ تكوينها والتمييز بين اتجاهات الكتاب المختلفين وتحديد خصائصهم الروحية باعتبار أن الاسلوب صورة لملكات الرجل لا وسيلة من وسائل الاداء اللفظى فحسب ... وسوف نفطن عندئذ الى شىء لم نسمع بوجوده بعد فى جامعتنا وهو تاريخ اللغة ، ففى كل الجامعات تجد كراسى لاساتذة كبار يضطلعون بهذه المهمة الشاقة . ولقد أتيح لى أن أتابع سنوات دراسة الاستاذ فرديناد برينو لتاريخ اللغة الفرنسية بالسربون . وكم كان يشجينى أن أستمع الى هذا الشيخ الجليل وهو يقص تاريخ لغته ، فاذا به يكشف لنا بهذا التاريخ عن العقلية الفرنسية كلها وقد رسبت على طول القرون فى مفردات اللغة وتراكيبها ولقد كان يخيل الى عندئذ أن هذا الرجل لا يلقى الينا بعلم ، وانما يقص ذكريات حياته الخاصة ، وذلك لطول معاشرته لتلك اللغة وألفه لها . ولقد أودع الرجل ــ رحمه الله ــ محصول عمره فيما يقرب من عشرين مجلدا فى كل مجلد ما يقرب من ألف صفحة من القطع الكبير ، وأجمع الفرنسيون على أن هذا الشيخ الوقور قد أقام لفرنسا بكتابه هذا عن «تاريخ اللغة الفرنسية» تمثال مجد لن يفنى أبد السنين . وكم كان رائعا يوم وفاته أن تحمل جثته الى ساحة السربون ويأتى الوزراء ورجال الدولة ومعهم فصائل من الجيش وموسيقاه ليحيوا رفاته الطاهرة فى مشهد

وطني رسمي كان من أكبر ما أثر فى نفسى اذ كشف عن عظمة هذه الشعوب التى تعرف كيف تقـــدس الفكر البشرى ..

والمنهج التاريخى كما سيجدد تدريسنا للغة ، سيجدد أيضا تدريسنا للادب ، فالادب كما نريد أن نفهمه هـو مستودع الحضارة،وما أظن أننا نستطيع أن نفهم الحضارة العربية فهما صحيحا مالم نكشف عن أصولها ومصادرها، ولك أن تقلب الرأى كيفما شئت فستنتهى الى نتيجـــة حتمية هى أن الثقافة العربيـــة مزيج من عناصر ثلاثة : العنصر العبرى ، والعنصر الفارسى ، والعنصر اليونانى . ففى القرآن وفى الاسلام ما لا يحصى من مبادىء التوراة وقصص التوراة وأصول التوراة التشريعية ، وفى الحضارة العباسية الكثير من وسائل الحياة الفارسية ببذخهـــا ومظاهرها المادية . بل وتياراتها الاخلاقية والفكرية فى بعض الاحايين ، وأما اليونان فأظن أن تأثيرهم فى الفلسفة الاسلامية والمنطق الاسلامى وعلم الكلام بل وفى العـلوم اللغوية كالنحو والبلاغة وغيرها أوضح من أن يذكر

والان لو وسعنا من معنى الادب وزدنا من عنايتنـــا بالنثر وأدخلنا فى دراستنا الى جوار الادب القديم الادب المعاصر،ولو أصلحنا مناهجنا فجعلناها تاريخية كيف تظن اننا نستطيع عمليا أن ننظم تلك الدراسة . أليس من الخير لنا أن نأخذ بالنظام الفرنسى فلا نقيد دراســـة الادب العربى بسنين بل نجعله شهادات يحضر الطلبة ما يريدون منه ، حتى اذا أحسوا بنضوجهم تقدموا الى الامتحان ؟ ونوع هذه الشهادات أمرها واضح فهى لا يمكن أن تكون الا : ١ ـ شهادة اللغة العبرية وآدابها . ٢ ـ شـــهادة اللغة الفارسية وآدابها . ٣ ـ شـــهادة اللغة اليـــونانية وآدابها . ٤ ـ شهادة اللغة العربية وآدابهـــا . وبذلك

يخرج الطالب مثقفا ثقافة حقيقية تمكنه من أن يفهم التراث العربي فهما صحيحا وأن يستطيع مقارنته بغيره من الاداب.

ومن البين أنه يجب أن يصلح نظام التعليم في المدارس الثانوية بحيث توجد به فروع تعد اعدادا صحيحا لهذا النوع من الدراسة الجامعية بحيث يخرج الطالب ولديه العناصر الاساسية لمواصلة دراسته

ولست أجهل ما في مثل هذه الدراسة من مشقة ،ولكن الاوروبيين يعالجون مثلها في دراسة أصول آدابهم اللاتينية واليونانية ، ولقد تغلبوا على تلك الصعوبات ، فلماذا يقعد بنا نحن الكسل عن مواجهة الطرق الجدية والسير في السبل الصحيحة ؟

صفات المؤرخ

كان أدولف تيير A. Thiers (١٧٩٧ : ١٨٧٧) من كبار رجال الدولة فى فرنسا كما هو من كبار مؤرخيها . ابتدأ حياته بالعمل فى المحاماة بمدينة اكس ، ثم غادرها الى باريس حيث اشتغل بالصحافة فأصدر ال « ناسونال » سنة ١٨٣٠ وبعد ذلك بعامين ساهم مساهمة قوية فى اعادة النظام الملكى وتولى الوزارة بل ورياسة الوزارة عدة مرات كما انتخب للنيابة فى البرلمان . وفى سنة ١٨٧٠ عارض بقوة فى اعلان الحرب على المانيا . وبعد الهزيمة أختير رئيسا للحكومة ثم رئيسا للجمهورية بانتخاب الجمعية القومية سنة ١٨٧١ ولقد اتصل اسمه بتحرير فرنسا . ولكن ذلك لم يمنع الملكيين والمحافظين من أن يتآمروا لتنحيته عن الرياسة فتركها فى ٢٤ مايو سنة ١٨٧٣ . ومات تيير والنظام الثورى الذى وضع أسسه يستقر شيئا فشيئا . ورجل كهذا ، عرك الحياة العامة وبلى أسرارها يستطيع بلا ريب أن يجيد فهم التاريخ ، فيقدر العوامل المختلفة التى تعمل فى تكوينه كلا منها قدره الحق . ولقد ترك تيير كتابين كبيرين : أولهما عن « تاريخ الثورة الفرنسية » فى عشرة أجزاء ، وثانيهما عن تاريخ

(*) نشرت في ٩/١/١٩٥٩

« القنصلية والامبراطورية » فى عشرين جزءاً . ولقـــد اتفق أن قرأت فى كتابه الاخير صفحات عميقة عن الصفات التى يجب أن تتوفر فى المؤرخ ، ومن بينها ما يجمل بكل مواطن أن يتخذ منها حلية لروحه . وأكبر ظنى أن تدبرها فى أيام كالتى نمر بها الآن لن يخلو من نفع لمن بقيت فى نفوسهم اثارة من ضمير ، وها هى تلك الصفحات

١ ـ العناية بالبحث : هأنا انتهى ـ بعد خمسة عشر عاما أنفقتها فى العمل المتصل من تاريخ «القنصلية والامبراطورية» الذى ابتدأته عام ١٨٤٠ ـ ولم أترك سنة واحدة من هذه الخمس عشرة تمر دون أن أخصص كل وقتى لهذه المهمة الشاقة ـ وذلك مع استثناء تلك السنة (١٨٥١) التى قضت أحداث السياسة أن أعيشها خارج فرنسا (منفيا عند تولى نابليون الثالث) . وأنا أعترف بأنه من الممكن أن نعمل بأسرع من ذلك ، ولكننى أحمل لرسالة التاريخ احتراما بالغا ، حتى ان خوفى من أن أقرر حقيقة غير ثابتة ليملؤنى حزنا . ولهذا لا يقر لى قرار حتى أكتشف الدليل على صحة الواقعة التى يساورنى فيها الشك فأبحث عنه حيث يمكن أن يكون ، ولا أقف حتى أجده أو أطمئن الى أنه غير موجود ، وعندئذ أضع نفسى مضطرا موضـــع الحـــكم فأقضى بايمانى الداخلى مع رهبتى الدائمة من الخطأ . وذلك لاننى لا أرى ـ عند ما يأخذ المرء نفســه بأن يقول للناس الحقائق عن حوادث التاريخ الـكبيرة ـ اثما أكبر من أن ينكر تلك الحقائق لضعف ، أو يشوهها لهوى ، أو يفترضها لكســل ، أو أن يكذب بوعى أو غير وعى وعلى جيله وعلى الاجيال اللاحقة . وتحت سلطان هذه الوخزات قرأت مرة ومـــرتين ، وعلقت بيـــدى على الوثائق التى لاتحصى المودعة بمحفوظات الدولة ، والثلاثين ألف خطاب التى تكون مراسلات نابليون الخاصـــة ، ثم

خطابات وزرائه التى لا تقل عنها عددا ، وخطابات قواده وأركان حربه بل ورجال البوليس ، ثم معظم المذكرات المخطوطة التى تحتفظ بها العائلات فى بيوتهـــا . ومن واجبى أن أقر بأننى قد لاقيت من جميع الحكومات ــ وقد مرت بى ثلاث منذ ابتدأت كتابى ــ نفس التســـهيلات ونفس الكرم فى مدى بالوثائق التى كنت فى حاجة اليها ، وحتى تحت حكم حفيد نابليون ، لم يحجبوا دونى أسرار السياسة الامبراطورية كما لم تحجبها الجمهورية أوالملكية الدستورية . وهكذا استطعت أن أصل لا الى تلك الحقيقة المصطنعة التى تخلقها عادة الاجيال المعاصرة وتنقلهـــا الى الاجيال اللاحقة بل الحقيقة الحقـــة ، حقيقة الوقائع ذاتها التى لا تجـــدها الا فى وثائق الدولة وبخاصة فى مراسلات كبار الرجال . وهـــكذا كنت أنفق أحيانا عاما كاملا فى اعداد مجـلد كتبته فى شـــهرين . ولقـــد تركت الجمهور ينتظر ، ذلك الجمهور الذى تفضل فعلق أهمية على نتائج أبحاثى

٢ ــ بساطة العبارة : من الحق أن أقرر أنه قد استقرت فى نفسى الى جوار هذا التحرج رغبـــــة فى أن أستقصى البحث عن الطريقة التى أخذ يتحرك تبعا لها كل هـــؤلاء الرجال ، وهذا المـال وهذه المواد فى عصر كان من أكثر عصور الانسانية اضطرابا . فأسرار الادارة والماليـــــة والحرب والدبلوماسية قد جذبتنى اليهـــا واستوقفتنى وأسرتنى . وقد اعتقدت أن هذا الجزء الفنى من التـــاريخ يستحق عناية من النفوس الجدية مثلما يستحق الجـانب الدراماتيكى سواء بسواء . وفى رأيى أن المدح أو الـــذم اللذين نصبهما على حوادث التاريخ الكبيرة ليسا الا خطبا عقيمة ، وذلك ما لم يستندا الى عرض منطقى موضـــوعى واضح للطريقة التى تمت بها هذه الاحداث . فالتهـــابك

حماسة أمام عبور الالب مثلا ، وتكديسك للالفاظ وتترك للصخور هنا والجليد هناك لكى تحمل الغير على مشاركتك حماستك ، ليس فى نظرى الا عبث أطفال بل مصدر ملل للقارىء • فلا جد ولا جدوى فى اثارة اعجاب حقيقى الا بالعرض الدقيق الكامل للاشياء كما وقعت • كم من الفراسخ عبرت خلال الجبال ، وكم من المدافع والذخائر والمؤن حملت دون طرق معبدة الى المرتفعات الخارقة وسط المهاوى المفزعة ، حيث لا تستطيع الحيوانات أن تصعد ، وانما يحتفظ الانسان وحده بقوته وارادته . هذا هو ما يجب أن نقوله بأبسط أسلوب مع الحرص على التفصيلات الضرورية دون غيرها وذلك اذا أردنا أن نقص مغامرة كعبور سان برنار مثلا . وعندما ينتهى القاص من عرض دقيق كامل للوقائع وتفلت من فمه عبارة اعجاب ، لا شك أنها ستذهب رأسا الى قلب القارىء ، وذلك لان الاعجاب كان قد تولد فى نفسه بالفعل ولم تأت عبارة القاص الا استجابة لذلك الاعجاب

٣ ـ ملاحظة الحاضر : لا أعلم من نتاج الروح البشرية ما هو أجل من شعر الملاحم ، ولكننى أحب أن يسلم معى القارىء أن هناك عصورا أقدر على تذوق ذلك الشعر منها على خلقه . فما أظن أن هومير ودانتى قد تذوقهما الناس على نحو أرهف مما نتذوقهما فى عصرنا الحاضر الذى يجمع الى الدقة العلمية القدرة على الانفعال . وبالرغم من أن لدينا الشعراء والمصورين الممتازين ، فان عصرنا لم ينتج مثل ذلك الشعر الساذج القوى الذى أنتجته فلورنسا فى القرن الثالث عشر أو الاغريق الفطرية

فللجماعات أعمارها كما للافراد ، ولكل عمر مشاغله . ولقد نظرت دائما الى التاريخ على أنه الشاغل الذى يلائم

عصرنا بنوع خاص ، وإن لم يكن طبعا التشاغل الوحيد . فنحن لم نفقد المقدرة على الاحساس بكبار الحوادث ، وفى عصرنا ما هو كفيل بردها الينا لو أنها كانت قد فقدت . ثم اننا قد اكتسبنا من التجارب ما يمكننا من تقديرها والقضاء فيها . ولهذه الاعتبارات أسلمت نفسى فى ثقة منذ الحداثة للابحاث التاريخية وأنا مطمئن الى أننى أعمل ما يلائم طبيعة هذا العصر . لقد خصصت ثلاثين عاما من حياتى لكتابة التاريخ ، وباستطاعتى أن أقول اننى لم أتخل عن فنى حتى عندما عشت فى غمار الحياة العامة ، وعندما كنت ارى العروش ترنحها - وسط المجتمعات المهتزة - صيحات الخطباء الاقوياء أو تهددها هتافات الجماهير ، ثم بعد لحظة من التفكير ، كنت لا أرى هذا الرجل الفانى أو ذاك ، بل تلك الوجوه الخالدة التى كانت تتحرك فى كافة الأزمنة والاماكن بأثينا أو روما أو فلورنسا كما يتحرك أولئك الذين يقع عليهم بصرى سواء بسواء . وكان فى ذلك ما يخفف من غضبى أو اضطرابى ، وذلك لاننى لم أوخذ على غرة ، ولا رأيت أحداثا يومية عابرة ، بل مشاهد خالدة أقامها الله عندما وضع الانسان فى الهيئة الاجتماعية ووضع فى قلبه ما يحركه من شهوات كبيرة أو صغيرة حقيرة أو كريمة . والانسان دائم الشبه بالانسان . تثيره وتقوده نفس القوانين العميقة الخالدة . فباستطاعتى أن أقول ان حياتى ذاتها قد كانت دراسة تاريخية طويلة . وفيما عدا اللحظات العنيفة التى يذهلنا فيها العمل ويجتاحنا تيار الحوادث الجارف حتى نعجز عن تبين شواطئه - أستطيع أن أقول اننى قد لاحظت دائما ما يمر حولى ، ووازنت بينه وبين ما حدث فى غير زماننا ومكاننا لاميز فيه المتشابه والمختلف ، وفى هذه المقارنة الطويلة خير اعداد للنفس عندما تريد كتابة ملحمة التاريخ ، تلك

الملحمة التى لا يمكن أن ينصل لونها لانها دقيقة موضوعية.
وذلك لان الرجل الحقيقي الذى يسمى الاسكندر أو هانيبال أو قيصر أو شرلمان أو نابليون ، له شعره الخاص كما للرجل الاسطورى الذى يسمى أخيل أو انيوس أو رولان أو رينو ، شعره ، وان تميز الشعران

٤ ـ الذكاء في التاريخ : ملاحظة الرجال والحوادث ملاحظة متصلة أو كما يقول المصورون ملاحظة الطبيعة لا تكفى ، اذ لابد لمن يريد كتابة التاريخ من موهبة خاصة ـ ولكن ما هى هذه الموهبة ؟ أهى لطافة الحس أم الخيال أم ملكة النقد أم فن التأليف أم القدرة على التصوير ؟ أجيب ان كل هذه المواهب مرغوب فيها ، وان اى مؤرخ تظهر فيه احدى تلك الصفات النادرة يعتبر مؤلفا جديرا بتقدير المعاصرين والاجيال اللاحقة على السواء • وباستطاعتى أن أقول ان هناك طرقا كثيرة لكتابة التاريخ ، فقد نكتب على طريقة توسيدية أو أكزنفون أو بوليب أو تيت ليف أو سالوست أو قيصر أو تاسيت أو كومين أو جوشاردان أو ميكافيللى أو سان سيمون أو فردريك الاكبر أو نابليون • وفى كل حالة يكون تاريخا ممتازا وان اختلف عن غيره • وأنا لا أسأل الله الا أن أكون قد كتبته كأقل هؤلاء امتيازا ، لاضمن بذلك أننى وفقت صنعا ، وأننى سأخلف بعدى ذكرى لحياتى الفانية • ولكل من هؤلاء صفته الخاصة البارزة • فمنهم من يقص فى وفرة تشتاقك ، ومنهم من يقص دون اطراد فيسير بوثب وقفزات ، ولكنه يصور بتخطيطات عابرة وجوها لن تمحى من ذاكرة الرجال ، ومنهم من هو أقل وفرة فى القصص أو مهارة فى التصوير ولكنه أكثر هدوءا وأغزر حياء فينفذ ببصر لا يغيب عنه شيء الى أعماق الحوادث البشرية

ويضيئها بنور خالد . « يفكر تيير هنا في تيت ليف وتاسيت وجوشاردان » . وأيا ما تكون طريقتهم فانني أكرر أنهم قد وفقوا صنعا . ولكن أليست هناك صفة تفضل ما عداها من صفات حتى ليتميز المؤرخ الذى يملكها تميزا حقيقيا ؟ نعم .. ذلك ما أعتقده .. وأسارع فأقول ان هذه الصفة في نظرى هي الذكاء

وأنا أستعمل هذا اللفظ بمعناه الدارج وأطبقه على الموضوعات المختلفة حتى يفهمنى القارىء . كثيرا مانلاحظ عند الطفل أو العامل أو رجل الدولة شيئا لا نستطيع أن نسميه لطافة الحس لان البريق يعوزه ولكننا نسميه الذكاء ، وذلك لان من وهبه يدرك لفوره ما يلقى اليه ويرى الهمس ويسمعه ، فيفهم اذا كان طفلا ما نعلمه ، واذا كان عاملا ما يطلب اليه عمله ، واذا كان من رجال الدولة فهم الحوادث وأسبابها ونتائجها ، وحدس طبائع الاشخاص وميولهم وما تمليه تلك الطبائع والميول من سلوك ، حتى لا تراه يندهش لشيء أو يتعثر في شيء وان أحزنه في الغالب كل شيء . وهذا هو الذكاء . وهذه الصفة البسيطة التي لا تسعى الى البريق لن تلبث عند العمل أن تظهر أعظم جدوى من كافة الصفات فيما عدا العبقرية التي ليست في الحقيقة الا الذكاء مضافا اليه الاشراق والقوة والاتساع والسرعة

وهذه الصفة ، مطبقة على حوادث التاريخ الكبرى ، هي الصفة الاساسية الواجب توفرها في المؤرخ . وهي اذا وجدت استتبعت خلفها كافة الصفات الاخرى ، وذلك بشرط أن نضيف الى الهبة الطبيعية تجربة الحياة العملية . فنحن بهذه الصفة نستطيع أن نميز الحق من الباطل وألا ننخدع بالكاذب من مسلمات التاريخ التقليدية وضوضائه

الخاوية .. بل نحكم ملكتنا الناقدة فندرك فى دقة خصائص الافراد والعصور ، ولا نبالغ فى شىء تعظيما أو تحقيرا بل نعطى كل شخصية قسماتها الحقيقية وننحى الطلاء الذى لا نعرف أشد منه خطرا على التاريخ . وبالجملة نصور تصويرا صادقا . ندخل فى أسرار الاشياء ونفهم كيف سارت ونعين الغير على هذا الفهم . فالدبلوماسية والادارة والحرب والبحرية نضعها كلها فى متناول جمهرة النفوس وذلك لاننا نكون قد استطعنا أن ندركها ككل قابل للفهم . وعندما نصل الى جمع كافة العناصر التى سنؤلف منها قصصنا الواسع يدلنا تسلسل الحوادث ذاته على الطريقة التى نستطيع أن نعرض بها ذلك القصص ، وذلك لاننا عند ما ندرك الروابط الخفية التى تجمع بين كل تلك العناصر والاسباب التى جعلت بعضها يتولد عن بعض تتكشف لنا طريقة العرض بنفسها ، وتكون أجمل الطرق لانها الطريقة الطبيعية . واذا لم يكن فى تيار حياة الامم جبال من الثلوج استطاع المؤرخ أن يمزج كل تلك العناصر مزجا تاما ، وأن يسلسلها فى يسر وحيوية تاركا لسير الزمن تدفقه وقوته بل وجماله ، وذلك لانه لن يحيد قسرا بحركاته عن مجراها الطبيعى ولن يغير شيئا من تثنيه الموفق . وهو أخيرا سيتمتع بأهم وأسمى شرط لازم للمؤرخ وهو العدل ، وذلك لانه لا شىء يقتل فى النفس الاهواء مثل معرفة الطبائع البشرية . ولست أزعم أن هذه المعرفة ستسقط عن النفس كل قسوة ، ولو أن ذلك حدث لرأيته شرا . ولكننا عندما نعرف الانسانية ومواضع ضعفها وندرك ما يسيطر عليها وما يقودها ، نستطيع — مع حبنا للخير ومقتنا للشر — أن نكون أرفق بالانسان الذى تسوقه الى الشر آلاف من الدوافع البشرية ، كما نقدس ذلك الذى استطاع وسط

المغريات الحقيرة وبالرغم منها .. أن يحتفظ بقلبه مرتفعا الى مستوى الخير والجمال والعظمة

هذه هى الصفحات التى حرصت على نقلها للقارىء ، والذى أرجوه هو أن يعود الى قراءتها فسيجد فيها كما قلنا كثيرا من الصفات التى يجدر بكل انسان مؤرخا كان أو غير مؤرخ أن يتحلى بها ، ففيها روح العلم ونزاهته التى هى من معدن الروح الاخلاقية السليمة ، وفيها أسلوب من أساليب الكتابة بل والحياة ، يمتاز بجديته وبساطته وقصده الى الحقائق . وأما الذكاء الذى ينتهى الى فهم الناس والاشياء كما هى ، فتلك هبة من الله قد ينميها التفكير وطول الامعان فيما نشهد ونسمع ، وهى اذا وجدت خليقة بأن تقوم الكثير مما فسد فى علاقاتنا العامة والخاصة اذ تنتهى الى التسامح والفهم المتبادل

رسل الثقافة الغربية

لا نستطيع في غير تعصب أحمق أو جهل كثيف أن ندعى أننا فى غير حاجة الى التتلمذ على أوربا ونقل الثقافة الغربية الينا ثم هضم هذه الثقافة وتمثلها حتى نستطيع بعدئذ أن نساهم على نحو جدى فى التقدم بالحضارة الانسانية الى الامام ..

هذه حقيقة ، ولكنه لا جدوى من الفطنة اليها ما لم نعالجها من الناحية العملية لنتبين وسائل التتلمذ والنقل وتلك الوسائل هى ما نسميها رسل الثقافة الغربية ،وهذه الرسل تجتمع في طوائف ثلاث هم : المترجمون من اللغات الاجنبية الى اللغة العربية والاساتذة الأجانب الذين تستقدمهم بنوع خاص جامعاتنا ، وأخيرا أعضاء البعثات الذين نوفدهم لتلقى العلم بأوربا وأمريكا

أما عن الترجمة والمترجمين فهذا موضوع يقوم بذاته ، ومن المعلوم فى تاريخ نشوء الحضارات أن الترجمة قد نهضت دائما بدور أساسى فى نشأة كل حضارة جديدة ويكفى أن نذكر فى هذا المقام أخذ الرومان عن الاغريق ، والعرب عن الاغريق والفرس ، واليابان عن أوربا وأمريكا

(*) نشرت فى ١٩٤٩/٥/١٩

ونحن الآن فى حاجة الى عصر كعصر هارون والمأمون يثير حركة ترجمة واسعة النطاق تحت اشراف الدولة وبمالها لنقل أمهات الكتب الغربية قديمها وحديثها الى اللغـة العربية ، فهذه الكتب هى الاساس الصلب الذى تقوم عليه حضارة الغرب مادية كانت أم معنوية . ومالم نبدأ بهذه الحركة ، فسيظل انتاجنا الثقافى فى جملته رقيعا قصير النفس خاليا من الاصالة الحقيقية ، وذلك لانعدام رقابة الرأى العام على هذا الانتاج ، وكيف له أن يفرض هـذه الرقابة وهو يجهل أمهات المؤلفات الغربية التى يسـطو عليها بعض كتابنا معتمدين على جهل الرأى العـام وعدم درايته . ولكم من مرة يأخذ أحدهم « قرشا » غربيـا ثم يفكه الى « ملاليم » يشنشن بها ليوهم بالثراء مع أنه ثراء وهمى بل ثراء مختلس . وفى هذا من الضرر على خلق ثقافة مصرية أصيلة أو المساهمة فى الثقافة الانسانيـة العامة مالا يدرك مداه ، وذلك لاننا لا نعرف آفة أخبث فى الحياة الثقافية بل الحياة بوجه عام من النصب العقلى ، ولقد قال « رابليه » المفكر الفرنسى القديم : « علم بلا ضمير خراب للنفس » فماذا نقول عن الجهل بلا ضمير

والاساتذة الاجانب وأعضاء البعثات المصرية الى الخارج هما الآن موضع الجدل بين من يشرفون على مصـير الثقافة فى بلادنا ، فهناك من يزعم أننا قد أصبحنا اليوم فى حاجة الى أولئك وهؤلاء ما دامت عندنا جامعات وليست لدينا أساتذة ، وفى هذه الجامعات تدرس اليوم كافة فروع الثقافة ، وهناك من يزعم أننا فى حاجة الى أساتذة أجانب نتتدبهم من الخارج . ومن الواجب أن نكتفى بهذا الانتداب ولا نكلف الدولة نفقات ايفاد البعثات الى الخارج ، وأخـيرا يزعم فريق ثالث أن فى أساتذتنا المصريين ما يغنى عن انتداب الاجانب ، ولتكن البعثات رسلا تسعى بيننا وبين

ثقافة الغرب ..

وفى الحق أننا لسنا فى حاجة الى أن نطيل فى الرد على أولئك الذين يزعمون أننا فى غنى عن الاســــــاتذة الاجانب وعن ايفاد البعثات على السواء ، فمثل هذا الزعم السخيف لا يدل الا على جهل أو غرور كلاهما مرذول ، وما يستطيع أحد أن ينكر أننا فى أمس الحاجة الى التوسع فى توثيق الصلات الشخصية بيننا وبين ثقافة الغرب لان الكتب لا تكفى ولا يمكن ان تكفى ، والاستاذ مكتبة متنقلة بل عصارة مكتبة ، وعضو البعثة الناجح لا يعود بكمية من المعلومات فحسب بل يعود بحضارة تدب بين جوانحه

وانما تقوم المفاضلة بين التوسع فى انتداب الاساتذة الاجانب أو التوسع فى ايفاد البعثات .. والذى لاشك فيه أن استقدام كبار الاساتذة أمر بالغ الاهمية وذلك لاننا لن نتلقى عن هؤلاء الاساتذة علما وثقافة فحسب بل نتلقى ما هو خير منهما ونعنى به مناهج البحث ووسائل الكشف عن المجهول ، وهذه هى أدوات خلق الثقافة الاصيلة التى نتطلع اليها فى لهفة . والشىء الوحيد الذى يدعونا الى التريث فى مثل هذا الانتداب هو ما بلوناه بأنفسنا عندما لاحظنا أن بعض الاساتذة الاجانب ينظرون ـ معذورين أو غير معذورين ـ الى الطلبة المصريين نظرة خاصة ، ويأخذونهم فى تلقين المعرفة وشرح مناهج البحث مأخذا خاصا ، ظانين أو معتقدين أنهم لا يقوون على التعمق والجلد ، وأنه من الحكمة أن يقتصر فى تعليمهم على بســـــائط الامور حتى لاينوء كاهلهم ، وترهق عقولهم ، وتكون النتيجة أن لاتتم الاستفادة من أولئك الاساتذة الكبار الذين جاءوا الى بلادنا مثقلين بما يترامى اليهم من مزاعم رجال السياسة المغرضين الذين سممت نزعة الاستعمار نفوسهم فراحوا يذيعون أن

الافريقيين مثلا أقل استعدادا بحكم الطبيعة من الاوربيين .. الخ

وهذه الملاحظة الاخيرة من شأنها آن تعزز رأى أولئك الذين يتحمسون للتوسع فى ايفاد البعثات المصرية الى الخارج حتى نستغنى بهم عن انتداب الاساتذة الاجانب ، ولهذا الرأى وجاهته البالغة وذلك لا لان أخذ الثقافة من مصادرها هو اقرب السبل واسلمها وردا فحسب ، بل ولان اعضاء البعثات يعودون بكسب آخر مزدوج لا يقل قدرا عن كسب المعرفة ، بل نؤكد أنه يفوقها ، ونعنى بهذا الكسب المزدوج معرفة الحياة الاوربية أولا ، ثم معرفة الحياة المصرية ثانيا

فأما عن الحياة الاوروبية فمن البديهى أن خير وسيلة للوصول الى هذه المعرفة هى أن يحيا المصرى بالفعل هذه الحياة بين بنيها فاذا به يحصل مع هذه الحياة الثقافية الغربية بل والحضارة الغربية كلها بعد أن رسبت فى تلك الحياة وتبلورت وأصبحت عملا ووسائل حياة لا نظريات وسفسطة لسان . والثقافة فى مرجعها النهائى نوع من الحياة وضرب من السلوك ، وكل هذه أمور لا تحتويها كتب ولا يلقنها أساتذة لانها تراث عام شائع بين كل شعب متحضر ، وهى لا تؤخذ الا بطول الممارسة وعلى غير وعى ممن تسمو اليها نفسه

ولقد يبدو غريبا أن نقول ان عضو البعثة سيعود ليعرف الحياة المصرية ، ولكنه لا محل لمثل تلك الغرابة فقد قال «رديارد كبلنج» بحق : « ماذا يعرف عن انجلترا من لم ير غير انجلترا » والذى لا شك فيه أن عضو البعثة يعود دائما من الخارج بعينين أقوى ابصارا وأحد ملاحظة ، وذلك لانه قد رأى حياة غير الحياة المصرية فأصبح قادرا على أن يتبين ما فى حياتنا من مواضع النقص أو مواضع الكمال،

وقد انقشعت عن ناظريه تلك الغشاوة التى يضر بها طول الالف واطراد العادة ، ونحن لا نعرف شيئا أخطر من الالف والعادة على قتل روح الملاحظة حتى لتراننا نؤمن ايمانا قويا بصحة ما قاله ذلك الفيلسوف الفرنسي المتجول «جان جاك روسو » عندما قرر أنه « يلزمنا كثير من الفلسفة لنلاحظ مانراه كل يوم »

واذن فالرأى الصحيح هو أن نجد فى الترجمة وأن نواصل انتداب الاساتذة الاجانب ولو الى حين ، ثم نضع من بين أهداف نهضتنا الاساسية التوسع فى ايفاد البعثات ولا نكون من قصر النظر بحيث لا نوفد أحدا للدراسة فى الخارج الا فى المواد التى يقولون انها لا تدرس فى مصر ، وذلك لان الامر كما أوضحنا ليس أمر دراسة فحسب ، وانما هو قبل كل شىء أمر معرفة بالحياة الاوربية والمصرية على السواء وكل ذلك على شرط أساسى وهو أن تدرك الدولة أن أعضاء البعثات هم عماد وطننا الحديث وان من واجبها أن لا تثبط لاحد منهم عزما أو تميت همة أو تحد حماسة بأن تلقيهم عند عودتهم بين براثن طائفة من الموظفين الاداريين الذين يمرغونهم فى الاوحال أو تمكن من رقابهم نفرا من الفنيين أو شبه الفنيين القدماء الذين وصلوا الى مراتب الرياسة فى أزمان الجهل البائد وأصبحوا يستشعرون مرارة حمقاء فى أن تدفعهم الاجيال الناهضة المستنيرة بالمناكب • ولا تقبل أن تترك قافلة الوطن تسير وئيدا ، وكأنها تحمل الجنادل وتدفعهم تلك المرارة الى أن يقصروا كل همهم فى كسر شوكة أولئك المبعوثين الذين يرمونهم بالغرور ويدعون انهم يريدون اعطاءهم دروسا فى الحياة والله يعلم انهم لا يبغون غير شقاء نفوسهم المريضة وهم أناس لا يعملون ، ومع ذلك يؤذيهم أن يعمل الغير ، وهذا خلق لا يبارك الله فيه

وحدة الأمة ووحدة الثقافة

ليس من شك فى أن لمصر وضعا خاصا من الناحية الثقافية وذلك بحكم وقوفها بين حضارتى الشرق والغرب وجمعها بين المدنيتين الاسلامية والمسيحية ثم امتزاج الرواسب التاريخية فيها بتيارات العلم الحديث

ولقد يقال على ضوء هذا الوضع ان توحيد الثقافة فى مصر توحيدا يدعم وحدتها القومية ويتخذ أساسا لها أمر غير مستطاع . ولربما أضيف الى ذلك استفسار عن معنى وحدة الثقافة فى عالم يسير اليوم نحو التفرع فى التخصص والتنوع فى سبل المعرفة

وفى الحق ان كل هذه الاعتراضات انما تأتى من انواع من اللبس الذى يقوم بين الموضوعات والمناهج فى الحضارات المختلفة وفى مناحى التخصص العلمى المتباينة

ان الدول الاوربية قلما تقل عنا تنوعا فى منابع ثقافتها، وهى بلا ريب تفوقنا فى تنوع التخصص ومع ذلك نجحت تلك الدول فى توحيد ثقافتها توحيدا يعزز وحدتها القومية ويقيم بين أفرادها نوعا من التجانس العقلى والخلقى يسهل التفاهم بين أفرادها وييسر التعامل بينهم . ويكفى أن نشير فى هذا السبيل الى ان الحضارة

(*) نشرت فى ١٩٥٠/٧/١٩

الاوربية تنهل من مصدرين يبدوان متضـــاربين وهمـــا الحضارة اليونانية الرومانيــة والحضـــــارة المسيحية ، وأولاهما وثنية وثانيتهما دينية موحدة ، ومع ذلك تمتزج الحضارتان في ثقافة موحدة هي مبعث قوة العالم الغربي ..

وهكذا يبدو كيف أن تباين مصادر الثقافة لا يمنـــع من وحدة تلك الثقافة وبذلك يتضح كيف أننا نســتطيع في مصر رغم جمعنا بين الشرق والغرب وبين الاســـلام والمسيحية وبين الماضي والحاضر أن نوحد ثقافتنا على نحو يتضمن لامتنا وحدة قومية أوضح وأقوى من وحدتهـــا الحالية ..

نستطيع اذن ان نوحد الثقافة في أمتنا والســبيل الى ذلك نجمله في أمرين كبيرين : أولهما وحدة التعليم العام وثانيهما وحدة المنهج فيما يلي التعليم العام من دراسات

فأما وحدة التعليم العام فاننا نقصد بها وحدة التعليم الاولى الذى نص الدستور المصرى منذ سنة ١٩٢٣ على انه اجبارى وبالمجان . فهذا التعليم لو انه نفذ لما وجدنا مصر اليوم وعدد المتعلمين فيها لايعدو العشرين في المائة . وليس باســتطاعتنا في مثل هذه الحالة ان نتحـدث عن وحدة الثقافة ما دام ٨٠٪ من الامة المصرية أميين

وفى الحق انه لما يوجب الاسف ان يمضي على تقرير الدستور المصرى لتعميم التعــليم الاولى ما يزيد على ٢٧ عاما ومع ذلك لا يزال العدد الذى يمكن أن يجد له أماكن لتلقى هذا التعليم فى كافة المدارس المصرية أميرية وحرة أولية وابتدائية لا يتجاوز النصف من الاطفال الذين يقعون بين السادسة والثانية عشرة من عمرهم . وآخر احصــاء دقيق لدينا يقول أن عدد هؤلاء الاطفـــال يبلغ المليــونين ونصف المليون وان الذين يتلقون بالفعل هذا النوع من

التعليم لا يتجاوزون ١٢٨٤٢٢٣ منهم ٥٩٣٣٨١ بالمدارس الاولية التابعة لمدارس المديريات ، ٢٠٧٨٤٢ بالمدارس التابعة لوزارة المعارف فى المحافظات ، ٢٣٣٠٠٠ فى مدارس التعليم الحر ، والباقى فى مدارس الرياض والمدارس الابتدائية حرة وأميرية

مصر اذن لم تمهد حتى اليوم أماكن لتعليم الاطفال التعليم الاولى العام بحيث يشملهم جميعا هذا التعليم بل كل ما وصلت اليه هو اعداد أماكن لتعليم نصف أولئك الاطفال ومن البديهى أن تعميم التعليم الاولى الناجح هو أول خطوة بل هو الخطوة الاساسية نحو وحدة الثقافة وذلك لما هو واضح من أن الجهل والعلم لا يمكن أن يجتمعا فى وحدة

تعميم التعليم العام هو اذن أول عنصر فى وحدة الثقافة ، وما نحن بحاجة الى ان ندلل على التباين الواسع بين عقلية الرجل المتعلم وعقلية الرجل الجاهل وتنافر العقليتين تنافرا يؤدى الى تصدع وحدة الامة وعدم تيسير سبيل التعامل بين أفرادها

ولو اننا تركنا تعميم التعليم الاولى الى توحيد المنهج فى الدراسات التالية لهذا التعليم كعنصر من عناصر الوحدة الثقافية لوجب أن نلاحظ انه لا عبرة فى التعليم من حيث تكوين الشخصية البشرية بموضوعات ذلك التعليم كالطب أو القانون أو الهندسة أو الادب أو الدين أو غيرها وانما العبرة بالمنهج الذى تعالج به تلك الموضوعات . ووحدة المنهج هى التى تكون وحدة الثقافة أى وحدة العقلية وطريقة تناولها للناس والاشياء

ولكى نقرب من الاذهان معنى وحدة المنهج نستطيع أن نشير الى منهجين مختلفين تعرفهما مصر حق المعرفة وهما المنهج الازهرى القديم على نحو ما كان معروفا فى

القرون الوسطى والمنهج العلمى الحديث على النحو الذى يطبقه اليوم العالم الغربى

فالمنهج الازهرى يقوم على شرح النصـــوص القديمة وتحليلها واستنباط الاحكام منها وتخريج المعانى ، وهو منهج جدلى أكثر مما هو منهج انشائى يكشف عن الجديد أو يشق الحجب عن المجهول . ومع ذلك فله مكانتـــه من حيث تدريب الملكات على الدقة فى التحليل والمناقشة

وأما المنهج العلمى الحديث فانه يبدأ بغربلة القـــديم فلا يستبقى منه غير الذى لا يزال حيا ثم يسير قدما الى الامام معتمدا على الخيال اعتماده على المنطق أو الجدل . وبفضل هذا الخيال يتصور القوانين التى تفسر ظواهر الوجود والانسان وتكشف عن غوامضه وتسخر قواه . وبالوسائل التجريبية تتحقق صـــحة تلك القوانين التى يصورها الخيال أو عدم صحتها ، وهكذا يستمر المنهج الحديث فى وضع الفروض وصياغة القوانين على أساس ما يصح من تلك الفروض الى أن ينتهى الى اكتشـــاف الحقائق العلمية الجديدة ، وتلك رياضة للملكات تختلف اختلافا كبيرا عن رياضة المنهج المنطقى الجدلى لها ، وذلك لما فيه من اطلاق أجنحة الخيال وتسخير وسائل التجربة والبعد عن اللفظية والتعمق فى فهم الواقع والسيطرة عليه

هناك اذن مناهج مختلفة للدرس . ومهمـــا تنوعت موضوعات هذا الدرس فان باستطاعتنا ان نتناولهـــا جميعا بمنهج موحد . وتوحيد هـــذا المنهج هو العنصر الثانى من عناصر الوحدة الثقافية للامة . ويا حبـــذا لو اضفنا هذا التوحيد الى تعميم التعليم الاولى فاننـــا بذلك نكون قد خطونا خطوة جدية نحو توحيد الثقـــافة

القسم الثانى

من آفات النفوس

سهام ماضية

هناك ثلاث رذائل كبيرة تنخر فى أخلاق الكثـــير من المصريين على نحو لم أر له شبيها فى بلد من بلاد العالم على كثرة ما رأيت من بلاد وقابلت من بشر ، ولابـــد من أن نفضحها لعلها تخفى عن نواظرنا شبحها المرذول فقـــد سئمت لقياها فى كل سبيل وبمنحنى كل نفس

أما أولاها فهى محاولة كل انسان أن يوهمك أنه أكبر وأفضل وأعلم مما هو • ولقد كان من عادتى الصبر فكنت أتلقى هذه الدعاوى بصدر رحب ، ولكننى لم أكن ألبث أن أحس بنوع من اختلاس الثقة يحاوله من يتخطى حـــدود نفسه • وليس أمر على النفس ولا أهيج للحفيظة من خيبة الامل • وانه لمن اليسير على من أوتى شيئا من الفراســة وسداد الرأى أن يحكم على الناس وينزلهم منازلهم الحقة ، وانه لمن الخير لنا جميعاً أن نحاول دائما احتلال المـــكان الذى نستحقه فى النفوس دون تطاول أو انحطاط ، وأما الاقحام فما نظنه يعقب أثراً باقيا حتى ولا بنفوس البله • ولست فى الحق بواثق من أن أمثال هؤلاء الناس الذين نشكو منهم الآن مر الشكوى يعون ما يفعلون ، أم هم فى غفلة الغرور • ولكننى لاحظت فى الغالب الاعم أنهم مشربون

(*) نشرت فى ١٩/٣/١٩٤٥

بحقارتهم ، وأنهم يبذلون مجهودا اراديا لتغطية تلك الحقارة بالابهام • وذلك لما نلاحظه من هياج فى الحركات وضغط على مخارج الحروف وتصنع للانفعال وارتفاع فى الصوت وهلهلة فى ملامح الوجه وتنطع فى السكون والحركة ••

وثانيتها غيرة مسرفة وحقد عجيب • ولكم ساءلت نفسى لماذا يشغل الناس أنفسهم بغيرهم الى هذا الحد المدمر ، وتلك مشاعر خليقة بأن تنزل بالنفس الخراب • والذى عهدته فى النفوس القوية هو نزوعها المستمر الى التسامى بذواتها • فهى تسعى لأن تكون فى يومها خيرا من أمسها، وأن تعمل فى غدها ما يبز عملها فى حاضرها ، فاذا عــز التسامى كان الاستجمام فى ثقة وتوثب • وأمــا أن يفنى المرء بياض يومه وسواد لياليه فى التفكير فيما وصل اليه هذا الشخص أو ذاك ، أو الخوف من أن يسبقك زيد أو بكر فهذا شعور صغير لا تعرفه الا نفس صغيرة ،وهو دليل عدم الثقة بالنفس كما هو دليل على انهيار الشــخصية ، وان كان هناك شعور قبيح من مشاعر البشر فأجدر به أن يكون هذا الشعور ••

وثالثها فساد عميق فى تربية الناس الاجتماعية ، فقد تلاقى صنوفا من الافراد بعضهم صغير وبعضهم كبير ،ولقد تتلطف مع الصغير بدافع انسانى برىء ظانا أنك بعملك هذا تدخل السرور على نفس بشرية ، فاذا بك وقد سقطت هيبتك من قلبه ، واذا به يتطاول الى المساس بك فى غــير ذوق ولا حياء •• ولقد تفسح فى صدرك ، ثم يأتى يــوم يتحرك دمك فاذا بك ترد فى عنف ، واذا بالمسكين يصحو بعد غفلة ، واذا به يشكو دون أن يفهم شيئا أو يدرك لــه محنة • واذا كان كبيرا ولكنه صغير النفس وعاملتــه فى

رفق وتأدب ظن معاملتك ضعفا ، أو خيل اليه وهمه ذلك، فاذا جاء يوموصفعته صفع الأقوياء لانك رجل عزيزالنفس حامى الدماء أسقط فى يده وأخذه اما عناد الحمقى واما انهيار الاذلاء • ولست أدرى لذلك من سبب غير فساد التربية الاجتماعية ، فسادها فى المنزل وفى المدرسةوفى الوظيفة وفى الشارع وفى الدكان وفى المصرف وفى كل مكان ، حتى لكأنك تسير فى بلد كله أرقاء ، سيان فى ذلك سيدهم ومسودهم ، رئيسهم ومرؤوسهم ، بلاد منكودة وأخلاق مسفة ! أى عذاب نفسى فى أن تراك مضطرا الى تقدير كل لفظ تقول وكل حركة أو ابتسامة أو تقطيب جبين ! أناس لا فهم لهم ولا تقدير ، لا يعرفون حدا يبدأون منه ولا حدا ينتهون اليه .. ترى باستطاعتك ان تخلق لنفسك عقلية جديدة وذوقا جديدا وتربية جديدة تماشى بها الناس ، أم تأخذك العزة فتثبت كما أنت محاولا أن تنقل العقول وتحول الاذواق وتسدد التربية !تستطيع أن تتفاهم مع الناس أو أن تقبلهم أو تطيق عليهم صبرا • هذه أسئلة لا يستطيع الاجابة عليها غير الله فاليه نفوض الامر

الغـــرور

قلت لصاحبى بودى لو حاولت أن أحـلل فى بضـع مقالات بعضا من الآفات التى نلمسها كل يوم عند من نلقى من مواطنين ، فأجابنى وماذا أنت قائل بعد هذا التحليـل وهل لديك علاج لما ستعرض له من تلك الافات ؟ وكان ردى سريعا اذ أخبرته بأن هذا التحليل سيحمل العلاج فى حناياه وذلك لأن المرضى بتلك الآفات لا بد أن يفيدوا مما يقرأون من تحليل اذ يتبينون تلك الافات ومسالكها الخفية وما لها من تأثير فى حياتهم واذا بهم يكافحون تلك الافات التى خرجت من الظلام الى النور ولم تعد تعمل فى نفوسهم عملها الهدام على غير وعى منهم ..

وقلت لصاحبى دعنا نبدأ بالغرور ولكنه ود أن لو بدأنا بالنفاق الذى يرى فيه أكبر آفة نفسية منتشرة فى بلادنا ولكننى لم أقره على هذا الرأى وذلك لاننى لا أرى النفاق ألا تفريعا عن ظاهرة نفسية أكثر عمقا وعموما وتلك هى ظاهرة الغرور . والغرور أمارة ضعف فى النفس وانهيار فى الثقة الذاتية وتفاوت واسع بين القدرة والطموح ، وبين الامل والواقع وبين الحقيقة والخيال

وآية ما نقول انك لن تعدم العثور على رجال من ذوى

(*) نشرت فى ١٩٥٠/٨/١٥

الشخصية القوية والعقل الراجح لا يرون بدا من استخدام النفاق مع علمهم بما يفعلون وتألمهم له أو سخريتهم الدفينة منه وذلك عندما يلقى أحدهم فى الحياة رجلا أو شابا مغرورا تقضى الضرورة باستئناسه فلا يرى صاحبنا بدا من أن يتملق غروره وأن يرضى كبرياءه الكاذب بألفاظ كأنها لم تخلق الا لاخفاء رأيه الحقيقى أو احساسه الدفين

وللغرور مظهران أولهما ايجابى وثانيهما سلبى

فأما المظهر الايجابى فهو ذاك الذى يطالعك عندما ترى صاحبه وهو الحدث الغض ، أو الكهل التافه يتحدث عما وهب من ملكات أو أوتى من قدرة أو رزق من جرأة وهو لا يدرى مبلغ ما يثيره حديثه عند الاذكياء من سامعيه من سخرية قد يجابهونه بها اذا امنوا جانبه وقد يكتمونها على مضض اذا دعت الضرورة

لقد لقيت يوما شابا رخو الاهاب قضت تصاريف الحياة ان الاينه وأنا الشرس الملمس لان بين يديه حياة أناس عهدوا الى بالدفاع عنها،وما كادت تمضى دقائق حتى ينهض فتانا وكأنه الغضنفر الهصور الى جوار مكتبه الذى يتكىء على حافته براحتيه ويحنى الى الامام قليلا قوامه المشوق أو غير المشوق ويصيح بأعلى صوته لمن يحدثه بأن الرجل الذى يستطيع أن يخدعه لم يخلق بعد،وأنه الآمر الناهى فى هذه الساحة لو شاء أحيا ولو شاء أمات ، ولو شاء أبقى ولو شاء ...؟ ثم يعود الى الجلوس بعد أن يكون زبده قد تطاير كثغاء البعير وكل ذلك يجرى وبالنفس ابتسامة مرة دفينة. لا تبلغ حد الغضب وان تكن أبعد الاشياء عن الرضا ، وهى ابتسامة اشفاق لا تحمل غير الاحتقار .
وليس هذا الاحتقار دفاعا عن النفس ، وانما هو حكم

عقلى صارم على نقص فاضح فى ذكاء هذا الفتى وما هو الذكاء أن لم يكن الاحساس الصادق بما يمكن ان تحدثه تصرفاتنا أو أقوالنا من أثر لدى الغير ؟!

ولقد يتخذ هذا الغرور الايجابى مظهرا خبيثا فاذا بك ترى صاحبه المنهار يبدى نوعا من الاستهتار أو الاستخفاف أو الاحتقار لكل ما يحيط به وكأنه لا يعبأ بشىء ولا بأحد مع أن النملة تقض مضجعه ، والظل يضنى خياله ، واللفظ يكوى شغاف قلبه وهذا هو النوع العميق المدمر لانه يبدو كاليأس وهو لوعة أو كالتجرد وهو حرص أو كالراحة وهو ألم دفين لا تهدأ له نار ، وأمثال هذه النفوس تحزن ولكنها لا تثير ، وذلك لانك لا تكاد تخالفها فى الرأى حتى تسلم قيادها وتلزم الصمت ان لم تقرك على ماترى من قيم تستحق الاعجاب بدلا من الاستهتار أو الاستخفاف أو التحقير

وأما المظهر السلبى للغرور فهو ذلك الذى تلمسه عند بعض النفوس عندما تطريها بلفظ أو تطريها بحركة أو تهدهدها بايماءة فاذا بها تنتفض كالعصفور المبلل لتطلق أجنحة من زغب تحسبها أجنحة النسور الضارية وهى فى الحق كزعانف السمك • وانه لمن الشاق أن ينجو المرء من هذه الافة وما يستطيع ذلك غير ذوى العقول المهيمنة والشخصيات الدامغة أولئك الذين لا يؤذيهم فى شىء ان يقول عنهم الغير ما يريدون من قدح ولا يغويهم ما ينثرون من اطراء لعمق ثقتهم بأنفسهم وتحصنهم فى هذه الثقة حتى لتراهم لا يقنعون بالتواضع بل يهاجمون أنفسهم وكأنهم يداعبونها ولو أنك استطلعت ما يكمن فى حناياهم لوجدت ايمانا راسخا بأن سامعيهم لن يصدقوا شيئا مما يقولون • وموضع النقص عند هذا الصنف القوى من الرجال

هو أنهم يفترضون الذكاء عند الغير مع أن ســـوء الظن عصمة ..

وطرب الغرور هو مصدر التملق وبمقدار انتشار هذا الغرور فى احدى البيئات ينتشر التملق لان التملق لا يكون الا ارضاء لغرور الغير ولكم من مرة يعبث الخبثاء بهـــذا الغرور وان تفاوت هذا العبث تبعا لقدرة العابث فى اخفاء صنعته أو تبعا لمدى غباء من ينصب عليه ذلك العبث

الغرور تمشدق مضحك أو طرب ساذج للتملق ، وهو آفة يمكن القول بأنها تطرد اطرادا عكسيا مع نضج النفس وقوة الشخصية والتعمق فى الثقافة

الاستهتار

وأصر صاحبى على أن يكون حديثنا اليوم عن الاستهتار ، وحسبته يقصد بذلك الى الناحية الاخلاقية ، اذ يستعمل لفظ الاستهتار بمعنى التبذل والعربدة والانحلال فيقال شاب مستهتر وفتاة مستهترة ، ولكننى أكبرته عندما رأيته يتعدى هذا المعنى الدارج الى ما هو أعمق منه أثرا وأشد فتكا بالنفوس ونعنى به الاستهتار الذى يفيد عدم الاحساس بالمسئولية والتهاون فى الدقة سواء أكان ذلك فى الحياة العملية أم فى الحياة العقلية ، وان يكن مرده فى الحالتين الى حالة نفسية تنم عن انعدام النظام العقلى الذى يسيطر على العمل والفكر معا

وفى الحق ان الاستهتار بالمعنى النفسى خطر على الافراد والامم كالاستهتار بالمعنى الاخلاقى وذلك لانه يتناول الحياة بشقيها جدها وهزلها ، ولربما كانت هذه الآفة هى السبب الاول للفشل فى الحياة وذلك لانه كثيرا ما تأتى أضخم النتائج عن أتفه الاسباب ، ولقد يطيح تهاون يبدو خفيفا بثمرة العمر ، والتهاون الاخلاقى قد يشفيه الزمن ان لم يشفه البشر .. واما التهاون النفسى فلا يزيده الزمن الا رسوخا

(*) نشرت فى ١٩٥٠/٨/٢٩

حتى يصبح طبيعة ثانية وحتى يقوض الحياة من أساسها

ولطالما اضنيت الفكر لكى أتعرف سبب انتشار هذه الآفة فى العالم الشرقى على نحو فادح لا نجده عند الغربيين حتى لرأيتها تلاحق الكثيرين ممن يرحلون من مواطنينا الى بلاد الغرب بالرغم من البيئة المحيطة التى تستنكرها أشد الاستنكار وتسميها لينا حينا وميوعة حينا آخر

والذى يبدو لى هو أن هذه الافة ترجع الى عدة عوامل بعضها اجتماعي وبعضها الاخر نفسى

فالاستهتار ضرب من اليأس والرهبة من الحياة وعدم السيطرة عليها وذلك لان الامل والاقبال على الحياة وروح الاستبشار خليقة بأن تعطى لكل شيء قيمة وأن تدعو الى الاهتمام بكل أمر كما تشحذ الهمة وتثير النشاط وتخلص العزم من الكسل الذى يكمن فى كل استهتار نفسى ..

واما عن سبب ذلك اليأس فانه وان يكن للعوامل الطبيعية كالحرارة وطبيعة الارض المنبسطة أثرها فى تكوين هذه الظاهرة النفسية الا أننى أعتقد أن العوامل الاجتماعيـــة أشد تأثيرا فى تكوين هذه الظاهرة ويكفى أن نشير فى ذلك الى اختلال سلم القيم نتيجة لرواسب كثيفة من عهود الظلام والى اتساع الهوة بين المثل الروحية التى تسبح فى الشرق وبين واقع الحياة المر وفى هذه الهوة تتساقط النفوس حيث يتلقفها يأس قاتم، ولكم من شاب تصطدم نزعته الخيرة بصخرة شرسة فيتحطم الامل فى نفســـــه واذا بالاستهتار يفترسه

***

الاستهتار اذن يأس نفسى ولهذا اليأس أسبابه التى تلعب فيها الحياة الاجتماعية الدور الاول ولكنه أيضـــا انعدام للنظام العقلى وتلك ظاهرة يفسرها فساد التربيـة

وفساد التعليم معا وما نريد أن نتمهل عند فساد التربية لوضوح الامر فيها ويكفى أن نذكر فى هذا السبيل أن الاباء والامهات لا يعرفون فى تنشئة أبنائهم معنى التربيـــة الاستقلالية التى تلقى على الطفل مسئولية الحيــــاة منذ نعومة أظفاره فيعودونه على العناية بجسمه وغـذائه ولباسه وترتيب كل ذلك وتنظيمه وتحمل عبئه ، ولعـل فساد التعليم أشد حاجة الى الايضاح وكل هذا الفساد أو معظمه يرجع الى ظاهرة واحدة وهى عدم الدقة فى المقابلة بين الالفاظ والمعانى ، وعدم الفطنة الى أن كل لفظ لابد أن يحمل قيمة محددة حتى يربى الفكر على وضوح الرؤية العقلية فلا يعود يرى ألفاظا بل يرى معانى ومجسمات

ان عدم المقابلة الدقيقة بين الالفاظ ومدلولاتها تعـود العقل نوعا من التهاون وهو ذلك الاستهتار النفسى الذى نرى فيه آفة مدمرة من آفات النفوس ، وفى اليوم الذى يخيل الينا اننا نستطيع أن نستعمل هذا اللفظ بدلا من ذاك دون أن نحس بأننا قد خنا أنفسنا يمكن القول بأننا لن نستنكف من أن نتهاون فى أداء هذا العمل أو ذاك وفى التعبير عن تلك الفكرة أو ما يقاربها وبمجرد أن تولد فى النفس بذرة الاستهتار لن تلبث أن تنمو وتتفتق

لقد يقول قائل ان اللغة وطريقة استخدامها لا تكون العقلية ولا تخلق الحالة النفسية ولكن مثل هذا الاعتراض لا يمكن أن يوصف بغير السذاجة وذلك لان اللغة هى فى الواقع مستودع الحياة البشرية وليس من شك فى أن اللغة تسمو وتنحط بقدر ما لاهلها من نظام عقلى ودقة فى الرؤية وصلابة فى السلوك وليس من شك فى أن الرجل الامى فى بيئة ذات لغة منظمة قد يصل مستواه العقلى الى

أعلى مما يصل اليه رجل يسمى متعلما فى بيئة ذات لغـــة غير منظمة

اننا لا نشكو في الشرق من الاستهتار الاخلاقى بقدر ما نشكو من الاستهتار النفسى • والاستهتار النفسى أصعب علاجا من الاستهتار الاخلاقى ، هو الداء العضال وهو كما قلنا الافة المستقرة فى الكثير من الحيوات الفاشلة

ان العقل المهيمن هو ذلك الذى يستطيع أن يقول الاشياء الكبيرة بألفاظ صغيرة وكذلك الخلق القوى هو ذلك الذى يدرك أن كبائر الامور قد تترتب على صغار الاســـباب فيعطى لكل شيء الاهمية الواجبة حتى ولو لم يتبين للنظرة الاولى نتائجه بل ودون أن يبحث عن هذه النتائج وبذلك تصبح العناية ويصبح الاهتمام والشعور بالمسئولية نظاما عقليا وسلوكا في الحياة مكتفيا بذاته جامعا بين بواعثه وأهدافه ••

الإغماء العقلى

الاغماء العقلى عبارة نود أن نسجل بها تلك الظاهرة النفسية التى نشاهدها كل يوم عندما نرى السيارات تدق فى الشوارع آلات التنبيه على مسافة خطوات من بعض المارة ومع ذلك لا يتنبه أولئك المارة ولا يفيقون من غفلتهم، أو عندما تحس وسط الزحام فى الترام أو القطار أن جارك قد وضع قدمه فوق قدمك دون أن يحس هو بشىء أو يفطن الى شىء ، ثم تأخذ فى سحب قدمك وهو مستمر فى شرود لبه وكأن جهادك لا يحرك أى عضل من عضلاته . أو عندما يقف الترام أو القطار وتحاول النزول فلا يتحرك جار ولا يفسح سبيلا ، وذلك لا عن عمد ولا شراسة ولكن لانه ذاهل عما حوله غارق فى نفسه ، أو متبلد رغم فراغ تلك النفس من كل ما يمكن أن يشغلها

الاغماء العقلى هو اذن تلك الحالة النفسية التى تصرف الافراد عن الفطنة الى ما حولهم والتنبه الى الاخطار التى تحيق بهم أو المضايقات التى ينزلونها بغيرهم وهى حالة كثيرا ما تلوح عضوية بحتة حتى لكأنها مجرد نقص فى قوى الافراد العصبية وفى قدرتهم على بذل ما تتطلبه يقظة

(*) نشرت فى ١٩٥٠/٩/١٢

الذهن وملاحظة العالم الخارجي من مجهود

ولقد ترددت فى أن أتحدث عن هذه الحالة النفسية فى مصر كآفة من آفات النفوس ، لان دخل الارادة فيها لا يبدو واضحا وهى أقرب الى أن تكون آفة ولكنها مع ذلك مصدر شقاء لاصحابها وللغير على السواء

لقد قلنا ان الاغماء العقلى يكاد يتخذ مظهرا عضـــــويا والسبب فى ذلك هو أنه وان يكن ناشئا عن ضعف جثمانى راجع للامراض ولسوء التغذية أو الى تسلط الهموم وطغيان الافكار الثابتة الا انه لطول ملازمته للافراد ينتهى به الامر الى أن يصبح عادة أو صفة طبيعية ملازمة على نحو ما يتصف الماء بالميوعة مثلا أو الحجر بالصلابة

والذى لا شك فيه أن للضعف الجثمانى أثرا بعيد المدى فى تلك الحالة النفسية المحزنة وذلك لما يحدث هـــــذا الضعف من تأثير على الجهاز العصبى الذى تصدر عنه اليقظة العقلية ، ولا أدل على ذلك من أنك لو فاجأت أحد أولئك الذاهلين بسؤاله عما يشغله لما استطاع أن يعطيك جوابا محددا ، فهو ذاهل دون أن يعرف سبب ذهوله ولا مصدره . ولقد يخيل اليه أحيانا أنه يفكر فى شىء بينما هو لا يستبين فى وضوح ذلك الشىء وانما يغشى عقله ضباب يشله عن الرؤية .. انه فى نوم أو حلم يقظة .. انه فى حالة اغماء عقلى ..

الاغماء العقلى مرتبط اذن ارتباطا وثيقا بالجهاز العصبى وليس من شك فى أن هذا الجهاز يبدو أقل قوة فى البلاد الحارة منه فى البلاد الباردة كما أن لنظام المعيشة ووسائل الحياة وغنى أو فقر التغذية وسلامة الجسم من الامراض أو اصابته بها أثرا بالغا فى قوة ذلك الجهاز أو ضعفه

وضعف الجهاز العصبى يحرم الفرد من السيطرة على

ما يشغله من هموم فتراها تستغرقه حتى لتستبد به الفكرة وتلازمه ملازمة الظل للعود ، لا يستطيع منها فكاكا واذا به فى اغماء عقلى فلا يقظة فى عقله ولا ملاحظة لما يحوطه بل ولا احساس ، ولعل لكثرة الهموم التى تسوقها الحياة فى بلد كمصر نتيجة للصعوبات الاقتصادية والاجتماعية التى يلقاها الافراد دخلا كبيرا فى تفشى تلك الحالة النفسية التى كثيرا ما تؤدى الى أنواع من سوء التفاهم بين الافراد اذ يظن المرء بأخيه غلظة فى الطبع أو سماجة فى الخلق أو ضعفا فى الذوق أو وقاحة فى المعاملة بينما الحقيقة هى ذلك الاغماء العقلى الذى قد لا يستحق المصاب به غير الرثاء والاشفاق ..

والاغماء العقلى بعيد الاثر فى حياة الافراد والجماعات وذلك لا لأنه يسىء الى العلاقات الاجتماعية بين النـــاس فحسب بل ولانه يحرم الافراد والامم المصـــابة به من السيطرة الحقيقية على العالم الخارجى .. اذ أن الوسيلة الاولى لتلك السيطرة هى القدرة على الملاحظة . وماالادوات العلمية الا وسائل لمساعدة تلك القدرة التى بفضلهـــا يكتشف العلماء قوانين الطبيعة وقوانين المادة، وبواسطة تلك القوانين تسيطر الانسانية على قوى العالم المادى والروحى

***

وليست الفنون الجميلة بأقل تعرضا للتأخر بين المصابين بالاغماء العقلى من الحياة المادية وذلك لأن مصدر ازدهار تلك الفنون انما هو الفطنة الى العالم الخارجى وما يحوى ذلك العالم من آيات الجمال ، ثم القيام بنوع من الاستطراف بين النفس البشرية وآيات ذلك الجمـال . وكيف لنفس مصابة بالاغماء أن يجرى الاستطراف بينها وبين ما يحوطها

لقد قال الفيلسوف الفرنسى « جان جاك روســـو »

انه لا بد لنا من كثير من الفلسفة لكى نلاحظ ما نراه كل يوم واننا لنود ان نكون أكثر تواضعا لنقول اننا فى حاجة الى شىء من يقظة العقل والحواس لكى نلاحظ ما يحيط بنا ولكى نكيف سلوكنا على أساس تلك الملاحظة

ان باستطاعة من يشاء أن يقف فى زاوية أى طريق من طرقنا ليتفرس فى أوجه المارة ولسوف يرى عندئذ مدى انتشار تلك الظاهرة المحزنة التى نسميها بالاغماء العقلى وله بعد ذلك أن يبحث عما شاء من أسباب وانه لن يهتدى الى غير ما ذكرنا من عوامل طبيعية وصحية واقتصادية واجتماعية تجتمع وتتداخل لتولد تلك الظاهرة التى نظن أنها قد وصلت من الاستفحال الى حد لا مثيل له فى أوربا مثلا

لقد يصح أن يقال ـ كما أسلفنا ـ أن الاغماء العقلى ليس آفة نفسية ولكنه محنة ، ومع ذلك فان الكشف عن حقيقته قد يؤدى الى نوع من التسامح فى معاملة الافراد بعضهم لبعض . ولو أننا انتهينا من هذا الحديث القصير الى هذه النتيجة المتواضعة لاطمأنت النفس الى أن الجهد لم يضع هباء

أزمة الضمير

يتحدث جميع المصريين فى هذه الايام عن عدة أزمات يهتز لها كيان الوطن ومصيره ، فهناك الازمة الوطنية والازمة الاقتصادية ، والازمة الدستورية ٠ وحدثنا أخيرا عميد الادب العربى الدكتور طه حسين عن أزمة الادب ٠ وانه ليحزننا أن نلفت النظر اليوم الى أزمة أخرى لا تقل عن الازمات السابقة فداحة ولا عمقا وهى أزمة الضمير التى قد تكون سببا وقد تكون نتيجة للازمات السابقة كما أنها قد ترجع الى عوامل أخرى تنفعل بها أو تؤثر فيها

فأما عن وجود تلك الازمة فذلك ما يلاحظه كل فرد فى كل بيئة ، وما تكاد تمر ساعة من ساعات النهار حتى تسمع الشكوى ترتفع من انعدام الضمير عند معظم من تلقاهم ، فالمواطن يشكو من الموظف والموظف يشكو من زميله والمشترى يتخون البائع والبائع يود أن لو افترس المشترى وكذلك الامر بين المريض وطبيبه والمحامى وموكله وصاحب العمل وعامله والمالك والمستأجر ٠٠ ألا ترى أحدا يطمئن الى ضمير الاخر ويكتفى برقابته حتى ليكاد المرء يحس أنه

(*) نشرت فى ١٩٥٢/٨/١٥

يتخون نفسه ولا يطمئن الى سلامة قيامه بواجبه نحوها ، وتلك حالة خليقة بأن تقوض الحياة الاجتماعية من أساسها

ولو أننا حاولنا أن نشخص أسباب تلك الازمة الخطيرة لتشعبت بنا السبل .. فالروحانيون ورجال الاخـــلاق يزعمون أن سببها الاول هو ضعف سلطان الاديان ومبادىء الاخلاق على النفوس ، ولكنك مع ذلك لن تعدم السـماع عن اللصوص الذين يزاولون عملهم فى دور العبادة ذاتهـا كما لا تعدم سماع من يردد آيات الكتب المقدسة ووعـد الله ووعيده ومع ذلك لا يلبث من يرددها أن ينقلب الى سب جاره أو تمزيق عرضه وأحيانا السخط والتمـرد على القدرة الالهية ذاتها اذا مسه الضر - وازاء هـــذا التناقض يرى بعض المفكرين الاجتماعيين أن القدوة والمثل الصالح هما اللذان يغرسان قوة الضمير فى النفس البشرية عن طريق اثارة الاعجاب وذلك لان النفس البشرية نزاعـة بطبيعتها الى التسامى والطموح بحكم حبها لذاتها ومن هنا يرون فى تدريس حياة عظماء الرجال ذوى الضمائر الصلبة وسيلة فعالة لتنشئة الشباب

ومن المفكرين الماديين من يرى أن قوة أو ضعف الضمائر لا ترجع الى الروحانيات ولا المثل المقتداة ، وانما تـكيف تبعا للنظم الاقتصادية والسياسية السائدة فى الامم المختلفة فحيث تستقر تلك النظم وتتحقق العدالة التى تكفـل لكل ذى حق حقه بالطرق المشروعة تستقيم الضمائر ولا يتساق الافراد الى النفاق والفساد والالتواء لمواجهة أعباء الحيـاة ومع ذلك يأبى بعض المفكرين الاخرين أن يأخذ بهذا الرأى أيضا فيزعم أن النظم مهما كانت سليمة فى ذاتها لن تلبث ضمائر المواطنين الفاسدة أن تتلفها عند التطبيق وتحيلها شرا مستطيرا . وكم من سياسى ينادى بأن العبرة ليست

بالنظم فى ذاتها وانما العبرة بسلامة ضمائر المواطنين وصرامتها وانك مالم تصلح الضمائر فلا جدوى فى اصلاح ..

وفى الحق أنك قد تلتمس شيئا من العذر للرجل الذى يفسد الظلم أو الفقر ضميره ولكنك مع ذلك لا تدرك كيف تفسر فساد ضمير الظالم المسيطر أو الثرى المترف واذا كان الرجل الفقير أو الضعيف يكذب أو ينافق خوفا من الاذى أو جلبا للمنفعة فلماذا يكذب أو ينافق الغنى عن الناس أو المسيطر بجاهه وسلطانه . وكم من مرة تسمع الوعود والامانى من اناس لا يضطرهم الى بذلها شىء ولا أحد ثم تتمخض الايام عن كذب وعودهم دون أن تتبين سببا جديا لعدم الوفاء غير سوء الضمير ، وانهم يقولون بأفواههم ما ليس فى قلوبهم ولهوان ذلك التصرف على نفوسهم وضعف رقابة الضمير على أقوالهم وأفعالهم ..

هذه بعض مظاهر أزمة الضمير التى تنخر فى عظام الامة وتلك بعض أصولها المتشعبة فى جميع نواحى نشاطنا البشرى وهى تستحق بلا ريب البحث والعلاج بقدر ما تستحق الازمات الاخرى وان كنا نعترف بأنها أكثر تلك الازمات تشعبا وأشقها علاجا دون أن يمنعنا ذلك من الدعوة الى امعان النظر فيها لعلنا نخفف من حدتها ويكون فى هذا التخفيف ما يساعدعلى حل الازمات الاخرى التى وان تكن مظاهرها أكثر مادية ووضوحا من أزمة الضمير الا أنها لا تفوقها أذى ..

القسم الثالث

فى السياسة والاقتصاد

وظائف الدولة

قرأت فى مجلة «الثقافة» مقالا عن تدخل الدولة يقول كاتبه انه راجع تاريخ الهند والصين واليونان فى العصور القديمة ، فوجد أن تدخل الدولة فى حياة تلك الامم أدى الى انحطاطها ، ولكننى لا اعرف فى تاريخ تلك البلاد انه قد قامت بها فى العصور القديمة حكومات موحدة ، وانه قد كان هناك تدخل من تلك الحكومات . وانا اترك جانبا الهند والصين ، فتاريخ تلك البلاد القديم لا أعرفه على وجه واسع دقيق على نحو يمكننى من الحكم على علاقة الدولة بالفرد ، واما اليونان فأنا أعلم انه لم يكن بها قديما غير مدن كأثينا وأسبرطة وطيبة ، وكانت كل مدينة تكون دولة . وفى أهم تلك المدن وهى أثينا كان الشعب هو الدولة ، فالشعب كان الحاكم لنفسه المتدخل فى أمر نفسه ، وكان فى هذا مجد أثينا وقوتها لا ضعفها وانحلالها .

واما القرون الوسطى فأمرها معروف ، اذ فيها ساد النظام الاقطاعى فلم تكن هناك دول ، واذن فلست أفهم كيف تدخلت تلك الدول التى لم توجد فى حياة الشعب؟ وانما الذى نعرفه هو ان « اتحادات المهن » هى التى

(*) نشرت سنة ١٩٤٣ .

وجدت وتحكمت فى الافراد

بقيت العصور الحديثة ، ومن الغريب ان يقول الكاتب انه لم يوجد « مؤلفا ولا مشرعا ولا كاتبا » دعا الى تدخل الدولة بصراحة . وانا طبعا كنت أتمنى أن أكون المجلى فى هذا الميدان ، ولكننى لسوء الحظ قد سبقت اليه . سبقنى اليه عشرات بل مئات من كبار المفكرين . سبقنى شفلييه ، ولويس بلان ، وكورنو ، وروبرتس ، ولاسال وفنجر ، وكثيرون غيرهم ممن يجدهم الكاتب الفاضل فى جميع الكتب التى تتحدث عن تاريخ المذاهب السياسية والاقتصادية (١)

وانا بعد لست بحاجة الى أن ألفت النظر الى مافى الاراء المبتسرة من خطر ، وليس أقتل لنهضتنا الحالية من النقل عن الاوربيين فى غير فهم وأضح لاعتبارات التاريخ والبيئة . فما قاله جوستاف ليبون من سر تقدم الانجليز السكسونيين وتخلف الشعوب اللاتينية كلام قديم قلما تجد فى أوروبا اليوم من يؤمن به ، فالزمن قد تغير ، وجميع الدول تسير الان راضية أو كارهة نحو التدخل فى كافة مرافق الحياة . حتى الانجليز أنفسهم فى سبيل العدول عن مبدأ الحرية ، حتى لنستطيع ان نقول ان حزب الاحرار قد مات فى انجلترا حيث ولد ، وان نظريات سمث وريكاردو وغيرهما قد دخلت فى حكم التاريخ . ثم اننا غير تلك الدول : تاريخنا غير تاريخهم ، وتربيتنا غير تربيتهم ، وأخلاقنا غير أخلاقهم ، وليس الامر أمر مناقشات نظرية وتعميمات لا حق لنا فيها ، وانما الامر أمر حقائق واقعية

---

(١) « تاريخ المذاهب الاقتصادية » **Histoire des doctrines économiques par Ch. Gide et Ch. Ritst** حيث توجد من صفحة ٤٨٥ الى صفحة ٥٣٥ فصل من «اشتراكية الدولة» التي سميت تدخل الدولة

وانه وان يكن من المفهوم ان المجلات كالثقافة او غيرها ليست منابر للتدريس ، الا اننى مع ذلك سأحاول ايضاح معنى تدخل الدولة فى حدوده وغاياته ، ولعله يكون من واجبنا وواجب غيرنا من المشتغلين بالمسائل العقلية ان يوضحوا السبل ويحذروا من الاخطاء ، حتى لا تفسد الغرائز والشهوات الفطرية حياتنا العامة

مبدأ تدخل الدولة لم يعرف الا فى النصف الاخير من القرن التاسع عشر ، وقد كان ظهوره كرد فعل لمذهب الحرية فى الحياةالاقتصادية . ولكى نخرج من الجدل النظرى الذىاشتبك فيه أنصار وخصوم كلمن المذهبين، دعنا ننظر فى بساطة الى وظائف الدولة لنحدد موضوع الخصومة ..

هناك وظائف ثلاث لا ينازع أحد فى وجوب نهوض الدولة بها وهى : (١) الامن الذى يحققه البوليس والخفراء (٢) سلامة الوطن التى يحميها الجيش (٣) تطبيق القوانين باشراف القضاء

ولكن هذه الوظائف ليست كل شىء فى حياة الامة ، فثمة الحياة الثقافية التى ينهض بها التعليم ، والحياة الاجتماعية بما تتبع من اقامة التوازن بين الطبقات المختلفة ورعاية حقوق كل طبقة ، واخيرا الحياة الاقتصادية من انتاج وتداول واستهلاك

فأما الحياة الثقافية ، فلستأدرى من الذى يستطيع أن يدعو الحكومة المصرية الى عدم التدخل فيها حتى لا تنحط الامة ؟ ! يقول الكاتب ان الجامعات فى انجلترا من عمل الشعب . قد يكون . ولكن ماذا يريد أن نعمل فى مصر ؟ هل ندعو حكومتنا الى أن ترد جامعة فؤاد(١) الى حالتها الاولى لتظل جامعة أهلية ؟ هل نطالبها باغلاق

(١) جامعة القاهرة الآن

جامعة فاروق (١) لتترك الشعب يفتحها متى شاء ؟ ولقد استشهد الكاتب برأى لوزير الشئون الاجتماعية عن وجوب نهوض الشعب بحركة التعاون .طبعا يجب على الشعب أن يكون تلك الجمعيات ، ولكن أما ترى أن الوزير شديد الاهتمام بقانون التعاون وببنك التعاون ، وبتنظيم التعاون ، وبمجلة التعاون التى يحاجنا الكاتب بآرائها ؟! وما معنى كل هذا ؟ أليس هو تدخل الدولة الذى سبقتنى اليه الحكومة ؟! ثم أو ما ترى أن الحكومة الحاضرة سياستها كلها تقوم على التدخل فى كافة مرافق حياتنا التى أصابها ركود الاهمال الحكومى ؟ والتعليم بنوع خاص ، ألسنا نرى الدولة تهم بأن تتدخل فيما يفزعنا أن تتدخل فيه . لقد اعتزمت دولتنا ان توجه الاجيال القادمة الى ميادين النشاط المختلفة التى يصلحون لها ، فمنهم من سيوجه الى مدرسة ثانوية صناعية او تجارية او زراعية أو نظرية ، وهذه خطوة شهدت الكتاب والسياسيين بل الأفراد العاديين يقتتلون حولها فى فرنسا أيام الوزارة الاشتراكية وزارة ليون بلوم ، التى لم تجرؤ ان تجعل « التوجيه المهنى » اجباريا مكتفية بجعله مجرد نصيحة تسدى للأولاد والآباء . واذا كنا قد وصلنا من التدخل فى التعليم الى هذه الدرجة او سنصل فهل يأتى اليوم أحدنا فيقول ان أحد وزرائنا يحث الشعب على العمل ، وبذلك تكون سياستنا الآن عدم التدخل ؟! هذا فهم غريب وفقر فى ملاحظة التيارات العامة فى سياستنا . وأما فى انجلترا أو أمريكا ، ففى البلاد الأولى اذا كانت وزارة المعارف لم تنشأ الا سنة ١٨٩٩ فليس معنى هذا انه لم تكن هناك هيئات حكومية تشرف على التعليم العام ، وكذلك الامر فى البلاد الثانية فليست هناك

(١) جامعة الاسكندرية الان

وزارة المعارف لأنهم تركوا التعليم لاختصاص السلطات المحلية فى كل ولاية . ثم ماالنا وانجلترا أو أمريكا . لنكن فى بلادنا . ماهى حالتنا وكيف نقوم الفاسد فيها ؟ أنتركه للشعب أم ندعو الحكومة الى العمل ؟ هل نترك الشعب يمحو الأمية وينشر التعليم المهنى ويؤسس الجامعات ؟ أى عاقل يقول هذا القول !

وفى الحياة الاجتماعية نرى أن مصر بلغ فيها الظلم الاجتماعى حدا كبيرا ، وما أنا بحاجة الى ان أثير القارىء بوصف حالات الفقر وحالات الثراء التى نلاحظ جميعا ما بينها من تفاوت مؤلم ، واذا كان العالم كله قد سار نحو التدخل لانصاف الطبقات المظلومة ، أنأتى نحن اليوم ونقول للدولة خذى بمبدأ الحرية ، مبدأ سمث وريكاردو ودعى الفرد يعمل والتجارة تمر ؟! لقد أسفرت تلك النظرية عن الحالة التى يعانيها كثير من الشعوب ، وياليت القوى كان قويا بنفسه ولكنه قوى بالوراثة ، فصاحب رأس المال يستغل العامل ، والمالك يستغل الفلاح ، والناشر يستغل الكاتب ، وليس لهؤلاء الا أن تحميهم الدولة . لقد وضع العالم المتحضر تشاريع العمال ، وهذا هو التدخل ، واستخدم نظام الضرائب لتحقيق العدل الاجتماعى ، وهذا هو التدخل ، وأقام الهيئات تفصل بين صاحب العمل والعامل ، وهذا هو التدخل . والدولة بعد لم تعد حاكما مستبدا بل اداة تنفيذ لارادة الأمة . ثم من الذى سيضمن للفرد علاجه من المرض وقوته اذا أدركته الشيخوخة ، او العاهة او البطالة ، أنترك ذلك للشعب ؟ عجيب هذا المنطق ، منطق يكذبه الواقع ويكذبه العقل السليم

بقى النشاط الاقتصادى ، وهنا تدور المعركة ، ولكل فريق حججه التى تستحق النظر . فأصحاب

الديمقراطية الحرة يرون أن المنفعة الشخصية هي أهم ضامن للنجاح في الحياة الاقتصادية ، والدولة كشخصية معنوية ينقصها هذا الحافز ، وهم يريدون أن يتركوا الفرد ينمي في نفسه روح المباداة والقدوة على تحمل المسئوليات حتى يربى تلك التربية الاستقلالية التي أشار اليها الكاتب ، ولكن المصلحة الفردية مصلحة أثرة مدمرة ، فهناك مصلحة الأمة ومصالح الافراد الآخرين ، فاذا تعارضت مصلحة الفرد مع مصلحة الجماعة أو مصلحة الفرد مع مصلحة فرد آخر ، من يوفق بين هذه المصالح ان لم تكن الدولة ؟ انظر مثلا الى شركات الاحتكار كشركات الماء والكهرباء ببلادنا ، ماذا يكون مصيرنا اذا لم تتدخل الدولة لحماية مصالحنا نحن المستهلكين ؟ ثم من قال ان المصلحة المباشرة اذا انعدمت فشل كل مشروع اقتصادي . أو ما ترى الى الشركات المساهمة كيف يديرها عضو منتدب بمكافأة ، ويصل بها الى ذروة النجاح بل أو ما ترى الى جمعيات يديرها رئيس لا يكسب منها شيئا يذكر ومع ذلك نجحت أى نجاح ! فكر مثلا في لجنة التأليف (١) وأبعد من ذلك دلالة الجمعيات الخيرية ، وها هنا الى جوارى مستشفى المواساة الذى تفاخر به الاسكندرية مدن أوروبا الكبرى . أو ما تعلم أن الذى بناه رجل خير طيب الله ثراه كان وكيلا بالجمرك بالاسكندرية ؟! وبقيت حجة أخيرة ، تقول ان الأفراد أو الشركات أقدر على الادارة من موظفى الدولة ، ولكن ها هى السكة الحديد فى مصر ، وها هى شركات النقل ، من يستطيع ان يزعم أن شركات النقل أنجح من السكة الحديدية عندنا ؟

(١) المقصود لجنة التأليف والترجمة والنشر التى انشأها المرحوم الدكتور احمد امين مع عدد من الادباء

والآن فلننظر الى أحوالنا الداخلية . ألدينا ثروات معدنية ، وأراض يمكن ان تستصلح ، وقوى كهربائية يمكن أن تولد ، ومشروعات عامة من ترع وطرق ومصارف وما اليها ، أنترك كل ذلك للشعب وننتظر حتى ينهض بها ؟! وهل نسينا مآسى كهربة مساقط أسوان ؟

وبعد كل ذلك نرى من يفكرون فى الهواء فيقولون : لا ، ان دعوة الدولة الى التدخل معناه عدم ثقتنا كأفراد بأنفسنا ، معناه أننا ضعاف ، وما الى ذلك من كلام فارغ . وأفرغ منه ما يجأر به البعض من حرية الفرد ،

لقد قلت فى مقال سابق لى أن من واجب الدولة أن تحمى الفرد من الدولة ذاتها بأحد أمرين ، فأما أن تعطى القضاء العادى حق حمايته من الحكومة حماية فعالة ، وأما أن تنشىء قضاء اداريا يختص بتلك الحماية (١) لاننا كما هو معلوم لا نملك الان هذه الحماية ولا تلك ..

لقد حان الحين لان نصحو الى الواقع الذى يحوطنا ، وكفى تخبطا فى نظريات غريبة لا نجيد فهمها

---

(١) انشىء القضاء الادارى ومجلس الدولة سنة ١٩٤٦

الميزانية والعدالة الاجتماعية

أثارت الميزانية فى داخل البرلمان وخارجه مناقشات حادة ولا غرابة فى ذلك فالميزانية صورة لسياسة الدولة العامة وذلك لانها بتعيينها لابواب الايرادات ونسبها وللطبقات الاجتماعية التى تدفعها من جهة وبتوزيعها للمصروفات على نواحى الحياة العامة المختلفة والمفاضلة بين هذه النواحى من جهة اخرى ، بهاتين الناحيتين ناحية الايرادات وناحية المصروفات تكشف الميزانية عن الاسس التى تستند اليها سياسة الحكومة القائمة

ونحب بادىء الامر ان نستبعد من المبادىء التى ثار حولها الجدل ذلك العنصر الذى سماه مكرم عبيد وغيره من المعارضين بالعنصر السياسى فهم يزعمون ان الحكومة القائمة قد حاولت ان تتآلف الانصار وأنه لم يكن عيبا على اية حكومة فى ان تحرص على ارضاء المحكومين الا اننا مع ذلك نرى ان الهوى الحزبى هو الذى يملى هذا العنصر محاولا ان يضعه فى المكان الاول من بين الاعتبارات التى أخذت بها الحكومة ، ومن الخير لهذه البلاد ان ترتفع عن هذا الهوى وان نقتتل حقيقة حول المبادىء التى تستحق ان يجاهد فى سبيلها شعب على ابواب تطور خطير فى حياته ..

(*) مناقشة آراء مكرم « باشا » نشرت فى ١٩٤٤/٤/٦

وفى واجبنا أن ندل القارىء على موضع الخصـــومة الكامنة وهو مستقر فى التعارض بين سياستين : سـياسة الديمقراطية الاجتماعية التى تحرص على سلامة التوازن بين طبقات الامة الاجتماعية المختلفة ، وسياسة الجشع المادى والحرص على الاسلاب والوصول بالتفاوت الصارخ بين البؤس والثراء فى هذه البلاد الى اقسى مراحله مما نخشى معه أن تضطرب حياتنا الاجتماعيـــــــة أخطر اضطراب ..

يخشى مكرم باشا وصدقى باشا تضخيم الميزانيــــة ويشـــفقان أن تضطر الحـــكومة الى ضغط هذه الميزانية بعد الحرب ضغطا قد لا تستطيعه وان اســـتطاعته ففى مشقة واخطار وهذا فى الحق تفكير عجيب فميزانيتنــــا لا تزال ابعد بكثير عما ينبغى ان تصل اليه ووزير الماليـة نفسه ينبئنا «أن الضرائب عندنا تتراوح بين ١٢٪ و١٣٪ و ١٤ ٪ ، فلو وازنا بين حالنا وحال البلاد الاخــــرى لحمدنا الله ، فان الضرائب عندنا مرنة ونستطيع أن نرفعها من ١٢ ٪ الى ١٥ ٪ الى ٢٠ ٪ الى ٢٥ ٪ دون ان نثير المولين » وهنا موضع الخصومة فصدقى باشا ومـــكرم باشا وامثالهما يخشون فرض ضرائب جـديدة وفى ذلك يقول مكرم باشا نفسه : « ليس مفهوما ان تلجأ الحكومة الى زيادة الضرائب والرسوم فى حين تبين أن لديها وفرا فى الميزانيات الاخيرة يتراوح بين ثمانية وعشرة ملايين جنيه سنويا » ولقد فكروا فى مقاومة الغلاء فاقتـــرح صـــدقى باشا عقد قروض عامة واقترح مكرم باشا بيع امـــلاك الحكومة على نحو واسع سريع مع دفع الثمن كله فورا، ومن الغريب ان يغيب عنهما معا ان رفع نسبة الضرائب الى مستوى لا نقول مماثلا لمستواه فى البلاد الاوربية بل مقاربا أو شبه متقارب من الوسائل الفعـــالة لامتصاص ما فى

السوق من وفرة فى النقد المتداول وهى من اقوى الأسباب فى غلاء المعيشة وفى اختلال التوازن بين حياة الطبقات الاجتماعية المختلفة حيث نرى العجز عن ضروريات الحياة بين الطبقات ذات الدخل الثابت من جهة والتبذير عن سعة عند محدثى النعمة الذين اثروا من دماء الناس فى المحنة الحاضرة (١) من جهة أخرى . فالنقود لا ريب سلعة كغيرها من السلع كلما كثرت ضعفت قيمتها ، ولقد رأينا بعض الحكومات تهلك جانبا من منتجاتها عندما تنزل كثرة تلك المنتجات بقيمتها ، ونحن الان لا نقول طبعا باعدام النقود وانما نقول بسحبها من التداول عن طريق الضرائب العادلة المعقولة ، ولا يجوز أن يمنعنا عن ذلك عدم استطاعتنا استخدام حصيلة تلك الضرائب فورا فيما نريد من مشروعات ، بل لعله يكون من الخير أننا لا نستطيع ذلك. فالذى نبغيه الان هو ان نحجز جانبا من الاموال المتداولة عن السوق ، وليكن هذا الحجز بايداعها احتياطى الدولة حتى اذا انتهت الحرب وجدنا لدينا من الرصيد ما نريد

ولكن هذا الحل لا يرضى صدقى باشا لانه لا يقبل دفع ضرائب جديدة ويفضل على ذلك عقد قروض تمكنه هو وأمثاله من استغلال أموالهم المكدسة بالبنوك ، ويكون هذا الاستغلال من دماء الشعب لان الدولة هى التى ستدفع لهم أرباح قروضهم ، وهى ستدفعها عن أموال تكدسها فى خزائنها بحكم أنها لن تستطيع الانتفاع بها الان ، وظروف الحرب تحول بيننا وبين تنفيذ مشروعاتنا المرجوة ، واما مكرم باشا فكل ما يحرص عليه هو ان تبيع الحكومة جميع املاكها وهو يشترط ان يدفع الثمن كله فورا ومعنى ذلك هو ان كبار الاثرياء هم الذين سينتهون بامتلاك اراضى

(١) أثناء الحرب العالمية الثانية

الحكومة أيضا ، وهذا فى الحق تفكير اثم فنحن فى بلاد يعلم الكل ما فيها من تفاوت بين فقراء الناس واغنيائهم ولقد جاءت الحرب فبالغت فى هذا التفاوت وافسدت من توازن الامة فكم من عزيز ذل وكم من حقير عز

وأعجب العجب أن ترى مكرم باشا الذى كان فيما مضى يفتخر بأنه ابن الشعب ، يناهض ذلك المبدأ العادل الذى يأخذ به جميع العالم المتمدين والذى يجب أن نقر الحكومة فى أخذها به بل ونطالبها بهذا الاخذ اذا توانت وهو مبدأ الضريبة التصاعدية على أن تطبقه الحكومة على كافة أنواع الضرائب بعد أن تقيم بينها نسبا سليمة وبعد أن تصل الى أوعيتها الحقة وتضمن صحة الجباية واقتصادها بفضل هيئة من الموظفين الشرفاء الاكفاء ، لا يريد مكرم باشا أن يطبق مبدأ التصاعدية على الضرائب العقارية فيقول « أما عن الضرائب العقارية فهناك صيحة بوجوب جعلها تصاعدية على نمط ضريبة الايرادفى أوربا وفى اعتقادىأن هذا القول على اطلاقه ليس صحيحا من الوجهة الفنية كما هو ضار باقتصادنا الاهلى » وذلك لانه لا يريد فيما يزعم أن يرهق ملاك الاراضى بحجة أن الاطيان الزراعية لا تعتبر أموالا مرنة كالاموال المستثمرة فى التجارة والاموال المنقولة التى تحتمل الضرائب أكثر من غيرها وهذه حجج مردودة وبخاصة فى بلادنا حيث يعلم الجميع أن كثيرا من الملكيات الكبيرة لا تستند الى سند تملك مشروع فقد أعطيت ضياع ومنحت اقطاعيات يوم كان والى مصر يمتلك جميع الاراضى كما هو معروف فى تاريخنا ، ونحن فى الحقيقة لا نعرف ببلاد العالم المتمدين كافة ضرائب مباشرة لا يؤخذ فيها بمبدأ التصاعد الذى يحقق العدالة الاجتماعية على أصح وجه، واذا كانت الاطيان الزراعية غير مرنة بحكم أنك لاتستطيع

أن تزيد غلتها الا الى حد لا تعدوه بعد أن تصل فى انفاقك عليها الى درجة ما تمشيا مع القانون المعروف فى الاقتصاد بقانون « الغلة غير المتناسبة » فهناك فى اتساع تلك الاراضى اتساعا غير معقول بين يدى المالك الواحد ما يعوض هذا القانون ، ويجعل التصاعدية مبدأ عادلا مشروعا من الاثم أن تناهضه ..

ومن الغريب أن يصدر مكرم باشا فى مقترحاته لمقاومة الغلاء عن نفس الروح التى تتجاهل مبدأ العدالة الاجتماعية فاقتراحه الاساسى الذى قد يغرى القارىء هو انشاء صندوق خاص تستخدم الدولة موارده فى دفع الفرق بين الثمن الذى تشترى به المنتجات والثمن الذى تبيعها به للمستهلكين ، ومعنى هذا هو أن الدولة ستتحمل عن جميع الطبقات الاجتماعية نفقات باهظة . ونحن نعلم ما تتكلفه الدولة من شراء القمح على نفس النحو الذى يقترحه مكرم باشا . ولقد عارض هذا الرأى فى البرلمان نفر من النواب نراهم على حق ، وذلك لان من يستحق عون الدولة ليسوا جميع الناس بل من مستهم الحرب بأذاها فحسب واما من أثروا على حساب غيرهم فلسنا نرى على الدولة واجبا فى عونهم بل واجبها على العكس من ذلك أن تحملهم بنظام الضرائب العادل على تخفيف بؤس البائسين

ولقد كنا نفهم أن يماشى مكرم باشا وغيره المنطق الى نهايته فهم يثورون لرفع الحكومة لبعض الضرائب غير المباشرة كضريبة الجمارك وضريبة الانتاج وأجور المواصلات اذا جاز اعتبارها ضريبة ولكنهم فى الحقيقة لا يعارضون فى هذا الارتفاع لانه يمس الطبقات الفقيرة بل يعارضون فى الارتفاع لذاته بحكم أنه سيمسهم هم أيضا والا لوأنهم كانوا مخلصين لوجب أن ينادوا بمبدأ رفع الضرائب المباشرة

الى جانب مناداتهم بخفض غير المباشرة ، فعلى هذين النوعين من الضرائب وعلى نسبة كل منهما فى ميزانية الدولة تقتتل الاحزاب في أوربا، فالاحزاب الديموقراطية تهاجم الضرائب غير المباشرة لان دافعها فى النهاية هو المستهلك اذ يحصلها المنتج ان كانت ضريبة انتاج كما يحصلها التاجر ان كانت ضريبة تداول من المستهلك باضافتها لثمن البيع ، واما أحزاب كبار الممولين فتناهض على العكس من ذلك الضرائب المباشرة كضرائب الارباح التجارية وضريبة الدخل وغيرها ..

ولقد يعترض القارىء بقوله ولكن كيف ترفع اذن الحكومة بعض الضرائب غير المباشرة بينما هى لا تريد أن ترفع الان الضرائب المباشرة ؟

وللجواب على هذا الاعتراض الوجيه نلفت النظر الى أن وزير المالية قد أجاب هو نفسه فى بيانه الذى ألقاه بمجلس النواب .. فلقد قال عن رفع بعض الضرائب : « ردى على ذلك ان الضرائب التى زيدت اما أنها واردة على كماليات وارتفاع السعر فيها ليس من شأنه أن يكون له أثر غير محمود العاقبة فى مستوى الاسعار بوجه عام . واما أنها واردة على وجوه يتعذر فيها نقل الضريبة من المنتج الى المستهلك ، اما لشدة ضآلة الزيادة فى حد ذاتها بالنسبة لسعر السلعة واما لتحديد السعر الذى تباع به للجمهور السلع المفروضة عليها الضريبة »

ذلك عن الرفع ، وأما عن عدم زيادة الضرائب المباشرة فقد أجاب بقوله مخاطبا النواب « أشار بعض حضراتكم الى وجوب تحقيق العدالة الاجتماعية فى فرض الضرائب والى عدم التناسب بين الضرائب المباشرة وغير المباشرة . وردى على ذلك أن سياسة الحكومة كما يتضح مما تضمنه مشروع

الميزانية المعروض على حضراتكم يرمى الى تحقيق هـــذه العدالة وهذا التناسب • وقد خطونا خطوة أخرى فى هـذه السبيل بعد تقديم هذا المشروع بمناسبة الغاء ضريبـــة الصادر • وستوالى الحكومة السير فى هذا الطـريق حتى تتحقق هذه العدالة كاملة فى نظام الضرائب بحذافيره »

ثم أضاف « على أنه يجب أن يلاحظ أن عهدنا بنظام الضرائب المباشرة بمعناه الشامل لا يزال قريبا ، اذ هو لا يرجع الى أبعد من سنوات تعد على الاصابع وانه لم يكن يسعنا أن نصل اليه طفرة واحدة بل لابد من التدرج ليألف الناس هذا النوع الجديد من الضرائب ولتستوفى أداة الجبـاية ما ينبغى لها من نظام ومران لا يمكن أن يتوافرا الا مع الزمن » وهذا قول صحيح فمن الواجب قبل أن نصلح من نظام ضرائبنا المباشرة أن نضعها على أسس فنية سليمة وأن نضمن تنفيذها فى شرف وأمانة • ولكى نقرب الى القارىء معنى ما نقصد ، نضرب مثلا بضريبة المهن الحرة التى نادى الشمسى باشا باصلاح أساسها فهى تجبى الان من الطبيب والمحامى والمهندس مثلا بنسبة ايجار المسكن ومحل العمل فتكون ٧ر٥ ٪ اذا كان السكن غير محل العمل ، ١٠ ٪ اذا كان السكن ومحل العمل فى مكان واحد • وهذا أساس أو كما يقول علماء المالية وعاء واضح الفساد • ومن الواجب أن يكون الاساس أو الوعاء هو مقدار الدخـــل الحقيقى لصاحب المهنة • ولكن كيف السبيل الى ذلك ؟ أو ما يحس القارىء بما فى الامر من صعوبة ، وهـــلا يرى مع وزير المالية أن من الواجب أن نستوثق أولا من أداة الجباية أى من موظفين أكفاء شرفاء يضمنون للدولة ما تستحق من ضريبة بزياراتهم التفتيشية الدقيقة النزيهة كما يحدث فى انجلترا الان ؟

مناقشة آراء صدقى باشا :

خطوة جديدة نحو العدالة الاجتماعية

نشر صدقي باشا منذ أيام كلمة عن الضريبة التصاعدية يقول انها هادئة بعيدة عن كل مرمى سياسى ولكنها فى الحق هادئة هدوء الماء الراكد • ومن عجب ان يهاجم صدقى باشا هذه الضريبة باسم العدالة الإجتماعية ونحب بادىء الامر أن نشق الحجب عن دوافع صدقى باشا الحقيقية لان من واجبنا ان نهدى القارىء الى كلمة الحق : دافع صدقى باشا دافع مزدوج شخصى وسياسى فأما الشخصى فلانه من كبار الاثرياء وقد أخذت بنفسه شهوة المال فهو يقاوم مبدأ الضريبة التصاعدية لان الحكومة ستأخذ من ماله ومال أمثاله ، ما ترده على البائسين فى هذه الامة وما اكثرهم ، وقد حان الحين لتنتصف لهم حكومتهم من الحياة التى عضتهم بأنيابها • وأما الدافع السياسى فخصومة صدقى باشا للحكومة • والخصومة السياسية شىء مقبول بل لعله واجب فى حياة الامم ، ولكنها عندما تصبح هوى يغالط لشهوة حزبية ، من الواجب ان نرد فى قوة ما ينشأ عن هذا الهوى وتلك الشهوة من خطر يهدد الحياة الكريمة العزيزة العادلة

(*) نشرت فى ١٩٤٤/٤/١٥

التى نبغيها لسكان هذا الوطن

يهاجم صدقى باشا مبدأ الاخذ بالضريبة التصاعدية فى ضريبة الاطيان الزراعية مع أن هذه الضريبة خطوة جديدة نحو العدالة الاجتماعية ، التى يطالب بها الرأى العام كله فى حرارة وايمان لن يقف دونهما شىء

يسلك صدقى باشا فى محاجته طريق المغالطة فهو لا يريد أن يؤخذ بمبدأ التصاعد الا على أساس الدخل العام، وما دامت ضريبة الدخل العام غير موجودة فى بلادنا ، فهو لا يسلم للحكومة بأن تأخذ بهذا المبدأ فى أنــواع الضرائب المختلفة وتلك مغالطة بينة • فما الذى يمنع أن نأخذ به فى أنواع الضرائب القائمة ما دمنا نقيم التوازن العادل بين دافعى هذه الضرائب المختلفة • ولكن صدقى باشا يغالط ايضا فى حكمه على هذا التوازن ، فيدعى أن الضريبة التصاعدية قد فرضت على الاطيان الزراعيـــة فحسب ولم تفرض على غيرها من الضرائب ناســيا أو متناسيا أن ضريبة الارباح الاســتثنائية تجبى عن كل ربح تجارى أو صناعى بنسبة تصاعديه تصل الى ٧٥ ٪ وانها ستغل هذا العام ثلاثة ملايين جنيه على الاقل بينما الضريبة التصاعدية على الاطيان الزراعية لن تغل الانصف مليون • وبمجرد ان تناسى صدقى باشا هذه الحقيقة ، وبمجرد ان حاول اقامة فرق نظرى بحت بين ضريبـــة الارباح الاستثنائية والضريبة الاضافية على الاطيان ، أخذ يستحل لنفسه مهاجمة مبدأ التصاعد فى ذاته من جهة ، ومبدأ الاخذ به فى ضريبة الاطيان دون غيرها من جهـة أخرى • ومع ذلك فلنناقش آراءه ••

يزعم صدقى باشا ان الضريبة انما تفرض فى مقابل شتى الخدمات التى تؤديها الحكومة للمالك الزراعى وهى

خدمات لا تختلف باختلاف ضخامة الملك او قلته بل قد تكون أوفى أو أكثر نسبيا فى حالة المالك الصغير منها فى حالة المالك الكبير • وأنا بعد لا أعرف مبلغ كفاية صدقى باشا النظرية فى فلسفة التشريع وان كنت أعلم أنه من كبار الاثرياء ، ولكننى أعلم علم اليقين أن أحدا من ذوى النظر الذين لم يفسد الهوى نظرهم لم يقل ما يقوله صدقى باشا الان • فالضرائب لا تؤدى مقابل خدمات ، وبخاصة مقابل الخدمات الشخصية التى يقدرها كل دافع لها ــ الضريبة مساهمة فى الحياة العامة وتبرع اجبارى من الفرد للهيئة الاجتماعية التى ينتمى اليها وأساسها الحق ليس الخدمة المقدمة للفرد وانما هو تحقيق العدالة الاجتماعية ، وذلك لان الغنى انما يثرى من جهد الفقير ، والعمل هو منبع الثروات ، فالارض فى ذاتها لا تنتج شيئا ، ومن الواجب أن تكون المساواة فى دفع الضريبة لا مساواة عددية نسبية بل مساواة نفسية تصاعدية • يجب ان تكون المساواة فى الاحساس بما يشعر به الفرد من حرمان باستقطاع جانب من دخله ، وأنت اذا استقطعت من رجل ايراده السنوى عشرة جنيهات جنيها واحدا أشعرته بحرمان لا يحسه رجل آخر دخله مليون جنيه تستقطع منها نصف مليون لان ما يبقى له فيه ما فوق الكفاية ليحيا حياة مسرفة البذخ • ونحن حتى لو سلمنا جدلا لصدقى باشا بأن أساس الضريبة هى الخدمة لما استطعنا ان نفهم كيف أن المالك الصغير يستفيد من خدمات الدولة اكثر من المالك الكبير • هل للمالك الصغير تشق الترع وتعبد الطرق وتحفر المصارف ويرعى الامن ويذاد عن حياض الوطن حتى لا يغتصبه معتد هو وما فيه من ثروات ؟!

وصدقي باشا يدعي ان الكثير من الأراضي لم تزدد غلته أو أنه مثقل بالديون وهذه أيضا حجج لا تنهض • فالديون قد تثقل كل ثروة مهما كان نوعها منقولا أو عقارا • وأما عن الغلة فلسنا بحاجة الى ان نلجأ الى احصائيات عن نفقات الانتاج وغلة الارض والموازنة بينهما لان هناك دليلا لا يدفع عن زيادة تلك الغلة وهو زيادة الايجارات • فالمستأجر لا يمكن ولا يستطيع أن يدفع اليوم خمسة وعشرين جنيها ايجارا للفدان العادى بدلا من عشرة جنيهات اذا كانت نفقات الانتاج قد ارتفعت بحيث تستغرق الغلة

وصدقي باشا يشفق من أن تؤدى هذه الضريبة الاضافية التصاعدية الى انخفاض اثمان الاراضى الزراعية وهذا تفكير عجيب من رجل اقتصادى كصدقي باشا • ومن مصلحتنا جميعا ان تنخفض الاثمان ، لا أثمان الاراضى الزراعية فحسب بل وأثمان كل شيء فى بلادنا • ولقد وصلت أثمان الاطيان الان الى حد المضاربة وارتفاع تلك الاثمان معناه انخفاض قيمة النقود ، وسياستنا كلها ترمى الان الى رفع قيمة النقود ، ومحاربة الغلاء فى كافة مواده ••

وصدقي باشا يتساءل لماذا لم تفرض ضرائب تصاعدية اضافية على المبانى والأسهم والسندات كما فرضت على الاطيان الزراعية مع أن الاجانب هم المالكون للكثير من المبانى والاسهم والسندات بينما يملك المصريون معظم الاراضى الزراعية وهذا فى الحق مكر سياسى ومغالطة يجب ان نكشف عنهما • فربح الاسهم خاضع لضريبة الارباح الاستثنائية والسندات يتكون الجانب الاكبرمنها من سندات القرض الوطنى وهذه من المعلوم انها معفاة من

الضريبة فما هذه المغالطه اذن . وبقيت المباني ، وهنا ينسى صدقي باشا ان ايجار المباني لم يزدد الا بنسبة ضئيلة بسبب الامر العسكري الذى يقضى بذلك . واذا كانت هناك مخالفات لهذا الامر فذلك ما قد يوجب الاسف ولكن كل حكومة تحترم نفسها لا تستطيع ان تدخل فى حسابها حالة تنشأ عن مخالفة لاوامرها . ونحن مع ذلك لا ندعى أن الحكومة ستقف بالاخذ بمبدأ التصاعد عند الاطيان الزراعية اذ لا ريب أن هذا بدء ، وللمبدء ما يليه

ومن عجب أن يدعى صدقي باشا ان زمن الحرب ليس زمن التجارب فى اصلاح نظام الضرائب مع أن هذا هو الزمن الذى يجب أن يستخدم فيه المشرع سلطته فى فرض الضرائب ليقوم على حفظ توازن الامة والعلاقة بين طبقاتها المختلفة فالحرب كما قلنا فى مقال سابق قد انزلت الاضطراب بحياتنا الاجتماعية حتى جعلت عاليها سافلها ، ومن الواجب ان نعيد اليها كيانها السليم بنظام صالح للضرائب

رد صدقى باشا وتعليقنا عليه :

مسألة الضرائب التصاعدية

ـ على الرغم من أننى صرحت بأن مناقشتى لموضوع الضريبة التصاعدية بعيدة البعد كله عن أى مرمى سياسى أو شخصى يصر الدكتور محمد مندور على اتهامى بأنى مدفوع فى هذا الموضوع اولا بشهوة المال لاعتقاد حضرته بأنى من كبار أصحاب الاطيان الذين سيقع عليهم أكثر من غيرهم ، عبء الضريبة الجديدة وثانيا بالشهوة السياسية لما يعتقده من خصومتى للحكومة الحاضرة ، وقد ضرب حضرته صفحا عن ان المناقشة كانت فى حدود الفن لا أكثر ولا أقل فكان من حقى أن أطالبه بعدم تخطى هذه الحدود

ـ ومع ذلك لا أرفض المناقشة حتى فى الدوافع التى يقولون اننى خضعت لحكمها فأقول ان ما أملكه من ثروة ـ تبعد عما يتصوره الدكتور من ضخامة ـ هو على نوعين ، مال منقول ومال زراعى ثابت وربما كان الاول يربى على الثانى ، فاذا كنت ممن يجعلون للمال الشأن الاول فى تصرفاتهم وتفكيرهم لما نبهت الحكومة فى حديثى الى انه ليس من العدالة الاجتماعية فى شىء ان لا يطالب صاحب المال المنقول بمثل ما يطالب به المالك الزراعى

(*) هذا المقال كتبه صدقى باشا ردا على المقال السابق ، ونشر بتاريخ ١٩٤٤/٤/١٧

وبديهى أن من شأن العمل بنصيحتى تحمل أعباء ضريبتين بدلا من ضريبة واحدة ، اما انى مدفوع بشهوة حزبية ، فأظن ان من حقى — وقد سلم الدكتور بأنى لست الغريب عن الموضوع الذى نعالجه — ان اساهم فى مناقشة موضوع مالى اقتصادى ربما يرى غير الدكتور أن عدم أدلائى فيه برأى قد يعد من التقصير فى حق بلادى وليعلم الدكتور مندور أن احترامى للفن مانع من استخدامى اياه فى منفعة الجدل السياسى الذى لا تنقصنى مع ذلك مادته فى مثل ظروفنا الحاضرة

— وأود كذلك أن يعلم الدكتور مندور اننى لست من اولئك الذين لا يرون ان الوقت قد حان لتنصف الحكومة البائسين من هذه الامة الذين عضتهم الحياة بأنيابها ، فاذا ما رجع حضرته للماضى لتبين انى عملت من زمن لا فى الوقت الحاضر فقط على ان يؤخذ بيد البائسين وان يسعى الى اصلاح حالهم ، ومع ان المركز المالى للحكومة كان فى الوقت الذى توليت فيه الحكم من أسوأ ما يكون بسبب الازمة العالمية الطاحنة ، ألغيت بجرة قلم عوائد الدخولية التى كان عبئها واقعا على الفقراء قبل الاغنياء وكانت تدر على الحكومة ما يقرب من المليون ، ولو كنت كما يظن الدكتور ممن لا يعنون بالبائسين لما تقدمت فى سنة ١٩٣٨ بوصفى وزيرا للمالية فى عهد وزارة محمد باشا محمود باقتراح تخفيف الضريبة على صغار الملاك الزراعيين بما اضاع على الخزانة مليونا من الجنيهات زادته الحكومة الحاضرة نصف مليون فأصبح مليونا ونصف مليون ، ولو رجع الدكتور مندور الى حديث لى نشرته اخيرا احدى المجلات لراى انى اخذت على الحكومة انها لم تطالب كبار الملاك بما ضاع على الخزانة بسبب الاعفاء الاخير ، فهل يرى منصف ان الحنين فى نفسى مقصور على

الاغنياء لانني منهم دون الفقراء وهم سواد الامة ؟
ـ من الظلم أن يقـال عنى أننى أهاجم الضرائب التصاعدية لانها تسىء الى الاغنياء ، فلقد ذهبت الى أبعد مما ذهبت اليه الحكومة فطالبت بفرض ضريبة تصاعدية على الدخل العام وهى تلك الضريبة التى وضعت فى البلاد المتحضرة ، ومن اغراضها الرئيسية أن تكون اداة للتوازن بين الطبقات وان تحقق العدالة الاجتماعية من أقرب طرقها وأسهل وسائلها ، وغريب ان يرد على بأن هذه الضريبة غير موجودة فى بلادنا ، يا سبحان الله فهل هناك مانع ما دام الاجماع قد انعقد فى البلاد الاخرى على انها الضريبة المثلى التى تصلح اداة للعدل الاجتماعى وليس يعدلها فى هذا المضمار غير ضريبة التركات التى نشاهد انها هى أيضا محل لتقاعس ملحوظ فى أمر تقريرها .. أقول هل هناك مانع من المضى فى بحث ضريبة الدخل والعمل على تطبيقها ؟ أظن ان الامر لايحتاج الى اكثر من مراجعة الانظمة المعمول بها فى غير بلادنا وتطبيقها على أحوالنا الخاصة

انما اذا اردنا ان ننشد العدالة وان نحققها من أقرب سبلها فليس أمامنا غير ضريبة الدخل التى تدل على الحقيقة من أمر كل ممول والتى تسوى بين الجميع لا كما هو الحال فى الاجراء الذى لجأت اليه الحكومة مما بينته .. ولقد طلبت أن يدلونى على بلد واحد طبق فيه التصاعد على الضريبة الزراعية فلم يجبنى أحد على الرغم من كثرة ما وجه من انتقاد

ـ يعترض الدكتور مندور على قولى أن الضريبة تفرض فى مقابل شتى الخدمات التى تؤديها الحكومة للمالك الزراعى ويقول حضرته ان الضرائب لا تؤدى مقابل خدمات بل هى مساهمة فى الحياة العامة وتبرع اجبارى

من الفرد للهيئه الاجتماعية الخ ، انه لقول صحيح اذا ما انصب على الضرائب العامة كضريبة الدخل التى أشرنا اليها وضريبة التركات وهما المجال الحق للخدمات الاجتماعية ولكنه لا يصدق على باقى الرسوم والضرائب الخاصة فضريبة الخفر مثلا موضوعة لتأدية نوع خاص من الخدمات المتعلقة بالامن والرسوم البلدية معدة لاصلاح شئون المدن ورسوم مجالس المديريات قد ارصدت للتعليم ولباقى الشئون المعروفة كذلك الحال بالنسبة لضريبة الاطيان الزراعية فقد روعى فى وضعها انها تمكن الحكومة من القيام بالخدمات التى يحتاجها الزراع ، ولا يصح فى عقل عاقل أن تكون الضريبة المذكورة محل صعود او هبوط تبعا لاعتبار اخر غير ما تقدم فان لهذه الاعتبارات مجالها من الموارد العامة اللهم الا اذا استحال وجود هذه الموارد وعندها وجب ان يكون التدرج التصاعدى فى كل مطالب الدولة من الافراد وقد قضى الاجراء الجديد بما هو عكس ذلك على خط مستقيم كما بيناه فى حديث سابق

ـ ويرمينى الدكتور مندور فى هذه المناسبة بالمغالطة لانى ناديت بضرورة التساوى بين دافعى الضرائب من أى مورد جاءت ولانى قلت ان ليس من العدل ان يدفع صاحب الارض ما لا يدفعه صاحب الاسهم والسندات ، ويستند حضرته على أن أرباح الاسهم والقراطيس خاضعة من ناحيتها لضريبة الارباح الاستثنائية وهى ضريبة تصاعدية بحسب دعواه ـ واذا كانت هناك مغالطة فليست على كل حال من ناحيتى ـ أما أن الضريبة الاستثنائية تصاعدية فلا ، لان صاحب الملايين يدفعها بنفس النسبة التى يدفعها صاحب العدد الضئيل من الاسهم اذ المرجع فيها للربح أيا كان مقارنا بما كان عليه قبل الحرب ، والضريبة الاستثنائية من هذه الناحية لاعلاقة

لها بالتوازن الاجتماعى بل هى أتاوة الحرب يدفعهـــا المنتفعون من ظروف الحرب كبارا كانوا أو صغارا ، امـا الضريبة الجديدة التصاعدية فهى بمعنى الكلمة الضريبة ذات الصفة الاجتماعية البحتة اذ هى ترمى الى الاقتطاع من موارد ذوى الثروة تدرجا مع ثروتهم لافادة المحرومين من هذه الثروة ــ وهذا شيء طيب لا خلاف فى صحة المبدأ الذى يقوم عليه ، ولكن الخطأ البين الذى وقعت فيــه الحكومة هو انه قد قصر تطبيقه على المزارعين وقــد اوضحنا فى حديث سابق ما فيه من ظلم على طائفة جديرة قبل غيرها بعطف المجموع لظروفها السيئة الخاصة التى يعرفها كل من عالج الزراعة ولا يجهلها نوابنا المحترمون وجلهم من اهل الريف

اسماعيل صدقى

تعليقنا على رد صدقى « باشا »

يسرنا طبعاً ان نسجل لصدقى باشا استعداده لان يدفع ضرائب تصاعدية عن دخله العام عقارا او منقولا ونرجو ان نسجل مثل هذه الاريحية لغيره من كبار الاثرياء الذين حان الحين لان يقروا مبدأ التضامن الاجتماعى بل وذلك المبدأ الانسانى السليم الذى ينادي بأن مصدر كل ثروة انما هو العمل ــ عمل الفقير المكدود وان رءوس الاموال منقولة او عقارا لا تنتج فى ذاتها شيئا وما دمنا لم نصل بعد الى ان يكون نصيب العمل جزءا من الربح لا اجرا يوميا او شهريا فلا اقل من ان يعم مبدأ التصاعد نظامنا المالى كله

نحن نغتبط بما يراه صدقى باشا من تعميم مبــــدأ التصاعد ولكننا لا نفهم لماذا اذن يقاوم الاخذ به فى ضريبة الاطيان الزراعية واذا كانت الحكومة قد ابتدأت بهــذه الضريبة فلماذا نقاومها اذا كنا مخلصين وكنا مؤمنين بمبدأ العدالة الاجتماعية ، ومن عجب أن يقاوم صدقى باشـــا مبدأ التصاعد فى ضريبة الاطيان بحجة ان الضريبة مقابل خدمة وان المالك الصغير قد يستفيد من هذه الخدمات اكثر من المالك الكبير ولقد رددنا بأن الضريبة ليست مقابل خدمة شخصية لدافعها بل هى تضامن اجتمــــــــاعى ومساهمة من الفرد فى القيام على مرافق الدولة العامة وأضفنا انه حتى بفرض ان الضريبة مقابل خدمة فليس

صحيحا ان المالك الصغير يستفيد من خدمات الدولة اكثر من الكبير وضربنا الامثلة بالطرق والترع والمصارف التى قد تمد أو تشق كلها فى تفتيش أحد الاغنياء ولكن ها هو ذا صدقى باشا اليوم يعود فيقول ان من الضرائب ما يدفع مقابل خدمة ، ونعود فنقول ان هذا ليس صحيحا والا لكان معناه ان دافع ضريبة الخفر كان يدفعها بمعدل اعلى اذا كان كثير الخصوم ، ومن ثم فى حاجة امس الى خفر الخفراء وان دافع الرسوم البلدية او رسوم مجالس المديريات يرتفع معدل ما يدفعه بحكم ان له ولدا سيتعلم فى مدارس مجلس المديرية أو ليس له ولد ، وهكذا فى غير ذلك من المرافق العامة ، هذا قول لا يعقل ولم نسمع به من احد

وصدقى باشا لا يسلم بأن ضريبة الارباح الاستثنائية تصاعدية ونحن فى الحق لا نريد ان نماحك فى الالفاظ والموقف هو ان هناك طوائف اجتماعية تشتغل بالصناعة والتجارة وهذه الطوائف قد اثرت بسبب الحرب فرأت الحكومة من العدل ان تقتطع جزءا من ارباحهم تردها على من أفقرتهم تلك الحرب وضيقت من ارزاقهم بحكم الغلاء الطارىء ففرضت هذه الضريبة رغم معارضة صدقى باشا وجعلتها على طبقات مع ازدياد نسبتها من طبقة الى طبقة فالربع الاول من هذه الارباح يدفع ضريبة بنسبة كذا والربع الثانى بنسبة كذا الى ان تصل على الربع الاخير الى ٧٥ ٪ ولقد جعلت الحكومة هذه الضريبة لمدة الحرب فقط ثم جاءت ففرضت ضريبة تصاعدية على الاطيان لان غلة الاطيان هى الاخرى قد زادت وجعلت هذه الضريبة لمدة عام واحد ، او ما يرى معى القارىء ان النتيجة النهائية واحدة وهى استقطاع جزء من الربح او الغلة الطارئين

والتدرج فى معدل هذا الاستقطاع تبعا لضخامة الربح او الغلة ..

ولقد سبق ان قلنا ان ضريبة الاطيان الزراعية الاخيرة لن تغل الا نصف مليون جنيه بينما الضريبة الاستثنائية ستغل على الاقل ثلاثة ملايين

بقيت المشكلة التى يظهر فيها حقيقة مكر صدقى باشا السياسى وهى تساؤله عن السبب الذى من اجله لم تأخذ الدولة بمبدأ الضريبة التصاعدية على الدخل العام

قلنا ان هذه الضريبة غير موجودة وصدقى باشا يرى ان فرضها أمر سهل وهنا يريد صدقى باشا أن يمكر بنا لاننا فى الحق لا ندرى لماذا لانأخذ بالتصاعد فى الضرائب القائمة واحدة بعد الاخرى الى ان نفرض ضريبة عامةعلى الدخل اذا كان لابد من محاكاة الدول الغربية فيها وكان لفرضها ضرورة

واذا سلم معنا القارىء بأن من حقنا ان نأخذ منذ اليوم بالتصاعد فى الضرائب القائمة لا يكون لسؤال صدقى باشا عن وجود ضرائب تصاعدية على الاطيان الزراعية فى البلاد الاخرى محل ، هذا دور منطقى من صدقى باشا ، فنحن نقول بالاخذ بالتصاعد فى الضرائب القائمة ما دامت ضريبة الدخل العام التصاعدية غير موجودة عندنا ومن هنا لا تكون هناك محل لتساؤلنا عن وجود ضريبة تصاعدية فى البلاد الاخرى على الاطيان او غير الاطيان لان كل هذه الضرائب تخضع للتصاعد ضمن ضريبة الدخل العام ..

قد يكون صدقى باشا ماهرا فى الجدل السياسى ولكننى أظن ان مغالطته هنا لن تخفى على احد

الرأى العام

لا يستطيع الناظر فى حياتنا العامة أن يطمئن الى وجود رأى عام بالمعنى المفهوم فى بلاد الغرب ، وتلك ظاهرة ترجع فيما يبدو الى عاملين كبيرين : أولهما اقتصادى، وثانيهما ثقافى ..

ولسنا فى حاجة الى التدليل من جديد على فساد توزيع الثروة فى مصر ، وتلك آفة قديمة ستلقى هذه الامة فى علاجها مشقات كبيرة ، ولكنها ستعالج يوما ما . وانما نكتفى بايضاح نتائجها فيما نحن بصدده من وجود رأى عام او عدم وجوده . وامتنا تنقسم فى جملتها الى طبقتين : أغنياء وفقراء ، واما الطبقة الوسطى فلا تزال فى بدء تكوينها . وكبار الاغنياء بطبيعتهم قوم مترفون انانيون يسخرون من الاهتمام بالمسائل العامة التى لا تعنيهم الا فيما يمس مصالحهم المباشرة . وأفراد الشعب تشغلهم مهام العيش ومشقاته حتى لا تترك لهم فراغا للتفكير الجدى فى الامور العامة : والفقر ينال من قوة نفوسهم فلا يستطيعون ان يتحرروا من ارادة الاغنياء . وعندما يكون المرء فى قبضة غيره ، والحاجة

(*) نشرت فى ١٩٤٥/١/٢٢

الى الكفاف من العيش تلاحقه ، كيف تريد أن يكون حر الرأى . والملاحظ فى الامم الغربية أن الطبقات الوسطى هى التى تكون الرأى العام وتقوده ، وذلك لانها الطبقة الطموح ، ثم لانها قريبة من الطبقة الدنيا التى تكون جمهرة الامة ، وهى بحكم هذا القرب تعرف آلام الشعب وآماله كما تفهم عقليته . وهى طبقة جادة لا تعرف الاستهتار، تتمتع بقسط من الاستقلال المادى يعطيها القدرة على الصلابة فى الرأى ومواصلة الكفاح من أجله . ثم انها طبقة مستنيرة تستطيع بمالها من ثقافة الا تقف عند الرضا او السخط ، بل تستنبط الوسائل الكفيلة بتحقيق الخير لعامة الناس . وليس من شك فى أن نهاية هذه الحرب ستشهد صراعا قويا بين تيارين من التفكير: التيار الاقتصادى ، والتيار الاجتماعى ، ونحن على تمام الثقة من أن سفسطة الاقتصاديين لن تقف عند حد ، فسيحاولون ايهام الشعب أن علاج الفقر الصحيح هو زيادة الانتاج بتنمية الصناعة وحمايتها من المنافسة الاجنبية . والاجتماعيون لا ريب يسرهم أن يزيد الدخل العام للامة ، وهم ليسوا من خصوم الصناعة ، ولكنهم سيحرصون على أن تكون وسائل الانتاج ملكا للأمة جميعا ولو بطريق التساهم ، لا لفرد من الافراد . وذلك لانهم لن يستطيعوا صبرا على التفاوت القائم اليوم ، ولابد انهم سيمنعونه من ان يستفحل بظهور أثرياء الصناعة الى جوار اثرياء العقار . واذا كتب للاجتماعيين الغلبة فلن يتركوا مشكلة توزيع الثروة تغيب عن الاذهان تحت ضباب مريب من الحرص على تنمية الثروة القومية وتعزيز استقلال اقتصادى موهوم ، لو حدث ذلك لتحررت عندئذ أرواح ملايين من البشر ، وارتفع مستواهم النفسى ، فكان لهم صوت فى تكوين الرأى العام

والعامل الثقافى يطالعك فى دور العلـــم وفى فنون الصحافة . والذى لا شك فيه أنه لا مدارسنا العامة ولا صحافتنا بقادرة فى وضعها الحـــاضر على أن تكون رأيا عاما . والمدرسة العامة روحها المدرس ، وباستطاعتك أن تقلب البصر فيمن تلقى من مدرسين ، فما أظنـك واجدا الكثيرين بينهم ممن لهم فلسفة خاصة فى الحياة . ولسنا نقصد بالفلسفة الخاصة آراء بعينها فى الاقتصاد او الاجتماع او الادب ، بل نرمى الى حالة من النضـوج الفكرى والعاطفى تمكن صاحبها من أن يتخذ له موقفا محددا من الناس والاشياء ، فيعتقد مثلا أن المـادة هى عصب الحياة ، أو أن الروح هى محركها الخفى ، ويكون من المؤمنين باطراد التقدم فى الانسانيـــة او القـائلين بتراوحها بين المد والجزر . وقد يعالج مشاكل الحيـاة بالجد الحار او بالسخرية الباسمة ، وقد يتناولها بالثقة المتفائلة أو الحذر المتشـــائم ، ونحو ذلك من أنواع الفلسفات الشخصية التى لابد ان تتصف باحداها كل نفس ناضجة . وهذه الفلسفة الشخصية هى التى تمكن المدرس من التأثير فى تلاميذه تأثيرا باقيـــا ، وذلك لانه يستطيع عندئذ أن يعطيهم ضوءا هاديا فى الحياة ،وبفضل هذا الضوء يستطيعون بدورهم أن يحكموا على مختلف الامور . ومن البين أن الرأى العام يتـــكون من تفاعل مجموعة الاحكام الفردية . واذن فما دام معلمنا لا فلسفة له ، وما دام كبار مفكرينا وأساتذتنا لا يعـــرفون كيف يزودون هذا المعلم بتلك الفلسفة ، فما أظننا مستطيعين أن نجعل من مدارسنا بؤرات لتكوين الرأى العـــام . واهول ما اخشاه الا نجد من بين اساتذتنا وكبار مفكرينا انفسهم نفرا كافيا يصدرون عما نتحدث عنه من فلسفة شخصية ، وما على القارىء الا ان يستعرض الاسمـاء

المعروفة ليحاول ان يحدد فلسفة كل منهم . ولقد يجد لاغلبهم مجموعة من الكتب او طائفة من الابحاث ، ولقد يكون فى تلك الكتب وتلك الابحاث جمال ومتعة ، ولكنه سيجد مشقة فى ان يستخلص منها روحا عامة وفلسفة جامعة . وعندما يخرج التلاميــذ من المدارس ، وليس لكل منهم اتجاه روحى معلوم ، لن تجد غــــرابة فى ان يعجزوا عن حمل الصحافة على تقـــديم غذاء صالح للشعب ..

والصحافة كما هو معلوم صحافة اخبارية أو صحافة رأى . والاولى وان لم تخل من اثر على الرأى العام بحكم تخيرها لنوع الاخبار التى تنشرها وتاوينها لتلك الاخبار، الا انه فى نهاية الامر أثر محدود . وعلى العكس من ذلك صحافة الرأى التى تتــكون فى بلادنا من بعض الصحف اليومية ثم معظم المجلات الاسبوعية . وما دامت الصحف ملكا لافراد او شركات وكان هدفها الاول هو الربح المادى، فما أظن اننا نستطيع ان نرجو من ورائها خيرا كثيرا فى تكوين رأى عام سليم ، وذلك لان حرصها على الانتشار يدفعها الى اللعب على غرائز القراء ، فلا تجد فيها الا فتنا سياسية تدور حول كبار الشخصيات ، ولا ترضى فى القارىء غير حب اســـتطلاع خبيث ، أو تهريجـــا ديماجوجيا يولول لالام الشعب ويلوح له بآمال خادعة دون أن يدرس مشاكله دراسة جدية ، ويقترح لعلاجها الوسائل المجدية . واخيرا ترى اثارة الغرائز الجنسية اعتمادا على ما تنزله حياتنا الاجتماعية بنفوس الشبان من كبت . وانه وان يكن من الثابت ان اكثـر الصحف انتشارا فى مصر ، ليس اكثرها تأثيرا فى الرأى العام بحكم انه كلما ازداد جمهور الصحيفة كان جمهور تسليـــة وتزجية فراغ ، الا انه مما لاشك فيه ان امثال هـــذه

الصحف تقوم بعملية هدم كبيرة ، فهى تقوض الجدية فى النفوس ، كما تفسد الاخلاق وتعود العقول الكسل . وأنت اذا وجدت الى جوار أمثال تلك الصحف ، صحفا أخرى قليلة الانتشار ولكنها جدية مؤثرة باعتبار ان قراءها ممن يلتمسون غذاء لارواحهم الا انك — لسوء الحظ — قلما تجد لاحداها قيادة عامة واتجاها روحيا واضحا وانما هى طائفة من الاقلام والمعلومات لايجمع بينها غير غلاف الصحيفة ، ولهذا قلما تكون صحيفة منها مدرسة خاصة فى الحياة . واذا كنا لم نصل بعد حتى فى مجال السياسة الى خلق صحافة تعبر عن مذاهب الحكم المختلفة وتناضل دونها ، مع ان السياسة أمر يهم الملايين من البشر ، فانه لا ريب يكون من تعجل الامور تعجلا مسرفا ان نتطلع الى صحافة ثقافية موحدة الاتجاه ، مع ان الثقافة بطبيعتها ميدان الخواص ، ولكننى مع ذلك لا أفهم لماذا لا تكون لدينا مجلات تتحمس لتيارات التفكير المختلفة ، وتحاول ان تجمع حولها النفوس . ولكم من مرة يسألك احد الغربيين عن الاتجاه الذى تتميز به هذه المجلة عن تلك ؟ فلا تستطيع جوابا . ونحن لا نقصد بذلك الى المجلات الخاصة، بل نصب القول على المجلات العامة ، فهذه هى التى تزعم ان من الممكن بل من الواجب ان تكون لها روح عامة برغم تنوع موضوعاتها . وعندما تعدد أمثال تلك المجلات وتتفاعل تياراتها المختلفة سيبدأ الرأى العام فى أن يتكون

***

الرأى العام وليد لفلسفات فردية تشيع فى المجتمع . والمجتمع بدوره لا يستطيع أن يتمثلها الا اذا تركت له الحياة الإقتصادية من الراحة والفراغ ما يمكنه من تأملها . وتلك

الفلسفات لن تنمو الا عن طريق المعلم أو الصـــحافة ، واصلاح الإخيرين لابد لتحقيقه من سنين طويلة تتضافـر فيها جهود الافراد والحكومات • ولابد لنا من أن ننتظر ، مع أستمرارنا فيما نحن بسبيله اليوم من فتح المــدارس والجامعات ومناقشة مناهج الدراسة والتعليم وحســـن القيام على دور التمثيل والسينما ومحطات الاذاعة ومــا شابهها من وســائل نشر الثقافة بين الشعب . وان يكن هناك ما نستطيعه لساعتنا فهو تعويد الجمهور أن يتجرع ما ينفعه والصمود له عندما تدفعه غرائزه الدنيا الى التماس اللذات الرخيصة

الرأى العام لم ينضج بعد فى بلادنا ، ولكن لا محــل لليأس فنحن سائرون الى الامام ، وما علينا الا أن نواصل السير فى ثقة وشجاعة

أجور أم مساهمة في الأرباح ؟

لا شــك أن القراء استفزهم جميعا منطق « دولة » اسماعيل صدقي «باشا» عند حديثه عن العمال ، وقد انتقد «الباشا» رفع الحكومة لمرتبات عمالها ، ورأى في ذلك خروجا على مبدأ المساواة اذ أصبحوا يتقاضون أكثر مما يتقاضى عمال الشركات والافراد ، وعنده أن واجب الحــكومة كان يقضي بأن تحتفظ بأجورهم في مستوى منخفض لتتحقق المساواة وهذا هو المنطق الراسمالي العجيب

واما أن يطالب الشركات والافراد بأن ينصفوا هم أيضا عمالهم لتتحقق المساواة في الارتفاع لا في الانخفاض فذلك ما يأباه « الباشا » ، وحجته أن العمل سلعة من السلع تخضع لقانون العرض والطلب ، فمادام العمال متوافرين ، ومادام في الامكان استغلالهم بأتفه الاجور ، فأي داع لرفع مبلغ ما يتقاضونه .

ولقد ردت الحكومة على هذه الاقوال الآثمة ، وابت أن تعتبر العمل البشري سلعة من السلع ، ولكننا نتساءل : هــل من المعقول أن يظل نظــام الاجور قائما بعــد أن استنارت الانســانية وتهذبت مشاعرها وتفتحت أعينها على معاني الحق والعدل ، وما نظن أحدا يمـــارى في

(*) نشرت في ١٩٤٥/٢/٢١

أن العمل هو مصــدر الانتاج الوحيد ، فملايين الجنيهات اذا كدست أكواما ولم تعمــل بها يد الانسان لا يمكن ان تنتج شيئا ، وانما المنتج هو كد الرجال ، ومن ثمرات هذا الكد يجمع الرأسماليون المال

لسنا نشك فى أن النظام الطبيعى الذى ستنتهى اليــه الانسانية فى بلادنا ، وغير بلادنا سيكون المساهمةفىالارباح، وما ينبغي أن يأخذ الراسماليين الهلع من ذلك ، فهذا نظام موجود فى ريفنا وان تكن نسبة مايتقاضاه الفلاحون أقل بكثير مما ينبغى

ولابد من تدخل الدولة بالتشريع ليتحقق العدل فى تحديد تلك النسبة ، ففى بلد كاتبه هذه السطور مثلا (مديرية الشرقية) يأخذ المزارعون ربع الذرة وسدس القطن واربع كيلات عن كل فدان من القمح وقيراطا من البرسيم ، ثم يقتسمون فيما بينهم ما يأخذون ، وهذه كما ترى نسبة ضئيلة جدا ومن مصلحة أصحاب الاراضى أنفسهـــم أن يرفعوها والا فسوف ينقرض الزراع ، أقول ينقرض ولا أبالغ فى شيء ، فقد لاحظت فى السنين الاخيرة ظاهرتـــين عجيبتين : أولاهما ان الفلاح الحالى قلما يتجاوز من العمر خمسة وثلاثين عاما ، والثانية أن معظمهم لم يعد يعقب أبناء فان أعقب لم يعد الطفل الواحد ، ولا غرابة فى ذلك فسوء التغذية وضعف الصحة وارهاق العمل جيلا بعد جيل قد أوشك ان يستأصل هذه الطبقة بحيث أصبح حتما ان يتدخل المشرع لاصلاح هذه الحال ، وذلك بأن يفرض نظام المساهمة فى الارباح ، ويحدد نسبة تلك المساهمة بما يضمن للفلاح حياة جديرة بالانسان ، وأما أن يستمر الملاك على استغلاله فى غير رحمة كما نشاهد اليوم فذلك مايأباه الحس الاخلاقى وتنفر منه معانى العدل

وانه وان يكن العمال قد أصبحوا اليوم احسن حالا من

الفلاحين الا أنه قد حان أيضا الحين لنمكنهم من المساهمة فى الارباح بدلا من الاستمرار فى نظام الاجور الذى تفوح منه رائحة الاستعباد ونظام المساهمة لن يرد للعمل البشرى اعتباره فحسب ، بل أحسبه أيضا خليقا بأن يعزز الانتاج فاخلاص الشريك وحرصه على نجاح العمل يعنى اخلاص الاجير وحرصه ، واذا كانت طبيعة الحياة فى المدن وكثرة نفقاتها اليومية لا تمكن العامل من الانتظار حتى يأخذ نصيبه فى الارباح كما يفعل الفلاحون بالريف اذ ينتظرون جنى المحصول ، فهناك طريقة معقولة عادلة للتوفيق بين مبدأ المساهمة وطبيعة حياة العامل ، وتلك هى التعجيل للعمال بمرتبات تمكنهم من حياة معقولة على أساس الارباح السنوية التى تجنيها الشركة أو المؤسسة الفردية ، على أن يدفع للعمال على فترات معينة من العام أو فى آخر العام حسبما تقضى طبيعة الاستغلال الاقتصادى ما يبقى من نصيبهم ..

لسنا نعرف، حرية من الحريات التى نادى بها ميثاق الاطلنطى أجدر بالرعاية والتحقيق فى بلادنا من التحرر من الفقر ، كما أننا لا نعرف ، رقا أقسى على النفس هو أمر من رق الفقر ، فهو آفة الآفات ، لانه يستتبع خلفه المرض والجهل وضعف الخلق وانعدام الوطنية، ومالم نعمل فى عزم على الوصول الى ذلك التحرر لن يرجى لبلادنا تقدم حقيقى . ونستطيع ان نؤكد ان تحرير الوطن ذاته لن يغنى عن وجوب تحرير الفرد ، وأى جدوى فى أن أعيش أنا وأنت ذليلا فى وطن عزيز

رأسمالية أم عدالة اجتماعية

لقد كانت معركة حامية تلك التى نشبت بين دولة اسماعيل « باشا » صدقى ، ومعالى مكرم عبيد « باشا » فى مجلس النواب أول أمس ، كانت معـــــركة بـــين الرأسمالية والعدالة الاجتماعية وذلك مع تفاوت عميق فى الصفة بين الاتجاهين ، فقد كان للرأسمالية جوهرها ، واما العدالة الاجتماعية فلم يكن لها غير مظهرها ، وذلك لان « دولة » صدقى « باشا » دعا الى الحماية الجمركية فى حرارة بالغة وذلك ليحمى الصناعة كما دعا الى ضغط الميزانية بضغط اعتمـــادات الموظفين والعمـــال ، بل واعتمادات التعليم والصحة وغــيرها ، كما دافـــع عن الشركات وبخاصة شركة السكر دفاع الابطال المجاهدين

وصدقى « باشا » كما قلنا غير مرة بالغ اللياقة فى تقديم ارائه المجحفة بعامة الشعب المنصفة انصافا مسرفا لاصحاب رؤوس الاموال تحت ستار من الوطنية الفاقعة وهو من المهارة بحيث يسكت دائما عن الوســائل التى يمكن أن تستنبط للتوفيق بين مصالح المنتج والمستهلك ولزيادة ايرادات الدولة بدلا من المطالبة بانقــــاص مصروفاتها بحق وبغير حق ، ولبسط نفوذ الــدولة على

(*) نشرت فى ١٩٤٥/٣/٧

الشركات وتغليب الجانب المصرى فيها ، والاتجاه بهـا وجهة شعبية ..

ولكننا رغم ذلك نلاحظ ان صدقى « باشا » يريد ما يقول وان أغراضه الحقيقية ليس من الصعب على من أوتي قدرا بسيطا من الفطنة أن يكشف عنها مسفرة وفى هـذا ما يكفى لتنبه الرأى العام وبخاصة رأى الشعب الـذى يجب أن يدافع عن حقوقه

وعلى العكس من ذلك « معالى » مكرم « باشا » فقـد دافع دفاعا مجيدا عن الطبقات المكدودة وفى هذا ما يدل على رغبته فى كسبها كرجل سياسة ، ولكن الشعب يطلب أعمالا ، والاعمال لابد ان تغضب الاغنياء و «معالى» الباشا يود لو كسب الكل ، وهنا الصعوبة ، والسياسة الحقة تتطلب استعدادا للكفاح الى جـانب الرغبة فى كسب انصار ووزير المالية هو الذى يستطيع ان يعمـل عملا ايجابيا لتلافى ما ضج به مفكرو المصريين والغربيين على السواء من سوء توزيع الثروة فى البلاد وفساد نظام الضرائب عندنا ، وما نريد أن نعيد القول فيما سبق أن قلناه وقاله غيرنا من وسائل الاصلاح الاقتصادية والمالية فقد اتضح الامر ولم يعد لاحد عذر اذ ان المـوانع التى تقوم الان دون ذلك هى موانع سياسية كما قال بحـق الاستاذ شوميكر ، فالخوف من معارضة الاغنياء ورجـال الشركات واصحاب رؤوس الاموال هو الذى يمنع وزير المالية من أن يبشرنا بمشروعات محددة لاصـلاح نظام الضرائب كتقرير مبدأ التصاعد فى الضرائب المباشرة مع الحرص على المباينة فى نسبتها بين دخل العمل ودخـل رؤوس الاموال ، وتدعيم ضريبة الايلولة ورفع مستواها التصاعدى الى درجات جدية باعتبارها الضريبة الوحيدة

التى يمكن ان تعيد توزيع رؤوس الاموال الموروثة واصلاح نظام الضرائب المفروضة على المهن الحرة حتى تتناول الدخل الحقيقي بدلا من تقريرها على قيمة ايجار العيادات والمكاتب وما شابهها

وأخيرا ، وهذه نقطة جوهرية ، اعادة النظر بصفة عامة شاملة في النسبة بين الضرائب المباشرة وغير المباشرة فليس بمعقول ولا مقبول ولا عادل أن تحصل الدولة ثلثى أيرادها تقريبا من الضرائب غير المباشرة ، مع انها هى التى يدفعها فقراء المستهلكين مضافة الى اثمان ما يشترون من سلع والذى نعرفه ويعرفه الجميع فى بلاد العالم كله ، ان الاتجاه الان ، وقبل الان قد كان لتغليب جانب الضرائب المباشرة التى يدفعها الملاك واصحاب رؤوس الاموال ، ومن العجيب الذى يكاد يفقد الصواب ، أن يقول صديقى « باشا » ان رعاية المستهلك وغيره من الطبقات المكدودة نغمة قديمة ، مع ان العكس هو الصحيح الذى لا يستطيع أحد ان يمارى فيه ، فجميع العالم الان متجه نحو رعاية ذلك المستهلك ومن فى حكمه من الطبقات المحرومة ، والقراء لا ريب يذكرون نظم الضرائب فى اوربا العادلة المعقولة ، كما يذكرون تشريعات العمال ومشروعات بيفردج وغيرها من الضمانات الاجتماعية

ومن غريب الامر أن يجأر الرأسماليون بأن المطالبة بتحقيق العدالة الاجتماعية سير نحو الاشتراكية مع انه لو صح ذلك لوجب ان نقول ان العالم كله ، بما فى ذلك انجلترا وأمريكا ، سائر نحو ذلك المذهب

والاشتراكية ، بعد ، مذهب لا يخيف فى شىء ، وانما هى الدعايات التى شوهت مدلولها وما دمنا لا نتعرض لحق الملكية الفردية فى شىء ، فنحن بعد ذلك فى حل من

ان ندعو الى كافة المبادىء الانسانية الاخرى التى تدعو
اليها الاشتراكية ، وليست هذه المبادىء الا ما اجملناه فى
لفظة « العدالة الاجتماعية » وطرق تحقيقها واضحة

لقد تكلم اذن صدقى باشا فى جوهر الرأسـمانية ،
وتكلم مكرم باشا فى مظهر العدالة الاجتمـاعية ونحن
نحارب الرأسمالية عن ايمان ، وأما العدالة الاجتماعيـة
فندعو الى جوهرها ، ولا تكفينا الفاظها وذلك لان الامة
قد حان الحين لنرفع مستوى الفقراء فيها ، فيرتفع بذلك
مستواهم الخلقى والوطنى على السواء ..

مشكلة الفلاح

كتب سعادة « مراد » باشا وهبة مقالا يدعو فيه كبار الاغنياء الى التبرع لفتح مطاعم شعبية تقدم للفلاحين المعوزين وجبة من الطعام ، وأثار هذا الاقتراح مناقشات استمرت أياما

ونحن لا نحارب روح الخير ، ولكننا لا نريد ان توضع مشاكل البلاد الكبيرة فى غير وضعها الصحيح الجدير بكرامة الانسان ، فالمشكلة ليست مشكلة احسان ، وانما هي مشكلة اجتماعية كبيرة لا يجوز ان نصرفها عن وجهتها ..

والاساس العام لحل مشكلة الفقر فى البلاد ، هو العدالة فى تمكين مختلف الافراد من وسائل الانتاج ، وكسب كل رجل قوته اليومى بعرق جبينه

وما كنا نريد ان ندخل فى هذه المناقشة التى وفاها الكاتبون لولا ما ذكره سعادة « الباشا » من ان اصلاح توزيع الثروة فى مصر لا يمكن ان يعالج مشكلة الفقر عندنا ، وحجته فى ذلك ان خمسة الملايين والنصف من الافدنة المزروعة فى مصر لو وزعت على السبعة عشر او الثمانية عشر مليونا ، لخرج كل فرد بثلث فدان تقريبا ،

(*)نشرت فى ١٩٤٥/٤/١١

وليس فى هذا ما يكفى ليقوت ، وهذه حجة كثر ترديدها على ما فيها من خطأ التبسيط ، فثروة البلاد لا تقـــدر بالاراضى الزراعية فحسب ، بل هناك العمارات والمصانع والمناجم ، وليس من شك فى ان غلة هذه المصادر تفوق بكثير غلة الاراضى الزراعية ، ولا أدل على ذلك من ميزانية الدولة نفسها فايراد ضريبة الاطيـــــان لا يعدو خمسة ملايين من الجنيهات ، بينما تصل حصيلة الضرائب على الارباح التجارية والصناعية والمهن الحرة ، ما يزيد على ثمانية عشر مليونا

بل ان دخل الامة العام لا يقدر الا بقدرتها على خلق القيم الاقتصادية ، ومن الغريب أن تظل عند ما كان يزعم قديما « الفيزيوقراط » من أن الارض هى مصدر الثروة الوحيد ، مع أن من الواضح أن مصدر الثروة هو العمل بصرف النظر عن نوعه أو المادة التى ينصب عليها، فاخراج معدن من جوف الارض ، أو تحويله من مادة خام الى آلة يعتبر انتاجا ، وهذه كلها حقائق أصبحت بديهيات

ان الحل الطبيعى لمشكلة الفقر فى البلاد سيحتاج بلا ريب الى استغلال أتم لمصادر ثروتنا ، وتنمية لانتاجنا العام ، ولكنه أيضا متعلق أشد التعلق بمشكلة التوزيع ، ولهذا لا نستطيع الا أن نؤيد الاقتراح الذى تقدم به الشيخ المحترم محمد « بك » خطاب الى المجلس لوضع حد أعلى للملكية ، كما أننا ما زلنا نطالب باتمام تشريعات العمـــال والفلاحين بوضع حد أدنى لاجورهم وتنظيم وسائل التأمينات الاجتماعية التى تقيهم شر التعطل والشيخوخة والمرض وذل الاحسان ..

ثم اننا قلنا ونكرر أنه لم تعد فى بلاد العالم المتمدين أمم لا تأخذ اليوم فى نظمها المالية بمبدأ التصاعد فى الضريبة ،

غير مصر ، وهذا المبدأ هو الذى سيمكن الحكومة من أن تنمى مواردها لتنهض بمرافق هذا الشعب المسكين

وثمة ضريبة التركات ، وهى الضريبة الوحيـــدة التى تتناول رأس المال باعادة التوزيع فلماذا لا تقرر فى نسب تصاعدية كافية لاعادة توزيع الملكية فى بلاد لا يستند فيها حق الملكية تاريخيا الى كسب الانسان وعرق جبينه

هذه هى السبل فليسلكها وليـــدع اليها من يريد فى شجاعة حل مشكلتنا الاجتماعية ، وأما الاحسان ، واطعام الانسان لاخيه وجبة طعام شفقة به ، فذلك شعور جارح لكل احساس انسانى ، وهو خليق بأن يميت فى نفـوس أبناء هذا الشعب الكريم ما فيها من كرامة

إن الانسان لا يعيش بالاحسان ، ولا ينبغى أن يعيش بالاحسان ، وانما الواجب أن نقرر له حقوقا ترتبها الدوله للافراد ، وان يمكن من يستطيع العمل منهم من ذلك ، وأن يكون من عمل كل فرد ما يكفى ليقوته ويقوت عياله ، على نحو جدير بكرامة الانسانية التى نشارك فيهـــــــا جميعا ..

حصن الاستعباد

- ١ -

ليس هذا الحصن كما قد يتبادر الى الذهن بثكنات قصر النيل أو قصر الدوبارة ، ولكنه أخطر من هذين شأنا وأشد بأسا على حياتنا ، وهو البنك الاهلى الذى يسمونه مصريا سخرية منا وعبثا بعقولنا ، ولقد يبدو غريبا أن نستهل الحديث فى هذه السلسلة من المقالات عن البنك الاهلى على هذا النحو من الشدة ولكننا معذورون ، ونود لو يسايرنا القراء فى علاج هذه المشكلة الخطيرة التى لا تقل أهمية عن تعديل المعاهده أو تسوية مسألة السودان ، أو ما شابه ذلك من أمور قد نصل فيها الى بعض الترضيات التى لا تخرج عن القشور الزائفة ، وكلنا ـ لا ريب ـ يذكر كيف سخروا بعقولنا فى تلك المعاهدة المشهورة وقالوا أن لنا حق الطيران على أراضى انجلترا ، كما لانجلترا حق الطيران على بلادنا سواء بسواء ، وأمثال ذلك من سخافات تندى لها صفحة العقل

البنك الاهلى هو حصن الاستعباد فى مصر ، وتلك حقيقة لابد من تبسيطها وشرحها وعرضها،وتكرار القول فيها حتى يدركها رجل الشارع فيصحو الى حياته والى قوته وقوت عياله الذى يهدده هذا البنك بالفناء فى غير رحمة ولا حياء

(*) نشرت فى١٩٤٥/٧/١٦

فى سنة ١٨٩٨ صدر « دكريتو » بالقانون الاساسي للبنك الاهلي ، وقد نص فيه على أن لهذا البنك حق اصـــدار أوراق البنكنوت ، وذلك بشرط أن يكون لهــذه الاوراق مقابل فى خزائنه ، فهى بمثابة ايصالات على البنك وهــذا ما يسمى غطاء البنكنوت ، وقد نص فى « الدكريتو » على أن يتكون ذلك الغطاء :

أولا : لغاية النصف على الاقل ذهبا

ثانيا : والنصف الاخر سندات تقوم بسعر لا يتجـاوز السعر اليومى وعلى الاكثر بحسب قيمتها اســــمية بشرط أن تكون مملوكة للبنك أو أن يحتفظ للحـــكومة وحدها بأمر أختيـــارها وتعيينها دون ان يترتب عـلى استعمال هذا الحق فى اية حالة من الاحـــوال او فى أى وقت مسئولية على الحكومة

واذن فقد اعطى البنك حق أصـــدار اوراق البنكنوت بشرط أن يحتفظ فى خزائنه بذهب يساوى نصف قيمتها وســـندات تساوى النصف الاخـــر ، ونص على أنه للحكومة المصرية حق أختيار هذه السندات وتعيينها

ولكن حق الحكومة المصرية كان فى الواقـــع حقـــا نظريا فنحن لم نسمع ان البنك قد قبل سندات الـدين الموحد أو الدين الممتاز مثلا كغطاء للعملة على نحو ما قيل ولا يزال يقبل السندات الانجليزية ، ولهذه المســـألة قصة عجيبة سيأتى خبرها بعد حين

وعلى أى حال فقد احترم شروط الغطاء فى جملته الى سنة ١٩١٦ وتمتعت اوراق البنكنوت المصرية فى الاسواق الداخلية والخارجية بثبات قيمتها باعتبارها ايصـــالات مضمونة بغطائها

ثبتت اذن قيمة أوراق البنكنوت المصرية ، وكـــــان

باستطاعة كل فرد أن يتقدم بالورقة ذات المائة قـــرش الى البنك ليستبدلها بجنيه من الذهب ، وهذا مايسمى قابلية أوراق البنكنوت للاستبدال بالذهب ، وظـــلت الحال على هذا النحو الى أن كانت سنة ١٩١٦ كمـــا قلنا ، ففى هذا العام المشئوم صدر اعلان من وزارةالمالية المصرية هذا نصه :

« ليكن فى علم الجمهور انه من جهة النظر الى الزيادة الكبيرة التى لا تزال تحدثها احتياجات موسم القطـــن فى الطلب على أوراق البنكنوت ، ولما كان من جهـة ثانية يحسن الا يجمع من احتياطى الذهب مبلغ يزيد عـــلى الحد الذى تقضى به الحكمة فى الاحوال الحاضرة ، لذلك تقرر أن يتسامح مؤقتاً بعض التسامح فيما هو معروض على البنـــك الاهلى من ابقـــاء كمية من الذهب فى الخزانة تعادل على الاقل نصف قيمة أوراق البنـــكنوت المصدرة

« وقد رخص للبنك الاهـــلى ان يستبدل ببـــونات الخزانة الانجليزية التى الى أجل قصير المقـــدار الذى يلزم من احتياط الذهب لجعل الاحتياطى المذكور معادلا لنصف الاوراق المصدرة طبقا لقانون البنك »

ومعنى ذلك بلغة سهلة بسيطة هو أن وزير الماليـــة المصرية قد أباح للبنك الاهلى ابتداء من سنة ١٩١٦ الحق فى أن يصدر أوراق بنكنوت مصرية دون أن يكون ملزما بالاحتفاظ فى خزائنه بما يعادل نصف قيمتها من الذهب ، فله أن يصدر ما يشاء مقابل أذونات على الخزينة البريطانية، ولقد نص فى ذلك القرار المشئوم على أن ذلك انمـــا هو من باب التسامح

ومن غريب الامر أن هذا التسامح لا يزال مستمرا الى الان وانه هو السبب فى بلوانا الحاضرة ، فبفضـــــله

استطاعت انجلترا أن تسحب من البنك الاهلى ٣٥٠ مليونا من الجنيهات أثناء هذه الحرب وأن تشترى بها من بلادنا ما تريد وتنفق قواتها كما تبغى ، وكل ذلك مقابل أذونات على الخزينة البريطانية ، وها نحن اليوم عاجزون عن المطالبة بسداد هذه الاذونات أو اعطائنا سلعا وبضائع بقيمتها كما سيأتى البيان

منذ سنة ١٩١٦ أذن تخلص البنك من شرط الذهب ، وترتب على ذلك انه لم يعد يقبل استبدال أوراق البنكنوت بجنيهات ذهبية ، ولقد سار بنك انجلترا نفسه على هذه السنة ، وما البنك الاهلى الا تابع لبنك انجلترا وذيل له، واستمر الحال على هذا النحو الى أن كانت سنة ١٩٢٥ حيث قررت انجلترا ان تعوذ الى قاعدة الذهب وعادت معها مصر ، فأوصى المجلس الاقتصادى فى سنة ١٩٢٦ بأن تعمل الحكومة المصرية على أن يصعد الغطاء الذهبى الى ثمانية ملايين ، ولم يكن فى ذلك التاريخ الا ٣٫٣٠٠٫٠٠٠ جنيه ، وقد صعد فعلا الى ٦٫٢٤٠٫٠٠٠ جنيه فى سنة ١٩٣٢ واستمر كذلك تقريبا الى اليوم ، وقد أوصى المجلس الاقتصادى ايضا حينذاك بأن تستعمل السندات المصرية فى الغطاء بمقدار ثلاثة ملايين من الجنيهات ، ولكن البنك الاهلى لم يستعمل منها حتى الان الا ما قيمته ١٫٥٠٠٫٠٠٠ جنيه

واذن فالبنك الاهلى لم يقبل ان يعطى المصريين أوراق بنكنوت مقابل سندات مصرية كسندات الدين المتاز والموحد قبل عملية التحويل التى تمت منذ سنوات ، أو سندات القرض الوطنى الموجودة الان فى أيدى حامليها . .

ومع ذلك ففى الوقت الذى لم يقبل فيه البنك غير مليون ونصف من السندات المصرية كغطاء لاوراق

بنكنوت يرسلها فى التداول ، نقول فى نفس هـذا الوقت نرى المسمى مصريا يقبل أذونات على الخزينة البريطانية بما يساوى الرقم المخيف وهو ١١٠٫٠٠٠٫٠٠٠ جنيـه ، ولما كان هذا المبلغ الضخم يكفى لان تصل المعاملات المالية الى عدة مئات من الملايين باعتبار ان تلك المعـاملات ليست الا حسابات جارية فى البنوك وودائع مرصـودة وليس من الضرورى طبعا أن تكون مبالغها كلها حـاضرة فى خزائن البنك أو فى أيدى الناس فقد استطاع هـذا البنك العجيب أن يقدم لانجلترا الى الآن ٣٥٠ مليـون جنيه اخذتها على دفعات ثم عادت هذه المبالغ المأخـوذة بحكم التعامل الى البنك وأخذتها انجلترا من جـديد أو أخذت ما يساويها ، وهكذا الى أن تكون لنا هذا الدين الفاحش الذى لا تضمنه غير أذونات على الخزينـة البريطانية والذى نحاول الان جاهدين اسـتخلاصه من الحليفة العظمى

والسؤال الذى يتبادر الى الذهن هـو كيف أن الحكومات المصرية التى تتابعت اثناء هذه الحرب لـم يستخدم وزراء ماليتها حقهم الثابت فى دكريتو سـنة ١٨٩٨ الذى بمقتضـاه يستطيعون أن يختـاروا نوع السندات والاوراق المالية التى يجوز للبنك ان يقبلهـا كغطاء للبنكنوت ، نعم كيف لم يستخدموا هـذا الحق ليوقفوا هذا البنك عند حده ويمنعوه من أن يسـلم لانجلترا ٣٥٠ مليون جنيه بدون مقابل فعلى عاجـل ، كما فعلت ايران عندما أصرت على آن يدفع لها مقـابل من الذهب عما اعطت قوات الحلفاء الموجودة فى بلادهـا من أوراق بنكنوت ايرانية .

هذا هو السؤال ، وبالرغم من اتضاح الامر الان أمام البرلمان وامام الامة وامام الحكومة، وبالرغم من استعراض

لجنتى المالية بالنواب والشيوخ لهذه الحقـــائق التى سردناها لا يزال البنك الاهلى الى اليوم مستمرا عــلى خطته حتى لقد زادت كمية البنكنوت المتداولة فى الشهرين الاخيرين نحو ٢٫٠٠٠٫٠٠٠ جنيه اخرى ، وهنا يصح لنا أن نسأل الحكومة ماهو موقفها ؟ وان نسأل وزير المالية لماذا لا يستخدم حقه الثابت فى دكريتو سنة ١٨٩٨ فيتقف هذا السيل الذى سيجتاح البلاد ويدمر ثروتها ويشـــل تجارتها ؟

- ٢ -

رأينا فى المقالة السابقة كيف انه قد صدر من وزير المالية المصرية فى سنة ١٩٢٦ تصريح يجيز للبنك ان يصدر أوراق البنكنوت دون أن يحتفظ فى خزائنه بمايساوى نصف قيمتها ذهبا كما يقضى بذلك دكريتو تأسيسه الصادر فى سنة ١٨٩٨ ، وذلك اكتفاء بأن يكون الغطاء أذونات على الخزينة البريطانية ، ولقد بينا كيف أن هـــذا التصريح المشئوم قد ظل معمولا به الى الآن ، فأستباح البنك لنفسه الحق فى قبول مايساوى ١١٠ مليونات من الجنيهات أذونات على الخزينة البريطانية ، وبفضل هذا التصرف الجرىء اعطى البنك لانجلترا ٣٥٠ مليون جنيه مصرى اشترت بها من بلادنا ما أرادت وانفقت جنودها كما اشتهت ، ولقـد يتساءل القارىء كيف ان الحكومات المصرية المتعاقبـة لم تحاول ان تستخدم حقها المنصوص عليه فى دكريتو سنة

(*) نشرت فى ١٩٤٥/٧/١٧

١٨٩٨ فتقف البنك عند حده وذلك بأن يرفض وزير المالية المصرية قبول أذونات الخزينة البريطانية كغطـــاء لاوراق نقدنا ، وبخاصة اذا ذكرنا أن هذا البنك الاهلى لم ينفـذ الى الان الطلب المتواضع الذى تقدم به المجلس الاقتصادى فى سنة ١٩٢٦ عندما قرر ان يقبل البنك سندات مصرية تساوى ثلاثة ملايين من الجنيهات ضمن غطاء نقدنا ، فانه من الثابت أن هذا البنك لم يقبل الى اليوم من السندات المصرية غير ما يساوى مليونا ونصف

وعلى القارىء ان يسأل وزراء المـالية المتعاقبين عن جواب لهذا السؤال المؤلم

والذى نعلمه تاريخيا هو أن الحكومة المصرية قد حاولت فى سنة ١٩٤٠ أن تنشىء بنكا مصريا مركزيا يكون له هو حق اصدار أوراق البنكنوت بدلا من البنك الاهلى الذى هو فرع لبنك انجلترا ، ولكن هذه المحاولة لامر مالم تنجح وكانت سنة ١٩٤٠ هى سنة تجديد أو مد مدة امتيازالبنك الاهلى • فلما أثبتت الحكومة المصرية أنها عاجزة عن انشاء بنك مركزى مصرى اتجهت جهودها الى تمصير البنك الاهلى مادام لم يكن بد من مد امتيازه الى سنة ١٩٤٨

والآن نتساءل عن هذا التمصير وأثره ؟ لقد كان مداه هينا وأثره أهون ، أتدرى أيها القارىء ماذا كان هــــذا التمصير ؟ لقد كان أن اتفق على ان يـكون مجلس ادارته مصريا منذ سنة ١٩٤٠ وعلى أن تصبح أغلبية أعضاءمجلس الادارة مصرية أيضا فى سنة ١٩٤٥ ، ولقد تحقق هــذا بالفعل كما اتفق على أن يقصر التوظيف على المصريين ابتداء من سنة ١٩٤٠ الا فى أحوال استثنائية حددت فى الاتفاق ، ولكن ماذا كان أثره ، اللهم لاشىء الا تعيين نفر من المصريين رئيسا وأعضاء لمجلس الادارة يتقاضون مكافآت ضــخمة

ولا يملكون من النفوذ شيئا

واما السلطة الحقيقية فقد بقيت فى يد محافظ البنـك الانجليزى من جهة ، وفى يد الجمعية العمومية للبنـك من جهة أخرى ، والجمعية العمومية لا يمكن أن تتجـه سياستها نحو مصلحة مصر الا عندما تكون أغلبيتهامصرية، وليس من سبيل الى التحقق من ذلك الآن لامر بسيط هو أن أسهم البنك لن تصبح كلها أسمية كما اتفق عند مد امتياز البنك الا ابتداء من ٢٥ يونيو سنة ١٩٤٨ ، وعندما يتحقق ذلك سيصبح من الممكن مراقبة تلكالاسهم والوقوف على حركة تداولها ، وفى اليوم الذى سيكون فيه بيـد المصريين أغلبية تلك الاسهم سيحق لنا أن نقول ان البنك الاهلى قد تمصر

ومع ذلك فنحن لا نستطيع أن نقف مكتوفى الايدى أمام هذا الحصن الاستعمارى المخيف ، ومن واجب الحكومـة المصرية أن تبادر فتأمر وزير ماليتها الهمام بأن يسـتخدم حقه فى وقف هذا البنك عند حده ، والا اسـتفحل الامر ووقعت البلاد فى خراب محقق ، ومن المعلوم أن حـركة الاصدار الحالية قد وصلت بالقوة الشرائية الموجودة فى التداول الآن أو المثبتة فى دفاتر البنوك كحسابات جارية وودائع وفى صناديق التوفير كأمانات وما الى ذلك ، قد بلغت الان أربعمائة مليون ومائتين وخمسة عشر جنيها ، وهذا المبلغ الضخم خليق بأن يرتفع بالاسعار فى أطـراد ، وذلك حتى بفرض توفر السلع ، ومن المعلوم أن النقود وحكمها حكم السلع فاذا كثرت ضعفت قيمتها وستزدادهذه القيمة ضعفا اذا لم تشأ انجلترا ان تأخذ فى سدادالـ ٣٥٠ مليون جنيه المدينة بها لنا وذلك لان معظم الاربعمائةوسبعة مليونات الموجودة بين أيدينا الآن ستصبح بمثابة ايصالات لن تسدد ، هذا هو الوضع المدمر الذى وصلت اليهبلادنا

الان ، ولننظر فى النتائج الخطيرة المترتبة على هذه الكارثة فنرى ما يأتى :

أولا : ان مبلغ الثلاثمائة وخمسين مليونا التى أخذتها انجلترا من البنك الاهلى هى المبالغ التى اشترت بها جميع ما اشترته من مصر أثناء الحرب ، والتى انفقتها جنودها فى بلادنا ، فكأنها اذن قد اشترت وأنفقت من مالنا الخاص وهذا المال ليس ملكا للحكومة المصرية وانما هو ملك للافراد المصريين وذلك لانه يمثل أوراق البنكنوت المصرية التى بين أيدينا وأرقام الحسابات الجارية والودائع ومبالغ صندوق التوفير التى أشرنا اليها ، فهى اذن تمثل الجانب الاكبر من الثروة النقدية الموجودة فى مصر كلها وفى هذا ما يزيد المأساة خطورة ، وذلك لان دين انجلترا على مصر هو فى الواقع نقدنا المتداول أو المرصود فى الدفاتر وفى هذا ما يسلمنا الى الجانب الثانى من المأساة وهو تجارتنا الخارجية

ثانيا : اتضح اذن أن معظم نقدنا لا تضمنه الا أذونات على الخزينة البريطانية ، فهو دين على انجلترا والدين لايقبل الغير أن يحول اليه الا اذا كان مضمون السداد ،ولما كنا لا نعلم الى اليوم ماذا تنوى انجلترا بصدده فقد رأينا الدول الاجنبية ذات العملات السليمة مثل أمريكا والسويد والبرتغال وسويسرا ترفض أن تقبل الجنيه المصرى أو الاسترلينى سدادا لما نشترى منها من بضائع وتحتم علينا أن ندفع لها الثمن بعملتها هى وفى هذا ما يشل تجارتنا معها ..

ولقد كان الامر يهون بعض الشىء لو انه ترك لنا الحق المشروع فى أن نستولى على مايصل الى ايدينا من عملات هذه البلاد لما نبيع لها من بضائع أو نؤدى من خدمات أو

تنفقه قوات كالقوات الامريكية فى بلادنا من دولارات، ولكن الحكومة الانجليزية أبت أن تجردنا حتى من هذه العملات فوقعت مع مكرم «باشا» اتفاقا عجيبا هو اتفاق الاستيراد والعملة .. وبموجبه التزم وزير ماليتنا أن يقوم بعملية المحصل لبنك انجلترا ، واصدار أوامر عسكرية توجب على كل مصرى يصل اليه شيء من عملات البلاد التى ذكرناها أن يقدمها لوزارة المالية المصرية ، والوزارة تحولها الى البنك الاهلى ، والبنك الاهلى يحولها بدوره الى بنك انجلترا، وفى مقابل كل ذلك تعهد بنك انجلترا بأن يعطينا فى خلال سنة ١٩٤٥ من تلك العملات السليمة ما يساوى ١٥ مليونا من الجنيهات

واليوم وقد مضى نصف العام تسأل اللجنة المالية بمجلس الشيوخ عن المبلغ الذى أعطى لنا بالفعل فاذا به لا يتجاوز ما يساوى ٣٫٢٢٢٫٤٤٠ جنيها انجليزيا أى ما يزيد قليلا على خمس المبلغ المقرر لهذا العام ، مع أننا قد جاوزنا اليوم نصف هذا العام ، ولقد يسأل سائل السؤال الآتى :

هل من الممكن ان نعرف مقدار المبالغ التى كانت مصر تستطيع أن تحصل عليها من معاملاتها مع تلك الدول ذات العملات السليمة لنعرف هل غبنا بتحديد انجلترا لها بمبلغ الـ ١٥ مليونا من الجنيهات أم لا ؟

والجواب على ذلك يستطيع ان يجده القارىء فى تلغراف نشرته منذ يومين احدى صحفنا اليومية وعلقت عليه تعليقا قيما . والتلغراف يحمل ملخصا لمقال نشرته جريدة «نيويورك جورنال أوف كومرس» لكاتبة تعتبر حجة فى المسائل الاقتصادية وفيه تردد الكاتبة شكوى المصدرين الامريكان المرة من تحكم انجلترا فى تجارة الشرق الاوسط وقد جاء فيه « يقول المصدرون ان مدى التجارة الامريكية فى الشرق الاوسط لايمكن ظهوره على وجه التحقيق الا اذا كان قائما

على أسس وطيدة وغير مرتبط بأى نظام من شأنه جعل الدولارات تتسرب الى صندوق مشترك توزع منه انجلترا حصصا على بلاد الشرق الاوسط ويوجه هؤلاء المصدرون الامريكيون الى انجلترا انتقادا مرا لعدم توفير الدولارات التى تحتاجها بلاد الشرق الاوسط التى تمكنت ابان الحرب من أن تكون لنفسها أرصدة كبيرة من الاسترلينى بلندن »

واما عن كمية الدولارات التى باستطاعة الشرق الاوسط بما فيه مصر ـ أو كان باستطاعته ـ أن يحصل عليها لو ترك حرا فقد جاء عنها فى التلغراف « انه من المعتقد أن التجارة العامة بما فيها الارصدة غير المتطورة التى تدخل فيها نفقات الامريكيين فى تلك البلاد ستزودها بكميات وافرة من الدولارات تستعين بها على زيادة مشترياتها من أمريكا »

ومعنى ذلك هو أن الامريكان أنفسهم يشكون من انجلترا مثل ما نشكو وانهم يدركون أن المبالغ التى يمكن أن تحصل عليها لاشك تفوق الحصة التى تفضلت انجلترا فجادت بها علينا مما سنحصله لها بفضل وزير ماليتنا الهمام

ثالثا : لم يقف الامر فى شل تجارتنا الخارجية عند حد عرقلتها مع البلاد التى تنتج الآن بالفعل والتى تستطيع أن تسعفنا بما نحن فى مسيس الحاجة اليه لاستهلاكنا اليومى أو لتنمية صناعتنا ، نقول لم يقف الامر عند هذا الحد بل امتد الى غيرها من البلاد المحررة مثل فرنسا ذاتها ومنذ أيام قرأنا فى احدى الصحف الصباحية أيضا ان هذه الدولة تريد ان تشترى كميات من القطن المصرى ولكنها لا تستطيع الحصول على ما يلزمها من الاسترلينى لدفع الثمن ، واذن فالبنك الاهلى أو بنك انجلترا لا يريد أيضا أن يعطيا دولا مثل فرنسا ما يلزمها

من الاسترليني لتشترى منا جزءا من القطن الذى لايزال يكون محصولنا الاساسى

والآن وقد اتضحت تلك الاثار البعيدة التى نتجت عن جراة البنك الاهلى وضعف الحكومات المصرية واصبح من البين أن حياتنا الاقتصادية كلها مهددة أكبر تهديد فى الداخل وفى الخارج بتلك الكارثة ، يحق لنا أن نتساءل ماذا تنوى الحكومة المصرية ان تفعل ازاء هذا الحصن الاستعمارى الشنيع ؟

ثم متى يصبح لنا بنك مركزى مصرى (١) ينقذنا من حصن الاستعمار الذى يسمونه البنك الاهلى المصرى ؟!

---

(١) بعد قيام ثورة ٢٣ يوليو تحققت كل هذه الاحلام التى نادى بها الدكتور منذور منذ عشرين سنة واصبح لنا بنك مركزى واصبحت كل البنوك الاخرى تحت سيطرة الشعب المصرى تعمل لمصلحته ومن أجل اهدافه

حدث خطير

اتصال المثقفين بالعمال

لقد بدت بمصر فى هذه الايام ظاهرة تعتبر نقطة تحول خطيرة فى تاريخنا الحديث ، ويظهر هذا التحول من المقارنة بين الحركة الوطنية فى سنة ١٩١٩ والحركة الوطنية الحالية ، ففى سنة ١٩١٩ ، كانت الامة لا تتحرك الا اذا طلب اليها الزعماء الحركة ، وخبطوا فى جموع الشعب وساروا فى المظاهرات ، اما اليوم ، فقد نضج التفكير السياسى حتى رأينا جموع الشباب من « طلبة وعمال » يقررون بأنفسهم خطوات الجهاد العملى وينفذونها ، وتستجيب الامة لنداءاتهم

وفى سنة ١٩١٩ ، كانت الحركة سياسية بحتة فليس لها الا هدف واحد ، هو الغاء الحماية وتحقيق الاستقلال ، واما اليوم ، فقد اصبح من الواضح ان الحركة القائمة لا تعتبر تحقيق الاستقلال نفسه الغاية النهائية التى يقف عندها الجهاد ، وذلك لان الفرد قد اصبح يدرك ادراكا واضحا انه لا خير فى الغاء الرق الخارجى اذا دام الرق الداخلى جاثما على صدره ، وانه لا جدوى من

(*) نشرت فى ١٩٤٦/٣/١

أن يصبح الوطن عزيزا ، اذا ظل الفرد ذليلا ، بل ان التخلص من الاستعمار نفسه ليس الا وسـيلة لرفع مستوى الحياة بين طبقات الشعب ، وذلك بمنع الاجنبى من أن يستغل مصادر الثروة فى بلادنا

وليس بكاف ان ندافع عن قوتنا وقـوت أبنائنـا ومواطنينا ضد الاجنبى بل لابد من ان ندافع عنه أيضا ضد المستغلين من المصريين والاثرياء الجشعين حتى تتحقق العدالة بين الناس ، وتتاح الفرص لكافة المواهب ،ويفسح المجال لكل نشاط انسانى منتج

وهذا التفكير هو أقصى ما كنا نطمع فيه ، والبـلاد كانت بلا ريب سائرة نحوه ، ولكنه قد ظهر أخيرابصورة واضحة وما نظنه سيقف بعد اليوم قبل ان يبلغ أهدافه التى تتلخص فى الديمقراطية السـياسية والعدالة الاجتماعية الى جوار استقلال وادى النيل

والشىء الذى يستحق التسجيل هو أن هـذا التفكير قد خرج من حيز الفكر والاحساس الى حيز العمـل والتنظيم ، وقد أتت الخطوة الاولى اليه من شباب الجامعة المثقفين القلقين على مستقبلهم قلقهم على مستقبل بلادهم ، فهم الذين سعوا الى العمال بدافع ذاتى يريد المغرضون الكاذبون أن يشوهوا جماله فيتحدثون عن أيد خفية فيه ، وهم لا يكذبون عندئذ فحسب بل ويأثمون

والذى لا شك فيه هو ان الامر لم يعد يحتمل تسويفا، فجموع الامة عاقدة العزم على تغيير الاوضاع الاجتماعية القائمة واعادة النظر فى الهوه السحيقة التى تفصل بين الغنى والبؤس فى مصر ، وان الشعب لم يعـد يقنع بالوعود الخاوية والاصلاحات الهزيلة التى تقـرب من الاحسان ، وانه يتطلب اليوم سياسة جريئة لا لمحاربة

الفقر والمرض والجهل فحسب ، فتلك واجبات الحكومة البديهية ، وانما لخلق ظروف للعمل تتفق وكرامة البشر، ولا تحرمهم من ثمرة مجهودهم الكاملة ، كما تفتح أمام المواهب الطريق واسعا لا تقوم فيه حواجز مصطنعة ولا عوائق ظالمة باغية ..

ولسنا نحن الذين نردد هذه الافكار ، وانما نلتقطها من ألسنة الشبان جميعا في الجامعة ، بل ومن ألسنة اساتذتهم ، كما نلتقطها من أفواه جميع موظفى الدولة الذين يزيد عددهم عن المليون ونصف ، وذلك فضلا عن عمال الحكومة وصغار موظفيها الخارجين عن الهيئة ، واما عمال الشركات والمصانع الاهلية فقد اصبحت هذه الاراء نشيدهم المستمر

واذا كانت هناك طبقة كبيرة من الامة وهى طبقة الفلاحين لم تدرك بعد مدى ما هى فيه من بؤس ولا تحركت للخلاص منه ، فان ذلك آت عما قريب ، وذلك لان هذا التفكير لم يعد قاصرا على العواصم بل قد امتد الى المراكز ، وأخذ يتسرب الى القرى التى لم تعد تخلو اليوم احداها من الطلبة والمثقفين الذين يترددون عليها من حين الى حين اثناء الاجازات ويخالطون الفلاحين ويخالفون اباءهم في الرأي وينشرون التفكير الجديد فى كل مكان

سياسة الرأسمالية

أحست حكومة صدقى باشا أن العالم كله بما فى ذلك انجلترا يسير نحو تحقيق العدالة الاجتماعيــــة ، وأدرك بدهائه الثاقب أن طبقات الشعب المصرى قد وصلت من البؤس حدا ينذر بالخطر بعد أن تيقظت العقول وصحت الافهام ، فلم تر بدا من أن تعلن عزمها على رفع مستوى الشعب ، ولكنها لم تكد تطلع علينا بأول خطوة عمليــــة نحو رفع مستوى هــذا الشعب المنــكود حتى ظهــرت سياستها الرأسمالية سافرة واضحة .

فقد قال دولته فى خطاب تأليف الوزارة ، انه سيرفع مستوى الشعب بتنمية الانتاج وهذا خير ، ولكن دولته لم يشر أية اشارة الى مشكلة توزيع الثروة فى مصر مع أن العالم كله متمدينا وغير متمدين يعرف أن مصر تعانى من تفاوت الثروة فيها تفاوتا بلغ حداً لا يطاق

وبالامس طلعت احدى الصحف الصباحية بنبأ مشروع كبير لدولة صدقى باشا الرأسمالى يقضى بعقد قرض وطنى بمبلغ خمسين مليونا من الجنيهات لمحاربة الفقر والمرض والجهل . وهذه هى السياسة الرأسمالية كما يعرفهــا الخاص والعام وذلك للاسباب الآتية :

(*) نشرت فى ١٩٤٦/٣/١٧

أولا : قرض لا ضريبة : ان بلادا لا تبلغ فيها الضرائب مهما علت حدا يتجاوز ١٢٪ لا يفهم أحد كيف نلتجيء الى القروض اذا أرادت تنمية ميزانيتها لمواجهة أمراض قتالة مزمنة كالفقر والمرض والجهل . وفى جميع العالم تبلغ ميزانية أفقر البلاد رقما يساوى عدد سكانها مضروبا فى عشرة جنيهات

ومصر يبلغ عدد سكانها ١٨ مليونا فكان من الواجب أن تصل ميزانيتها بمواردها العادية الى ١٨٠ مليونا على الاقل

ولكن كيف السبيل الى ذلك وها نحن نرى أمورنا تليها وزارة رأسمالية على غير ما نراه فى بلاد العالم قاطبة ؟

نعم كيف السبيل الى ذلك اذا كانت أمورنا تليها وزارة تبدأ عهدها بتخفيض الحد الأعلى للضرائب الاستثنائية التى يدفعها التجار الجشعون الذين يمتصون دماء الشعب من ٧٥٪ الى ٥٠٪ وتقر الغاءها فى سنة ١٩٤٨ حتى ولو ظلت حالة الغلاء والاستغلال السائدة الآن مستمرة ؟

ولو أن حكومة صدقى باشا كانت حكومة ديمقراطية حقا وأرادت أن تعالج الفقر والمرض والجهل وأعوزها المال اللازم لذلك لاقدمت فورا على تغيير نظامنا الحالى وفرض ضرائب تصاعدية جديدة تستطيع أن تحصل بها ، لا على ٥٠ مليونا بل على ١٠٠ مليون دون ارهاق حقيقى لكبار الاثرياء الظالمين

ثانيا : استثمار رؤوس الأموال : ان مصر تطفح الان برؤوس الأموال المكدسة المعطلة بين أيد قليلة من كبار الأثرياء ولا أدل على ذلك من أن نرى شركة كشركة

الحرير الصناعى التى تكونت منذ اسابيع تفتح اكتتـــابا بمبلغ ٧٥٠ الفا من الجنيهات فتنهال عليها ١٦ مليـــونا وكسورا أى أن الاكتتاب قد غطى بما يســاوى قيمته ٢٢ مرة

وتعطيل مثل هذه الاموال لا يرضى الرأسماليين الذين يريدون استثمار أموالهم ليحصلوا على ربح له من دماء الشعب ، ولهذا يفكر صدقى باشا فى عقد قرض بمبـلغ ٥٠ مليونا من الجنيهات وتبلغ به الجراة ان يقرر فرض ضرائب جديدة لدفع فوائد هذا القرض . وهكذا حتى الضرائب الجديدة التى يريد فرضها يحرص على ان تذهب الى جيوب المموليين ، ولا يظن صدقى باشا أنه سيغطى حقيقة سياسته بما يقوله من ان القرض يستخدم لمحاربة الفقر والمرض والجهل . فالأمة وان كانت حريصة على محاربة هذه الأدواء الا أنها لا تريد ان تمكن الرأسماليين من زيادة أموالهم بأرباح يأخذونها من ميزانية الشـــعب المسكين ، كما انها ترى ان السبيل العادل لتدبير المـــال اللازم هو سبيل الضرائب التصـاعدية التى فيها بعض العلاج للحالة الاجتماعية التى تدعو الى الأسى العميق

ثالثا : الميزانية والقــروض : على آن رجال المـــال والاقتصاد من أمثال صدقى باشا أنفسهم يعرفون حـق المعرفة ان القروض لا تعقدها الحــــكومات لتصرفها فى الأبواب التى تغذيها الميزانية العادية كمسائل الفقر والمرض والجهل ، وانما تعقد القروض للأعمال الانتــاجية التى تستفيد منها الأجيال اللاحقة الى جوار الاجيال الحالية، ويكون فى هذا ما يبرر تحملها لسداد تلك القروض على مدى السنين . واما ان يعقد قرض لعلاج أمراض جيـل بالذات ثم تحمل الأجيال اللاحقة عبئها ، فذلك مالا يمكن أن يقول به أحد ..

ولكن صدقي باشا قد نسي أو تناسي كل ثقافته الاقتصادية والمالية والذى يهمه هو ما يظن من أنه سيصيب بسياسته هذه عصفورين فيرضى الرأسماليين بأن يفتح لهم بابا لاستثمار أموالهم المعطلة ويوهم الشعب بأنه يعمل على رفع مستواه

ولكن الامة لن تنخدع بهذه السياسة بعد أن استيقظت عن بكرة أبيها وأصبحت تطالب فى جد وعزم بالخروج من حالة البؤس التى يعيش فيها الشعب اليوم والتي لا يمكن أن تدوم ..

واذا كانت هناك نصيحة نستطيع ان نسديها الى صدقى باشا واخوانه الرأسماليين فهى أن يسايروا الزمن ويعرفوا بأن الشعب اذ لم يعد يطيق الاستعمار الخارجى فهو من باب أولى لن يصبر على الاستعمار الداخلى الذى يمس قوته وحياته اليومية عن قرب ..

اتجاه المفاوضات

يطالع القراء فى غير هذا المكان برقية لوكالة « روتر » تفيد أن المستر بيفن قد صرح فى مجلس العموم أمس بأن الحكومة البريطانية قد ألفت برياسته وفدا للمفاوضة مكونا منه هو واللورد ستانسجيت وزير الطيران والسير رونالد كامبل السفير البريطانى فى القاهرة تساعدهم هيئة من المستشارين

وإننا وان كنا لا نريد أن نسبق خطى الزمن ولا أن نتعجل الحكم على النتائج الا اننا نرى من واجبنا أن نلفت النظر الى الاتجاه الذى يطالعنا من ثنايا البرقية المشار اليها ..

ونلخص ظواهر هذا الاتجاه فيما يلى :

جاء فى تصريح المستر بيفن « أن الحكومة البريطانية قد وافقت على القيام بهذه المفاوضة على ضوء تجاربنا المتبادلة ومع مراعاة نصوص ميثاق الامم المتحدة لضمان السلام والأمن الدولى » ولقد أوضح مستر ريتشارد لو من المحافظين ووزير الدولة السابق معنى التجارب المتبادلة اذ قال : « ان المجلس بأجمعه يرحب بالفرصة التى هيأتها هذه المفاوضات لتؤكد من جديد معاهدة التحالف الانجليزية المصرية ، وذلك التحالف الذى كان

(*) نشرت فى ١٩٤٦/٤/٢

ذا فائدة عظيمة لكلا البلدين والذى ربما كان اكثر نفعا لمصر منا »

واذن فالانجليز لا يزالون عند رأيهم الذى عبروا عنه فى الرد الذى أرسلوه على مذكرة النقراشى « باشا » انهم قد قبلوا المفاوضة على أساس التحالف الثنائى وميثاق سان فرنسسكو معا

ونحن أبناء مصر لا نفهم ماذا يريدون من الجمع بين التحالف وبين نظام سان فرنسسكو ، وبخاصة بعد أن عرفنا معنى هذا التحالف الذى لا يمكن فهمه بين انجلترا وبيننا الا على أساس أنه وسيلة للحد من سيادتنا وتحميلنا بالتزامات نحو انجلترا لا قبل لنا بها

وأما ما ذكره المستر لو من أن هذا التحالف ربما كان اكثر نفعا لمصر منه لانجلترا ، فذلك ما لا يراه المصريون ، بل هو ما يحذرونه

ومصر ترى أن باستطاعتها أن تدافع عن نفسها ، وأن قدرتها ليست أقل من عشرات من الدول المتوسطة والصغيرة الاوربية والامريكية بل والشرقية التى لن ترغمها الدول الكبرى على التحالف معها ولن تلقى فى روعها بالقوة أن هذا التحالف فى مصلحتها

اننا نؤمن أن زمن التحالف مع انجلترا أو غير انجلترا من الدول الكبرى قد انقضى بانقضاء زمن الاستعمار وقد أصبحنا نعتقد أن هذا التحالف مرادف للاستعمار وان التمسك به بعد تنظيم السلام تنظيما دوليا انما يخفى تحت طياته التمسك بالنزعة الاستعمارية القديمة، تلك النزعة التى قال مستر بيفن نفسه فى خطابه فى بريستول انها نزعة القرن التاسع عشر التى يجب أن تزول

ونحن نذهب الى ابعد من ذلك لاننا لا نريد أن نتخلص من الاحتلال من الباب فيأتينا من النافذة ، وذلك لان اشارة المستر بيفن الى ميثاق الامم المتحدة نخشى أن تكون متجهة نحو محاولة استبقاء انجلترا لجزء من قواتها البرية او البحرية أو الجوية ببلادنا ، والاحتفاظ بنقط استراتيجية فى أرضنا أو موانينا أو مطاراتنا ، وذلك باسم مجلس الامن ونحب أن نلفت نظر مواطنينا فى هذه المناسبة الى أن ميثاق سان فرنسسكو نفسه لا يفرض على أية دولة ذات سيادة كمصر قبول قوات أجنبية فى أراضيها ، وانما يجوز ذلك فى البلاد غير المتمتعة بالسيادة

وموضع الخطر الذى يجب أن ندفعه بكل ما نملك من عزم هو أن يحاول الانجليز تبرير استبقاء بعض قواتهم فى بلادنا او الاحتفاظ بنقط استراتيجية فيها باسم التحالف الثنائى اذا جمعوا بينه وبين تنظيم سان فرنسسكو

هذا الخطر يجب ان نصحو له وان نطالب المفاوض المصرى بأن يدفعه فى يقظة وعزم والا كان مفرطا فى قضية البلاد مخيبا لامالها وعندئذ ستناله الامة بسخطها البالغ

ويلاحظ القراء من تكوين الوفد البريطانى أن الانجليز يتجهون بالمفاوضات وجهة عسكرية اقتصادية بدلا من الوجهة السياسية التى كنا نبغى ولا نزال نبغى أن تظل المفاوضات فى حدودها

منذ يومين صرح الزعيم غاندى باسم الهند بأن ما يطلبه الهنود هو الاستقلال بلا ثمن أو مقابل لان الاستقلال حق طبيعى وهو يرفض كل مساومة فيه حتى ولو كان الثمن والمقابل مجرد الصداقة لبريطانيا ومن باب أولى

التحالف الذى لا يقبل الزعيم الهندى على أن يملى على بلاده

ذلك ما يراه الزعيم الهندى مع أن الهند لم تتمتع بعد بسيادتها فكيف بنا نحن ؟!

على أننا نوجس خيفة من أن يكون الاتجاه الانجليزى مناهضا لاتجاهنا الوطنى مناهضة تامة ، فمنذ حين والبرقيات الخارجية تتوالى علينا بتوجيه المفاوضة وجهة عسكرية قبل كل شىء ، وفى كل يوم نسمع ونقرأ أن الانجليز يرون أن المشكلة المصرية مشكلة خبراء حربيين ، وها هو تأليف الوفد يترجم عن هذا الاتجاه ، فان الرئيس الذى سيتولى المفاوضة هو وزير الطيران ، ومعظم الاعضاء من رجال الحرب ، ويكفى أن من بينهم قواد الوحدات البرية والبحرية والجوية ، وهؤلاء الحربيون لا يمكن أن نتوقع منهم خيرا لقضية استقلالنا، بل على العكس نخشى منهم التفتت والافتنان فى تبرير احتلالنا والحد من سيادتنا باسم الاعذار الواهية من نوع ما يرددونه عن حماية مواصلات الامبراطورية وضرورة الدفاع عنها ضد الدول الاخرى ، وما شاكل ذلك من حجج لا تنهض ضدنا أو تظاهر بغيرة باطلة على سلامتنا

والى جانب هؤلاء العسكريين سيضم الوفد طائفة من الخبراء الاقتصاديين وفى هذا ما يشعر بأن المفاوضات ستجمع بين المسائل السياسية والعسكرية وبين المسائل الاقتصادية ، وأهول ما نخشاه هو أن يعود الانجليز فيستغلوننا ببعض الالفاظ والترضيات الوهمية مقابل الجوهريات التى سيأخذونها منا!

ولقد سبق لهم أن صرحوا بعينة من هذا الاستغفال عندما رددوا وجوب انزال العلم البريطانى عن ثكنات

قصر النيل ، أو اخلائها بالطبل والزمر ، وعندما قالوا أيضا بوجوب ابعاد الجنود البريطانيين عن نظر المصريين معتقدين أن فى هذا ما يكفى حتى ولو انتقلوا من القاهرة الى قليوب

ولمصر مصالح اقتصادية ومالية خطيرة عند انجلترا، وهى لا تقبل المساومة فيها مقابل ترضيات سياسية أو حربية شكلية لا تغير من الواقع شيئا

ولقد مدت الحكومة المصرية منذ أيام لسوء الحظ اتفاق العملة والاستيراد الخانق لحياتنا الاقتصادية والمشل لتجارتنا الخارجية والمقيد لعملتنا بأقسى القيود الى نهاية هذا العام بينما لم نسمع انها قد حركت مسألة الدين المصرى على انجلترا الذى بلغ الان ٤٥٠ مليونا من الجنيهات ، بل لم نسمع أنها فكرت فى ايقاف تزايد هذا الدين الذى أصبح نزيفا مميتا للبلاد

وها هى المفاوضات مقبلة ، والانجليز لاشك سيطالبون فيها بامتيازات تجارية ومالية واقتصادية كما سيثيرون مسألة معاهدة الاقامة التى تعطى جاليتهم فى مصر ، ومن يريد أن ينضم اليها من أبنائهم حقوقا ونخشى أن نقول امتيازات كتلك التى تخلصنا منها بمعاهدة مونتريه بعد شق الانفس

والذى نريد أن نحذر منه المفاوض المصرى ، بل ونحذر منه البلاد هو أن تكون هذه المسائل الاقتصادية والمالية العظيمة الخطر ثمنا لترضيات شكلية يجود بها الانجليز

ان مصر تريد أن تستخلص ديونها وحريتها الاقتصادية من انجلترا ، وعندما يكون هذا شأنها ، فان غضبها سيكون عظيما اذا رأت الانجليز بدلا من أن يردوا الينا حقوقنا ينتزعون منا لانفسهم حقوقا وامتيازات جديدة وذلك ما يجب ان يتدبره المفاوض المصرى • ان الاتجاه

بالمفاوضات كما يدل تكوين الوفد البريطانى اتجاها عسكريا واقتصاديا بدلا من الاتجاه السياسى ينذر بالخطر ويدعو الى اليقظة ..

ولقد أدهشنا ما عاد الانجليز يلوكونه من ادخال الممتلكات البريطانية الحرة فى مشكلة مصر اذ قال المستر بيفن ردا على سؤال خاص بذلك « ان القرار بالموافقة على فتح باب المفاوضات لتعديل المعاهدة قد أبلغ للممتلكات المستقلة وأنه سيبلغهم أسماء الممثلين الذين سيتولونها »

والانجليز طبعا احرار فى أن يبلغوا ما يشاءون لمن يشاءون حتى ولو كان تبليغهم لسكان المريخ ولكننا حريصون على أن ننبه الى خطر ما قد يستفاد من مثل هذا التصريح

ان مصر ليست داخلة فى نطاق الامبراطوريات البريطانية ولا هى حريصة على ذلك بعد أن أفنت مايزيد على نصف قرن فى المطالبة عبثا باستقلالها ، وأراقت فى سبيل هذا الاستقلال العزيز من دماء شهدائها دون أن يستطيع الانجليز التسليم بأن ما تطالب به مصر انما هو حقها الطبيعى وأن المصريين الذين خلقهم الله احرارا لم يعودوا يطيقون صبرا على الاستعمار أو استغلال

أُسّ الفســـاد

شكت الينا بعض الجهات الحكومية من تعضيدنا لحركة العمال ، وكان من بين حججهم ما قالوه من ان الكثير من العمال أكثر فطنة الى حقوقهم منهم الى واجباتهم

ولسنا نريد مناقشة هذا الرأى لانه يحتـــاج الى تحقيقات قد نصل اليها يوما ولكنها ليست الآن تحت أيدينـــا

الا انا من جهة اخرى نطالع كل يوم فى الصحف ونشهد من تصرفات الحكومة ومناقشات البرلمـان ما يقطع بأن السياسة التى تسير عليها حكومة صدقى «باشا» سياسة مسرفة فى الرأسمالية على نحو خطر يخشى أن تكون له أسوأ العواقب

ولقد انتقدنا وننتقد كل يوم الكثير من تفاصيل تلك السياسة وكلياتها ، واليوم لفت نظرنا الى خطورة تلك السياسة اعلان نشرته كافة الصحف عن تكوين شركـة باسم « شركة الصناعات الكيماوية المصرية » برأسمـال قدره أربعة ملايين من الجنيهات دفع ٥٥٪ منها ــ أى أكثر من مليونين من الجنيهات ــ ستة «باشـوات» هم أعضاؤها المؤسسون وفتح باب الاكتتاب لعامة المصريين وغير المصريين فى الباقى

(*) نشرت فى ١٩٤٦/٤/١٧

وقبل ذلك بأيام قرأنا اعلانا آخر عن شركـة أخرى تسمى « شركة الشمس » تأسسـت على نفس المنوال

وقبل ذلك ايضا بأيام تكونت شركة للحرير الصناعى على نفس النحو ، وفى كل هذه الشركات تطالعنا اسماء نفس « الباشوات » كأنها قاسم مشترك اعظم فى استغلال ثروة البلاد والسيطرة عليها

وفى هذا ما يفسر وقوف أمثال صدقى «باشا» وسابا حبشى «بك» فى وجه المشروع بالقانون الذى تقدم به أحد النواب للحد من استغلال «الباشوات» الوزراء السابقين واللاحقين لنفوذهم السياسى داخل الشركات التى يسرهم دائما ان يكونوا أعضاء فى مجالس ادارتها

وبالرغم من ان هذا المشروع بقانون قد كان سخيا جدا اذ أباح الجمع بين عضوية خمس شركات ورياسة شركتين ، وبالرغم من أنه لم يحرم الوزراء السابقين من العمل كمديرين أو أعضاء مجلس ادارة أو مستشارين أو خبراء فى الشركات المساهمة الا فى مدة الثلاث سنوات التى تلى تركهم للوزارة ، نعم بالرغم من كل هذا السخاء فان سابا حبشى «بك» قد غضب واحتج على هذا القانون فعملت الترتيبات اللازمة فى اللجنة المالية بمجلس النواب ليقرر المقرر ان مثل هذا المشروع لا ضرورة له لان بعض احكامه من الواجب أن تكون ضمن القانون التجارى العام والبعض الآخر ضمن قوانين التوظف

وبالطبع لن يعدل القانون التجارى العام فى هذا المعنى، ولن تعدل قوانين التوظف ، وكل هذه حيل للتخلص من مشروع القانون الذى يضايق السادة الوزراء والسادة الماليين من رجال التشريع

ولما كان حفنى محمود « باشا » قد جد واجتهد فى الوزارة السابقة عندما كان وزيرا للتجارة والصناعة وقبل

ان ينقله صدقى «باشا» الى وزارة المواصلات وينحيه من احدى وزارات المال التى يلوح أن اتجاهه فيها ليس مرضيا للسادة المولين

نعم لما كان حفنى «باشا» قد جد واجتهد فوضع قانونا عاما للشركات ضمنه احكاما تشبه الاحكام التى وردت فى مشروع القانون السالف الذكر فان عددا كبيرا من النواب الذين يسوؤهم هذا الانحلال السياسى والاخلاقى كما يسوؤنا قد طلبوا الى الوزير سابا حبشى «بك» بشدة أن يتقدم اليهم بهذا القانون (قانون حفنى «باشا») فى ظرف خمسة عشر يوما على الاكثر

ولقد رفض الوزير الاكتفاء بهذه المهلة واراد مهلة أوسع ، ولكن المجلس لم يوافقه لانه خشى التسويف والهروب ولو أننا كنا فى بلد دستورى صحيح لوجب ان يستقيل عندئذ الوزير ولكن الوزير لم يستقل بل ازداد مضيا فى سياسته التى يستند فيها طبعا الى رئيسه ويستمد منه كل عون وتأييد

هذه الحالة وهذه السياسة أصبحت شيئا لا يطاق واكبر الظن ان هؤلاء « الباشوات » وأولئك الساسة الحكام لا يحسون على الاطلاق ان الحالة فى مصر لم تعد تسمح بمثل هذه السياسة لا من الناحية الاخلاقية ولا من الناحية السياسية

وانه لمن اعادة القول ان نصور ما قد بلغه الشعب المصرى من بؤس نتيجة لتفاوت الثروات تفاوتا قليل النظير فى بلاد العالم اجمع

وانه لمن اعادة القول أيضا أن نصور ما نرى الشعب آخذا فيه من اليقظة والفطنة الى حقوقه فى الحياة

والذى لا ريب فيه هو أن مصر تجتاز الان من الناحية

الاجتماعية مرحلة أشبه ماتكون بالمرحلة التى اجتازتهـا فى أعقاب الثورة الوطنية سنة ١٩١٩

فقبل سنة ١٩١٩ كان حكم البلاد تتبادله حفنــة من الباشوات الاتراك وما عدا ذلك من المصريين لم يكن لهم الحق فى أن يكونوا شيئا غير مجرد مرؤوسين ، ولكن الثورة غيرت هذا الوضع فرأينا فلاحين يتزعمون الامــة المصرية ويلون الحكم فيها . وكان سعد زغلول أول فلاح حاز هذا الشرف والان نرى الشركات تؤلف كل يوم ولا يخرج أعضاؤها المؤسسون عن حفنة من « الباشوات » تنتقل أسماؤهم من شركة الى أخرى وليس لمن عداهم من المصريين ان يؤسسوا شيئا أو يسيطروا على شيء ، فهم لم يخلقوا لذلك ، وهم ليسوا فى كفاية هؤلاء «الباشوات» وان كنا فى الحقيقة لا نعلم ماذا يفعل هؤلاء «الباشوات» عندما يعملون كأعضاء فى مجالس ادارة تلك الشركات التى يتقاضون منها مكافآت تقدر بالآلاف

وبالطبع مثل هذه السياسة تستوجب من سابا حبشى «بك» بل من صدقى «باشا» ان يفتيا بأنه لا محـل الان لفتح بنك صناعى يمول الشركات عند انشائها ، وبخاصة اذا ذكرنا أن ٥١ ٪ من رأسمال هذا البنك كان من المقرر أن يكون ملكا للدولة

نعم ، ان مثل هذه السياسة كانت لابد مستوجبــة ايقاف انشاء هذا البنك حتى يستطيع «الباشـــوات» المولون تأسيس ما يريدون من شركات وهذا ما كان ..

يخيل الينا ان هؤلاء « الباشوات » فى نوم عميق وان يقظتهم ستكون مزعجة ..

كيف تستغل الشركات
نفوذ بعض الباشوات

جاء فى مذكرة المسيو جيانوتى التى نشرتها « صوت الامة » بالامس فى معرض الحديث عن صلة صدقى «باشا» بشركة الغاز المصرية Sep ما يأتى :

« تحصل صدقى «باشا» عند تكوين الشركة على ٢٥٠ سهما يدفع ثمنها بالتقسيط من حصته فى الارباح المستقبلة »

ومن هذا الاعتراف الخطير نستخلص مايأتى :

١ ـ ان صدقى «باشا» قد أعطيت له ٢٥٠ سهما دون أن يدفع مليما واحدا من ثمنها بل يخصم هذا الثمن من أرباح الاسهم نفسها فى المستقبل ..

٢ ـ أنه قد اعطى ٢٥٠ سهما بالذات ليكون مقدار اكتتابه الرسمى فى الشركة ١٠٠٠ جنيه باعتبار أن ثمن السهم الواحد الاسمى هو ٤ جنيهات

٣ ـ انه لما كان القانون يشترط لكى يكون الفرد عضو مجلس ادارة امتلاكه لاسهم تساوى على الاقل ١٠٠٠ جنيه فقد أصبح لصدقى « باشا » بموجب هذه الـ ٢٥٠ سهما ان يصبح عضو مجلس ادارة

٤ ـ انه مادام لصدقى «باشا» الحق فى أن يصبح

(*) نشرت فى ١٩٤٧/٥/٤

عضو مجلس ادارة ـ وقد أصبح بالفعل ـ فيكون له الحق فى أن يصبح ايضا رئيسا لمجلس الادارة وهذا ما حدث بالفعل ..

وهذه هى الطريقة التى تحتال بها الشركات لكى تضم اليها ذوى النفوذ من رجال السياسة عندنا لكى تستغل ذلك النفوذ ـ وهى طريقة تنافى بلا ادنى شك كل مبادىء الشرف

والآن ، هل يعرف القراء مدى ماربحه صدقى «باشا» من هذه العملية ؟

لقد ربح صدقى ما يأتى :

١ ـ ربح ثمن هذه الاسهم الذى ارتفع من ٤ جنيهات الى ١١٠ جنيها اليوم ، وبذلك صارت الالف جنيه التى لم يدفع منها شيئا ٢٧٫٥٠٠ جنيه

٢ ـ مكافأة رياسته لمجلس الادارة وهى مكافأة سنوية كبيرة

٣ ـ ربح الـ ٢٥٠ سهما السنوى

٤ ـ سيطرته على الشركة ، وتوصله الى محاولة ما أراد أن يفعل مع غيره من شراء أسهم المسيو جيانوتى (١) وما فى هذه الصفقة من ربح لا يخطر على الخيال

ولكى نزيد الامر وضوحا ونبين مدى هذا الاستغلال المعيب نسرد للقارىء بعض المعلومات الرسمية عن هذه الشركة فنقول :

انها تأسست بالقاهرة عندما كان صدقى «باشا» رئيسا للوزارة ووزيرا للمالية بتاريخ ١٨ فبراير سنة ١٩٣٢ لمدة ٥٠ سنة ومجلس ادارتها يتكون من اسماعيل صدقى «باشا» رئيسا ، ومحمد طاهر «باشا»

---

(١) صاحب الشركة الاصلى وعضو مجلس ادارتها المنتدب وهو ايطالى الجنسية

نائبا للرئيس ، والمرحوم ايلى عدس عضوا منتدبا بعد المسيو جيانوتى وعطا عفيفى «بك» واحمد صديق«باشا» وموريس اندريو وقسطنطين سلفاجو وجاكو دى كومب والفريد بونافو اعضاء

وأما أعمال الشركة فهى التجارة على وجه عام فى مصر والخارج وعلى الاخص تجارة البترول والبنزين والمازوت وجميع المنتجات الاخرى المماثلة

وللشركة أن تمثل أى مشروع تجارى أو صناعى او تستغل اى امتياز وان تقوم بجميع العمليات التجارية والصناعية والعقارية والمالية والبحرية التى تتصل مباشرة او غير مباشرة بغرض الشركة الاساسى وقد تملكت هذه الشركة كل رأس مال شركة الغاز الاهلية وقدره ١٠٠٠٠٠ جنيه — كما عقدت اتفاقا بينها وبين شركة « كاليفورنيا تكساس أويل » وحصلت على توكيل بتمثيل شركة « أومينوم » الفرنسية للبترول وهى شركة لها عمليات مهمة فى رومانيا

وأما رأس مال هذه الشركة فقد كان ابتداء من سنة ١٩٣٨ ، ٧٢٫٩٠٠ جنيه ممثلا فى ١٨٫٢٥٥ سهما قيمة كل منها ٤ جنيهات ، وبالرجوع الى ميزانيتهاالسنة ١٩٤٤ — ١٩٤٥ وجدنا ان احتياطياتها المتنوعة قد بلغت ١١٩٫٠٨٨ جنيها ، وأن صافى أرباحها قد كان ٨٤٫٠١٦ جنيها . هذه هى شركة الغاز المصرية ، وذلك هو نشاطها ومبلغ ربحها ، ومنها يتضح ما بلغه ربح صدقى «باشا» وأمثاله منها

ولقد سبق أن رأينا كيف مكن صدقى «باشا» من هذه الارباح دون أن يدفع مليما واحدا مقابلا لها

ومن الغريب بعد ذلك أن ترتفع أصوات قائلة بأنه لاضير فى أن يشترك «الباشوات» أو بعضهم فى نشاطنا

الصناعى أو التجارى ، وأن يربحوا من وراء ذلك المال الوفير ، نعم ، من الغريب أن ترتفع مثل هذه الاصوات للرد على من ينادون بضرورة ايقاف استغلال النفوذ ، فهانحن أمام حالة ناطقة ، وذلك لان صدقى «باشا» رجل من ذوى الثراء ، وقد كنا نفهم أن يشترك بماله الفعلى فى هذه الشركة او غيرها ، وأما أن نراه لايدفع مليما واحدا ، ثم تعطيه الشركة رغم ذلك ٢٥٠ سهما وتجعله عضو مجلس ادارة بل ورئيس مجلس ادارة فهذا شيء لا يستطيع فهمه انسان ولا يمكن تفسيره على أنه مساهمة مشروعة فى استغلال مورد الثروة فى البلاد

واذا لم يكن هذا هو استغلال الشركات لنفوذ بعض « الباشوات » فماذا يكون استغلال النفوذ ؟ .. الامر بين وانه لمن الواجب القضاء على مثل هذا الفساد الذى يهدد مصالح مصر العادلة وشعبها البائس أشد التهديد بأن يمكن هذه الشركات من السيطرة على البلاد وأهلها بل والادارة الحكومية فيها أقبح السيطرة وأعظمها جرما

ارتفاع أسعار القطن

اكبر شاهد على ان الحياد

هو المحقق لمصالح مصر

لقد أصبح الحياد السياسة المقررة لا لشعب مصر وحده بل وللغالبية العظمى من الشعوب العربية الاخرى التى أخذت تعلن فى وضوح انها ترفض الانضمام الى أية كتلة دولية وذلك لكى تتخلص من الاستعمار الانجليزى العتيق، والاستعمار الامريكى الناشىء ، ثم لكى لا تنزلق الى حروب دولية لا دخل لها فيها ولا مصلحة . هذا هو ما استقر عليه اجماع تلك الشعوب ، ولذلك أصاب الاستعمار الانجليزى بنوع خاص مايشبه السعار فأخذ يشن حملات عاتية لتخدير اعصاب الشعب المصرى وغيره من الشعوب العربية مستعينا فى ذلك بأذنابه ومأجوريه ، وذلك بنشر أخبار خيالية عن الحرب المقبلة وقيامها حتما فى سنة ١٩٤٨ ثم عن الشيوعية وغزوها المزعوم لبلاد الشرق الاوسط وغيرها .

هذه الحملات لابد من تحطيمها لانها حملات مجرمة مفرضة ولن ترهبنا اراجيف ولا دسائس عن أن نهتك

(*) نشرت فى ١٩٤٨/٢/٨

سترها ونحرقها بنار الايمان

لدعاة الاستعمار بل لخونة الوطن أن يدعوا ما يشاءون ولكننا نرفض ان نمكن حرب الاعصاب التى يشنونها من أن تنال من غيرتنا على هذا الوطن وحرصنا على استقلاله الصحيح ومصالحه الفعلية شيئا على الاطلاق

اننا نرفض التحالف مع انجلترا والدفاع المشترك لاننا نريد استرداد سيادتنا الخارجية كاملة ولان السنين الطويلة الماضية علمتنا ان هذا التحالف ليس الا الحماية بعينها ..

على اننا نود ان يذكر أولئك الذين قد يكونون حسنى النية ممن يرون عقد تحالف مع انجلترا الى ان مثل هذا التحالف لا يراد منه الا تقييدنا وارهاقنا بمختلف الالتزامات الاستعمارية . وأما الانجليز فلن يلتزموا بشيء ولا ضرورة لان نلزمهم بشيء لان مصالحهم هى التى تربطهم فما الداعي اذن لان نرتبط بمعاهدات اذا لم يروا هم مصلحة في تنفيذها فلن ينفذوها وما العهد باتفاقية ٣٠ يونيو سنة ١٩٤٧ الخاصة بالارصدة ونقضهم لها بعد أقل من شهرين من توقيعها عندما تعارضت مع مصالحهم ببعيد

وبقيت الشيوعية وتلك فرية كاذبة ولن يدفعها عن مصر أو غير مصر التحالف مع الانجليز وانما يدفعها تحقيق العداله الاجتماعية ورفع مستوى الانتاج العام فى البلاد

على ان الايام الاخيره قد قدمت للمصريين دليلا لا يدفع على أن مصلحتنا الاساسية لن يحققها غير الحياد والتعامل مع كافة الدول على أساس المنافع المتبادلة وان احتكار دولة كانجلترا أو غيرها لحياتنا السياسية او الاقتصادية او الثقافية فيه اكبر الضرر ببلادنا

لقد كان الانجليز يحتكرون شراء قطننا وقد بخسوه

اكبر البخس منذ قيام الحرب حتى الآن وذلك حرصا منهم على افقارنا وخوفا من غنانا حتى لا ننتعش ونهب فى وجوههم مطالبين بحرياتنا كما حدث فى سنة ١٩١٩ اذ ظنوا ان الرواج المالى الذى حدث عندئذ قد كان الدافع لنا الى الثورة الوطنية الكبرى وحرصا من هؤلاء المستعمرين على التحكم فى قطننا رفضوا ، رغم انتهاء الحرب ، فتح بورصة ليفربول الخاصة بالقطن وبورصة مانشستر ومدوا العمل بالنظام الذى وضعوه أثناء الحرب وهو القاضى بأن لا يشترى القطن الا مجلس التجارة المساوى لوزارة التجارة عندنا على أن يوزع هذا المجلس القطن على المصانع المختلفة بأثمان محددة وذلك لكى لا يترك المصانع تشترى بنفسها هذا القطن أو تتنافس فى شرائه فترتفع أسعاره فى البورصات وخارجها ، وكان من نتيجة ذلك أن ظلت أسعار قطننا بالغة الانخفاض .

ثم أضافوا الى ذلك أن أخذوا يعرقلون تجارتنا الخارجية بشتى الوسائل السياسية والمالية وذلك حتى لا نستطيع أن نبيع لغيرهم

ولكنه حدث اخيرا تحت ضغط الرأى العام الوطنى وثورته على احتكار الانجليز لبلادنا سياسيا واقتصاديا أن أخذت الحكومة المصرية تفاوض كافة الدول لتصريف القطن حتى انتهى بها الامر الى مفاوضة الروسيا نفسها تلك المفاوضة الدائرة اليوم والتى ازعجت الانجليز ايما ازعاج فشمروا عن ساعدهم ودخلوا السوق مشترين حتى لقد قالت احدى الصحف الصباحية أمس ما يأتى :

« تشير اكثر من ناحية من النواحى القطنية المتصلة بالسوق الى أن السبب الحقيقى فى الارتفاع يرجع الى تدخل انجلترا بواسطة مجلس التجارة مشترية فى السوق

حتى أنها كلفت ٢٤ بيتا من بيوت التصـــــــــدير بالشراء لحسابها كوسيلة لمنع الاتفاق بين مصر وروسيا التى تريد شراء ١٧ ألف طن من القطن المصرى ، لان الاكثار من الطلب مع قلة المعروض سيؤدى حتما الى رفع السعر الى مستوى ترفض معه روسيا الشراء ، ولذا تؤكد بعض الدوائر ان الاسعار ستستمر فى الارتفاع فى الاســـــبوع المقبل »

هنا ما قالته الصحيفة ، ومن ثم يتضح كيف أنه بمجرد ان فتحنا باب التنافس بين الدول المختلفة على قطننـــــا دون أن تثنينا عن ذلك صيحات المجرمين الذين يحاربون بلادنا باسم الشيوعية والروسية وما الى ذلك من أراجيف مغرضة ارتفعت أسعار محصولنا الاساسى هـــذا الارتفاع العظيم

ان فى هذه الحادثة الدليل القاطع من الناحية الاقتصادية على أن سياسة الحياد ومعاملة الجميع هى التى تحقق مصالح بلادنا كما أن نفس الحيـــاد هو الذى سيحقق من الناحية السياسية استقلالنا الحقيقى

منطق الدعاية

اشتدت فى الايام الاخيرة حركة الدعاية باسم الحرب واحتمال نشوبها عما قريب حتى اخذت أعصاب القارىء العادى تتوتر وأخذ تفكيره يترنح وكل تلك الدعاية من الملاحظ أنها انما تأتى الينا فى مصر وفى الشرق الأوسط كله من معسكر واحد هو المعسكر الانجلو امريكى ، الذى ربطنا به الاستعمار وتدور بيننا وبينه اليوم معركة تحرير لا يريدون أن يسلموا الينا فيها بحقوقنا المشروعة فى استكمال استقلالنا وفك القيود الموضوعة على سيادتنا السياسية والاقتصادية

وهذه الدعاية العنيفة نود اليوم ان نسلم جدلا بأنها تقوم على أساس .. وان يكن رأينا الحقيقى أنها حملة تضليل وحرب أعصاب .. نعم فلنسلم جدلا بأن لتلك الحملة أساسا ثم نتساءل عما يمليه المنطق السياسى السليم على انجلترا وأمريكا من جهة وعلى مصر والعالم العربى من جهة أخرى نتيجة لتلك الحالة الدولية التى يصفونها بالخطورة

فاذا كانت الحرب تهدد العالم وكان الانجليز والامريكيون يريدون أن يطمئنوا الى عون العالم العربى

(*) نشرت فى ١٩٤٨/٣/٢٢

فيها او على الأقل ان يأمنوا شره فان السبيل أمامهم انما هو ان يسلموا بحقوق ذلك العالم العربى وان يتخلصوا من عداوته لهم تلك العداوة التى لها ما يبررها من استعمار الانجليز لاراضينا عشرات السنين دون ان يبروا بوعد أو تصدق لهم كلمة . وأن يدركوا أنه ما دامت الشعوب تعاديهم فلن تجديهم شيئا أية معاهدات او محالفات يملونها على تلك البلاد بواسطة أذنابهم وبخاصة اذا ذكرنا ان تلك الشعوب قد وقفت فى الحربين العالميتين الاخيرتين الى جانب ما يسمونه الديمقراطية موقفا شريفا ، ثم لم تكد الحرب كل مرة تنتهى حتى تنكرت تلك الديمقراطية العجيبة لهذه الشعوب وأذاقتها المر فاستذلت رقابها ونكلت بأبنائها وحصدت شهداءها وتكالبت على استعمارها وتنكرت لكافة الوعود

وفى الحق ماذا يمكن أن يجدى حلف يفرض فرضا مادام الشعب لا يقبله والذى لاشك فيه أن فرض مثل هذا الحلف لن يكون له غير أثر واحد وهو زيادة عداوة الشعب لمن فرضه وتربصه للخلاص منه بل والانتقام ممن فرضه عندما تسنح الفرصة وستكون تلك الفرصة نشوب الحرب حيث يرى المستعمرون الشعب الذى ظنوه قد قيد بمحالفة يطعنهم من الخلف انتصافا لعزته المجروحة وكرامته المهانة ..

هذا هو ما يمليه المنطق السياسى الصحيح ، وهو ما يجب أن يتدبره الانجليز ومن خلفهم الامريكيون الذين يناصرونهم واما ترويعنا باسم الحرب لكى نقبل معاهدة لا نريدها أو حلفا لا نرضاه ، فهذا هو الخوف بعينه

اننا شعب مسالم لا مصلحة له فى الانضمام الى أولئك او هؤلاء واننا لا نبغى الا استكمال استقلالنا وتبادل

المنافع بعد ذلك مع الجميع فاننا عندما تشتد علينا الدعاية باسم الحرب لا يمكن الا أن نزداد نفورا من الدخول فى محالفات ستضطرنا عما قريب الى خوض حروب يشنها أناس جشعون ولن ينالنا منها غير الاذى دون أن نحصـل منهم على اية فائدة

وهكذا يتضح ان الضغط باسم الحرب لن يحملنا على مالا نريد من تحالف وان الاجدر بالانجليز والامريكان اذا كانت دعايتهم صحيحة أن يتدبروا منطقهـا بأن يسلموا لشعبنا وللشعوب العربية الاخرى بحقوقها المشروعة فى الحرية والاستقلال الكاملين

فهرس

القسم الثانى : من آفات النفوس

القسم الثالث : فى السياسة والاقتصاد

وكلاء اشتراكات مجلات دار الهلال

اللاذقيــــة : السيد نخلة سكاف

جــــــدة : السيد هاشم بن على نحاس ـ ص٠ب ٤٩٣

البحــرين : السيد مؤيد أحمد المؤيد ـ ص٠ب ٢١

البـــرازيل :

Sr. Miguel Maccul Cury,
R. 25 de Marco, 994,
Caixa Postal 7406,
Sao. Paulo, BRAZIL

سـنغافورة :

Mr. Ahmed Bin Mohamad Bin Samit
Almaktab Attijari Assharat,
P.O. Box 2205,
SINGAPORE

انجلتـــــرا :

ARABIC PUBLICATIONS
DISTRIBUTION BUREAU
7, Bishoposthorpe Road
London S.E. 26
ENGLAND



هذا الكتاب

يضم هذا الكتاب مجموعة من الدراسات الهامة التى كتبها الدكتور محمد مندور (١٩٠٧ - ١٩٦٥) قبل ثورة ١٩٥٢ . وهذه الدراسات لم تظهر من قبل فى كتاب ، بل كانت مبعثرة بين عشرات الصحف والمجلات التى كان الدكتور مندور يعمل فيها قبل الثورة

وعندما نقرأ هذا الكتاب الهام ندرك أن الدكتور مندور كان احد كبار المبشرين بقيام ثورة ٢٣ يوليو . فالكتاب فى دراساته المختلفة هو وثيقة أدانة علمية وثورية للباشوات الذين تحكموا فى مصر واستغلوا شعبها اسوأ استغلال ، وهو وثيقة ادانة للاستعمار الاقتصادى وكشف عن أساليبه ودهاليزه التى كان يحاول ان يختبىء فيها عن العيون والانظار ، وهو وثيقة ادانة لصحافة الاثارة التى حاولت ان تحيط بالضباب كل القضايا الهامة للشعب .. خدمة للمستعمرين والباشوات

ان هذا الكتاب هو وثيقة ادانة كاملة لمجتمعنا القديم .. وهو ادانة مدعمة بالاسماء الصريحة والارقام والوقائع والتصرفات .. وقد اتيح لهذه الوثيقة الهامة ان يكتبها قلم فيه عذوبة الفن ووضوح العلم وامانة الضمير الوطنى النقى المؤمن بالشعب ..